

موسوعة

الأخلاق والآداب

في

سؤال وجواب

إعداد

إسلام محمود درباله

مدير مركز أبحاث ودراسات المستقبل للإسلام

رقم الإيداع  
٢٠٠٧/٥٢٧٩١

مكتبة الإيمان  
المنصورة - امام جامعة الأزهر  
ت : ٢٢٥٧٨٨٢ / ٠٥٠



obeykandi.com

## مقدمة المؤلف

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مِنْ يَهْدِيهِ اللَّهُ فَلَا مَضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧١﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وبعد:

«الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، وخلق له السمع والبصر والقوى والجوارح والبنان، وشرفه بمعرفته، وأهله لخدمته، وفضله على سائر الحيوان، واختصه بالنهي والأمر، والوزر والأجر، والطاعة والعصيان، ومنحه الحلم والحزم، والفكر والفهم، والذكر والعلم، والتحقق والعرفان، ونحله الرضى والغضب، والتودد والأدب، والتلطف والأرب، والرقّة والجشْب، والراحة واللغْب، والتذكر والنسيان، سبحانه من إله خلق فسوى، وقدر فهدى، وأمات فأحيا، وأعطى ومنع، وخفض ورفع، وأتم الدين، وأعلن البرهان، حد الخدود، وعم بالفضل الوجود، وبيّن الأحكام من مباح وحلال وحرام، ومكروه ومندوب، فاندرج فيها الأدب المطلوب، ففضل هذا الدين على سائر الأديان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضد له ولا ند له، ولا وزير ولا مشير ولا أعوان، بل هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الصحابة والولد، فهو القادر المقدر الحكيم الديان.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وحببيه وخليله، وأمينه على وحيه، وشهيدته على أمره ونبيه، سيد ولد عدنان، الذي أكمل خلقه، وعظم خلقه، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وأدبه فأحسن تأديبه، فكان خلقه القرآن، وأيده بالوحي والتنزيل، والفضل والتفضيل، والبيان والتفصيل، والحكمة والتأويل، والحسن والإحسان.

اللهم صل وسلم وشرف وعظم وبجل وكرم، وضاعف ذلك على هذا النبي الكريم، المنعوت في الكتاب الكريم، بأعظم نعت وأتم تفخيم، بقوله جل ثناؤه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فيألفها من مزية ساد بها على الملائكة والانس والجان، وعلى آله وأصحابه، وأنصاره وحزبه، وأصهاره وأحبابه، المتخلقين بخلقهم، والمتأديين بأدابه في السر والإعلان. الذين بذلوا نفوسهم النفيسة في إظهار دينه القويم، وجاهدوا بسمر القنا وبيض الظبا من حاد عن صراطه المستقيم، ونشروا السنة والكتاب، وأظهروا الفروض والآداب، بأسلم قلب وأفصح لسان، وعلى تابعيهم، والأئمة المجتهدين ومقلديهم، ما نقلت أخبارهم، ودونت آثارهم، وكر الجديدان، وتعاقب الملوان»<sup>(١)</sup>

قال النبي ﷺ: «أثقل شيء في الميزان، الخلق الحسن»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة مجالس أحاسنكم أخلاقًا، وإن

(١) من مقدمة العلامة السفاريني لكتابه غذاء الألباب شرح منظومة الآداب - بتصرف يسير.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٧٨ عون) الأدب، والترمذي (٢٠٠٣) البر والصلة، وأحمد (٤٤٨/٤٤٦/٦)

والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٠)، وابن حبان (٤٨١/٢) الإحسان، وقال الترمذي: حسن

صحيح.

(٣) رواه أحمد (٢/٢٥٠). وابن حبان (٤٧٩/٢) الإحسان) البر والإحسان وصححه الألباني.

أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً، الثرثارون والمتفيهقون، والمتشدقون»<sup>(١)</sup>. وقال ﷺ: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار»<sup>(٢)</sup>. وقال ﷺ: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها»<sup>(٣)</sup>. وقال ﷺ: «إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوامم القوامم بآيات الله بحسن خلقه وكرم ضريبته»<sup>(٤)</sup>. وقال ﷺ: «إن الناس لم يعطوا شيئاً خيراً من خُلُق حسن»<sup>(٥)</sup>. وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»<sup>(٦)</sup>. وقال ﷺ: «خيركم أحاسنكم أخلاقاً، المواظون أكنافاً، وشراركم الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»<sup>(٧)</sup>. وقال ﷺ: «خير ما أعطى الناس خلق حسن»<sup>(٨)</sup>. وقال ﷺ: «ليس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن»<sup>(٩)</sup>.

قال ابن ماسكويه: «الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين:

- (١) روه أحمد (١٩٣/٤)، وابن حبان (٤٨٢/٢) الإحسان، والبغوي في شرح السنة وصححه العلامة الألباني (٣٣٩٥).
- (٢) رواه الحاكم (٦٠/١) الإيمان، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وصححه العلامة الألباني.
- (٣) رواه الطبراني في الأوسط، انظر مجمع البحرين رقم (٢٩٢٦) وصححه العلامة الألباني في الجامع رقم (١٧٣٩).
- (٤) رواه أحمد (١٧٧/٢) وصححه العلامة الألباني في الصحيحة رقم (٥٢٢).
- (٥) رواه الطبراني في الكبير (١/١٤٥) وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٧٣).
- (٦) سبق تخريجه.
- (٧) رواه البيهقي في الشعب (رقم ٧٩٨٨) باب حسن الخلق، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٥٥).
- (٨) رواه الحاكم مطولاً (١/١٢١) العلم، وقال صحيح ولم يخرجاه وكذا في (١٩٩/٤) الطب. وقال: هذا حديث أسانيد صحيحة كلها على شرط الشيخين ولم يخرجاه والعلّة عندهم، فيه أن أسامة بن شريك ليس له غير زياد بن علاقة، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣١٦).
- (٩) رواه أحمد (٤٤٦-٤٤٨/٦) وصححه العلامة الألباني في الصحيحة رقم (٨٦٧).

منها ما يكون طبيعيًا: من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب ويهيج من أقل سبب.

وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، كالذي يجبن من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغمم ويحزن من أيسر شيء يناله.

ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولًا فأولًا حتى يصير ملكةً وخلقًا<sup>(١)</sup>

مدح الله ﷻ نبيه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعبي خلق عظيم، دين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام. فجعل الدين كله خلقًا، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الدين. وقال الحسن رضي الله عنه: هو آداب القرآن، وقال ابن القيم: «إنك لعلى الخلق الذي أترك الله به في القرآن».

وفي الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئًا<sup>(٣)</sup>. قال النووي: «معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بأدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته»<sup>(٤)</sup>.

«ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة، وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روى عنه، ولكن هذه الكلمة أعظم بدالاتها

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف لابن ماسكويه، حققه وشرح غريبه ابن الخطيب (٤١) الطبعة الأولى، المكتبة المصرية.

(٢) سورة القلم: ٤ .

(٣) انظر صلاح الأمة في علو الهمة للشيخ سيد حسين العفاني (٥/٢٢٥)، والحديث رواه مسلم (٧٤٦) صلاة المسافرين، مطولًا، وأحمد (٤٥/٦).

(٤) شرح النووي في صحيح مسلم (٦/٣٨، ٣٩).

من كل شيء آخر أعظم بصدورها عن العلي الكبير، وأعظم بتلقي محمد ﷺ لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً، لا يتكبر على العباد، ولا يتفخ، ولا يتعاضم، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير<sup>(١)</sup>.

«وقد تمثلت هذه الأخلاق الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها وإطرادها وثابتها في محمد ﷺ، وتمثلت في ثناء الله العظيم وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>. وقال النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»<sup>(٣)</sup>، قال فضل الله الجيلاني: «لا يكون دين من الأديان خالياً من مكارم الأخلاق، لكن لم تكن الأخلاق الكريمة مجموعة كلها في دين من الأديان السابقة حتى جمع الله في دين الإسلام كل ما كان من أخلاق حسنة، فهذا معنى «أتمم مكارم الأخلاق» أي أبلغ نهايتها»<sup>(٤)</sup>.

قال الأستاذ/ محمد محمود الباني ما ملخصه: «الأخلاق هي مجموعة من المعاني والصفات المستقرة في النفس، وعلى ضوءها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح». وبما أن الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة فقد اتصف بالأوصاف الخلقية المحمودة كالعلم والحلم والتواضع والكرم والصدق والوفاء وشدة الحياء وحسن المعاشرة والآداب إلى غير ذلك من الخصال العلية والأخلاق المرضية أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته؟ لم فعلته ولا لشيء لم أفعله إلا فعلته وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، وما مسست خبزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عطرًا

(١) في ظلال القرآن (٣٦٥٦/٦) ط. دار العلم بجدة.

(٢) في ظلال القرآن (٣٦٥٨/٦).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧١/١)، والحاكم (٦٣١/٢) التاريخ، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال العلامة الألباني (٤٥): وهذا إسناد حسن، وابن عجلان إنما أخرج له مسلم مقروناً بغيره، وله شاهد أخرجه ابن وهب في الجامع؛ فالحديث صحيح.

(٤) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد (٢٧١/١).

أطيب من عرق رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها عندما جاءها في أول بدء الوحي خائفاً: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على النوائب»<sup>(٢)</sup>.

وعن أنس رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ قال: «لم يكن رسول الله ﷺ سباباً، ولا لعاناً، ولا فاحشاً، كان يقول لأحدنا عند المعاتبه: ما له تربت جبينه»<sup>(٣)</sup>.  
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئين إلا كان أحبهما إليه أيسرهما. وفي رواية: «إلا اختار أيسرهما، إلا أن تكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، وما انتقم رسول الله ﷺ إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله»<sup>(٤)</sup>.

ومن أقوال السلف -رحمهم الله- في حسن الخلق:

قال الحسن: حسن الخلق بسط الوجه، وبذل الندي، وكف الأذى.

وقال أبو عثمان: هو الرضا عن الله تعالى.

وقال سهل التستري: أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم. والاستغفار له، والشفقة عليه.

أن لا يتهم الحق في الرزق، ويثق به، ويسكن إلى الوفاء بما ضمن، فيعطيه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه، وفيما بينه وبين الناس.  
وقيل: حسن الخلق بذل الجميل، وكف القبيح.

(١) رواه البخاري (١٠/٤٧١) الأدب، ومسلم (٢٣٠٩) الفضائل.

(٢) رواه البخاري (١/٣٠) بدء الوحي.

(٣) رواه البخاري (١٠/٤٦٧) الأدب، وأحمد (٣/١٢٦، ١٤٤، ١٥٨).

(٤) رواه مسلم (٢٣٢٧) الفضائل، وأبو داود (٤٧٥٦) عون) الأدب مختصراً.

وقيل: التخلي عن الرذائل، والتخلي بالفضائل.

وقال يحيى بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

وقال ﷺ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات.

وقال الجنيد: أرفع العبد على أعلى الدرجات وإن قل علمه وعمله:

الحلم، والتواضع، والسخاء، وحسن الخلق، وهو كمال الإيمان.

وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إلى من أن يصحبني عابد سيء الخلق.

وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال:

- ١- قلة الخلاف.
  - ٢- وحسن الإنصاف.
  - ٣- وترك طلب العثرات.
  - ٤- وتحسين ما يبدو من السيئات.
  - ٥- والتماس المعذرة.
  - ٦- واحتمال الأذى.
  - ٧- والرجوع بالملامة على النفس.
  - ٨- والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون غيره.
  - ٩- وطلاقة الوجه للصغير والكبير.
  - ١٠- ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه.
- وذهب الغزالي إلى أن حُسن الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال الجميلة المحمودة شرعاً وعقلاً بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فهذا هنا أربعة أمور:
- أحدها: فعل الجميل.

والثاني: القدرة عليه.

والثالث: المعرفة به.

والرابع: هيئة للنفس بها تميل على الحسن ويتيسر عليها.

وليس الخلق عبارة عن الفعل؛ رب شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال، أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء.

وليس هو عبارة عن القدرة لأن نسبة القدرة إلى الإمساك والإعطاء واحد، وكل إنسان خلق بالفطرة قادرًا على الإعطاء، والإمساك.

وليس هو عبارة عن المعرفة، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقيح جميعًا على وجه واحد، بل هو عبارة عن المعنى الرابع، فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة<sup>(١)</sup>.

ويقول ابن القيم رحمه الله: «وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة الرفق وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم وعلى البذل والفداء الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارتهم وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعته يحسك عنانها ويكبحها عن الجزع والبطش.

والعدل: يحمله على اعتدال الخلق وتوسطه فيما بين طرق الإفراط والتفريط<sup>(٢)</sup>.

(١) نقلًا عن صلاح الأمة (٥/٢٤٠).

(٢) باختصار من مدارج السالكين (٣/٣٠٨-٢٣١١).

ومن أمثلة حسن خلق السلف رضي الله عنهم :

شتم رجل سلمان الفارسي فقال له : إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول ، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول .

وشتم رجل الربيع بن خيثم فقال له : يا هذا سمع الله كلامك ، وإن دون الجنة عقبة ، إن قطعها لم يضرني ما تقول ، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول .

وقالت له امرأة : يا مرأي . فقال : ما عرفني غيرك .

وقال علي بن يزيد : أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زماناً طويلاً ثم قال : أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً .

شتم رجل الأحنف بن قيس فسكت عنه : وأعاد الرجل فسكت عنه وأعاد فسكت عنه . فقال الرجل : والهفاه ما يمنعه من أن يرد على إلا هواني عنده .

وشتمه رجل وجعل يتبعه حتى بلغ حيه . فقال الأحنف : يا هذا إن كان بقي في نفسك شيء فهاته وانصرف . لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره .

وقال رجل لمالك بن دينار : بلغني أنك ذكرتني بسوء ؟! قال : أنت أكرم على من نفسي ، إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناي .

وقال رجل لبعض الحكماء : والله لأسبنك سباً يدخل معك في قبرك . فقال : معك يدخل لا معي .

وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه ، فلم يغضب ، فقيل له في ذلك فقال : أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب .

قال محمود الوراق :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب      وإن كثرت منه على الجرائم  
وما الناس إلا واحد من ثلاثة      شريف ومشروف ومثلي مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذي دوني فإن قال صنت عن إجابته عرضي وإن لام ولائم

وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالحللم حاكم

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك من الفاسقين. قال: ليس تقبل شهادتك.

سب رجل ابن عباس رضي الله عنه، فلما فرغ قال: يا عكرمة، هل للرجل حاجة فتقضئها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى.

وعن علي بن الحسين بن علي أنه سبه رجل، فرمى إليه بجميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم.

فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل ما يبعد عن الله، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بثيء من الدنيا يسير.

قال يحيى بن منده: كان عمى سيقاً على أهل البدع، وهو أكبر من أنه يثني عليه مثلي، كان -والله- أمراً بالمعروف. ناهياً عن المنكر، كثير الذكر، قاهراً لنفسه، عظيم الحلم، كثير العلم. قرأت عليه قول شعبة: من كتبت عنه حديثاً فأنا له عبد: فقال عمى: من كتب عني حديثاً فأنا له عبد.

قال خطيب الموصل أبو الفضل: حدثني أبي قال توجهت من الموصل سنة ٤٥٩هـ إلى أبي إسحاق -يعني الشيرازي- فلما حضرت عنده رحب بي وقال: من أين أنت؟ فقلت: من الموصل. قال: مرحباً، أنت بلدي.

قلت: يا سيدي أنت من فيروز آباد؟ قال: أما جمعتنا سفينة نوح؟ فشاهدت من حسن أخلاقه، ولطائفه، وزهده ما حجب إلى لزومه، فصحبته إلى أن مات.

وقيل إن أبا إسحاق نزع عمامته - وكانت بعشرين ديناراً - وتوضأ في دجلة فجأة لص فأخذها وترك عمامة رديئة بدلها، فطلع الشيخ فلبستها، وما شعر حتى سألوه وهو يدرس. فقال: لعل الذي أخذها محتاج.

قيل للأحنف بن قيس: من أين تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. قيل: وما بلغ حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.

كان الفضيل بن عياض رحمته الله إذا قيل له: إن فلاناً يقع في عرضك يقول: والله لأغيطان من أمره - يعني إبليس - ثم يقول: اللهم إن كان صادقاً فاغفر لي، وإن كاذباً فاغفر له.

وكان أبو معاوية الأسود يدعو لمن نال منه

وشتم رجل بكر بن عبد الله المزني رحمته الله فبالغ في شتمه وهو ساكت.

فقيل له: ألا تشتمه كما شتمك فقال: إني لا أعرف له شيئاً من المساوئ حتى أشتمه به ولا يحل لي أن أرميه بالكذب.

وقال رجل مرة لسالم بن عبد الله رحمته الله: يا شيخ السوء فقال له سالم: ما أراك أبعدت يا أخي<sup>(١)</sup>.

ويذكر العلامة جمال الدين القاسمي جملة من الأخلاق التي ينبغي أن يتربى عليها أهل الإسلام، قال رحمته الله ما ملخصه: «كل من أعار الوجود نظره البصير علم أن حاجة المرء على تأديب نفسه، لا تفوقها حاجة، لأن الإنسان إلى الشر أميل منه إلى الخير، وعلى الشهوات النفسية أميل منه إلى الكمالات الروحية، فكان من المحتم العناية بتهديب خلقه، وتحليه بالمحاسن والفضائل، وتطهير نفسه من المساوئ والردائل، فيصبح محمود

(١) صلاح الأمة في علو الهمة (٢٥٣/٥-٢٧٠)

الأقوال والأفعال، مثلاً للفضيلة والكمال، وهذه شذرة مما يلزمك أن تتخلق به من آداب نفسك: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، لا تستخفن بفضائل شريف، لا تملن إلى سخي، لا تقولن هجرًا لثلا يسقط قدرك، لا تفعلن نكرًا لثلا يقبح ذكرك، إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن، فكلام الإنسان بيان فضله، وترجمان عقله، فأقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، وإياك وما يستقبح من الكلام فإنه ينفر عنك الكرام، ويوثب عليك اللثام، إياك واللجاج فإنه يوغر القلوب، وينتج الحروب، فاقتصر من الكلام على ما يثبت حاجتك ويبلغك حاجتك، ون قال بلا احترام أجيب بلا احتشام، لا تعود نفسك إلا ما تحظى بأجره وتحمد على ذكره، وإياك ومحااجة من يملكك قهره وينفذ فيك أمره، يستدل على رزانه الرجل بقلة نطقه ومقاله، وعلى فضله بفضل عمله واحتماله فأكرم إخوانك، وأكثر خلانك، وأكفهم لسانك، فطعن اللسان أنفذ من طعن السنان، تعام عما تسوؤك رؤيته، وتغاب عما تضرك معرفته، ولا تشر على م لا يقبل منك، ولا تجب عما لا تسأل عنه، وإذا عانت فاستبق، وإذا صنعت معروفًا فاستره، وإذا صنع إليك فانشره، وإذا أذنت فاعتذر، وإذا أذنب إليك فاغفر، فالمعذرة بيان العقل، والمغفرة بيان الفضل، لا تزهد في رجل عرف فضله، وجرب عقله، ولا تعن قويا على ضعيف. وتلا تؤثر دنيا على شرف، ولا تشر بما يعقب الوزر والإثم، ولا تفعل ما يقبح الذكر والاسم. الق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة ولا هية منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، ليكن ضالة عقلك التي ينشدها ونجته التي يرتاده الحق، فاحكم به ولو على نفسك، ولا تكن ممن تأخذ العزة بالإثم، عليك بالنشاط والعمل، وترك البطالة والكسل، ولا تكن كلاً على غيرك، فإن الرجل كل الرجل الذي يأكل من كسبه، ويشرب من ورده.

أقدم على جلائل الأعمال مع الضبر والثبات، واحمل نفسك على معالي الأمور والتثبت بأحسن الأعمال، والأمور العظام والتهاون لنيلها بالآلام، فإن الكسل من

النقائص التي توجب الحسائس، والشورور.

وقد قيل: إذا رقدت النفس في فراش الكسل استغرقت في بحر الحرمان. . . . .  
 مجلسك هادئاً. وحديثك موزوناً مرتباً، وإذا جلست فلا تستوفر، وتحفظ من تشبيك  
 أصابعك وفرقتها، والعبث بشاربك ولحيتك وخاتمك، وتحليل أسنانك، وإدخال  
 إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقلك وتنحنحك، والتمطي والتثاؤب في وجه الناس وفي  
 الصلاة وغيرها.

أصغ إلى الكلام الحق ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تسأله إعادته،  
 واسكت عن المضاحك والحكايات، لا تحدث عن إعجابك بولدك وشرعك وكلامك  
 وتضيفك وسائر ما يخصك. إذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك، وتفكر في جهتك.  
 لتكن سهل اللقاء والبشاشة ولو في حال المرض، وبادر بالتحية والبشر من تلقاه  
 واكتم بؤسك، واجعل شكواك لمن يقدر على غناك، ولا تحضر منازعة فإنك لا تخلو من  
 قسط من أذاها، ولو بالمطالبة بأداء الشهادة.

إياك والانبساط فإنه عورة من عوراتك، فلا تبذله إلا للمأمون عليه حقيق به، لا  
 تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع  
 أحداً على ظلم، لا تعلم أحداً من أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك، فإنهم  
 إن رأوه قليلاً هنت عليهم وإن رأوه كثيراً لم تبلغ رضاهم قط، واجفهم من غير عنف  
 ولن لهم من غير ضعف ليكون لك فضل عزلة؛ فإن كثرة الخلطة مجلبة الابتذال.

ومما يروي عن علي عليه السلام: إياك وفعل القبيح فإنه ذكرك ويكثر وزرك، إياك أن  
 تستهل ركوب المعاصي فإنها تكسوك في الدنيا ذلة وتكسبك في الآخرة سخط اللهز عليك  
 بالحكمة فإنها الحلية، عليك بالحياء فإنه عنوان النبل، عليك بالسخاء فإنه ثمرة العقل،  
 عليك بالأناة فإن المتأني حري بالإصابة عليك بحسن الخلق فإنه يكسبك الكرامة ويكفيك  
 الملامة، عليك بلزوم الحلال، وحسن البر بالعيال، عليك بالصدقة تنج من دناءة  
 الشح، عود نفسك الجميل فإنه يجمل عنك الأحدثة، ويجزل لك المثوبة، عود نفسك

حسن الكلام تأمن الملام. كن بالوحدة آنس منك بقرناء السوء، كن للمظلوم عونًا، وللظالم خصمًا، كن للود حافظًا وإن لم تجد محافظًا، كن مؤاخذًا نفسك مغالبًا سوء طبعك، وإياك أن تحمل ذنوبك على ربك. كن بأسرارك بخيلاً، ولا تدع سرًا أودعته فإنه الإذاعة خيانة، كن حسن المقال جميل الأفعال، فإن مقال الرجل برهان فضله، وفعاله عنوان عقله، كن صموتًا من غير عي، فإن الصمت زينة العالم وستر الجاهل. كن بعدوك العاقل أوثق منك بصديقك الجاهل، كن متصفًا بالفضائل مبرأ من الرذائل.

لا تأس على ما فات، لا تقولن ما يسؤوك جوابه، لا تركنن في مودة من لم تكشفه، لا تزهدن من شيء حتى تعرفه، لا تضمن ما لم تقدر على الوفاء به، لا تخبر بما لم تحط علمًا به، لا تأمن البلاء في أمنك ورخائك، لا تعدن سرًا ما أدركت به خيرًا لا تعدن خيرًا ما أدركت به شرًا لا تتكلم بما لا تعلم فكفى بذلك جهلًا، لا تمسك عن إظهار الحق إذا وجدت له أهلًا، لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال:

لا تعود نفسك اليمين فإن الخلاف لا يسلم من الإثم، لا تعود نفسك الغيبة فإن معتادها عظيم الجرم، لا تيأس من الزمان إذا منع، ولا تثق به إذا أعطى، كن على أعظم الحذر، لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل، لا تخل نفسك من فكرة تزيدك حكمة، وعبرة تفيدك عصمة، لا تسيء الخطاب فيسوءك الجواب، ولا تحارب من لا يعتصم بالدين، فإن مغالب الدين محروب<sup>(١)</sup>، لا تغالب من لم يستظهر بالحق فإن مغالب الحق مغلوب.

لا تجهل نفسك فإن الجاهل بنفسه جاهل بكل شيء<sup>(٢)</sup>.



(١) أي مهزوم في الحرب.

(٢) جوامع الآداب في أخلاق الأجيال لجمال الدين القاسمي الدمشقي (٦-١٥) باختصار ط.

مؤسسة قرطبة.

أما الأدب فقد ذكر ابن حجر رحمته تعالى في شرحه لكتاب الأدب في صحيح الإمام البخاري رحمته قال: الأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً<sup>(١)</sup>.

وعبر بعضهم بأنه: الأخذ بمكارم الأخلاق، وقيل: الوقوف مع المستحسنتات، وقيل: هو تعظيم من فوقه والرفق بمن دونه.

والأدب كذلك مما ورد في تعريفه: حسن الأخلاق وفعل المكارم. والأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس سمي أدباً؛ لأنه يأدبُ الناس إلى المحامد ويدعوهم إليها.

وجاء في المصباح عن الأدب: أنه تعلم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق، وقيل: الأدب ملكة تعصم من قامت به عما يشينه.

وقال ابن القيم رحمته: «الأدب اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة: الطعام الذي يجتمع عليه الناس».

وكذلك يطلق الأدب في اللغة: على الجمع وسمي الأدب أدباً لأنه يأدبُ الناس، يجمعهم إلى المحامد، والأدب: هو الخصال الحميدة.

أما استعمالات هذه الكلمة في كتب أهل العلم فإنها تأتي بمعنى: خصال الخير مثل: آداب الطعام، وآداب الشراب، وآداب النكاح، وآداب القضاء، وآداب الفتيا وآداب المشي، وآداب النوم، ونحو ذلك.

وللعلماء في هذا مصنفات، ويُطلق بعض الفقهاء كلمة آداب على كل ما هو مطلوب سواء كان واجباً أو مندوباً ولذلك بوبوا فقالوا: آداب الخلاء والاستنجاء مع أن منها ما هو مستحب وما هو واجب، فكلمة أدب أو آداب أو أن هذا الشيء من الآداب لا يعني أنه فقط مستحب بل ربما يكون واجباً.

ويطلق الفقهاء أيضاً كلمة «أدب» بمعنى: الزجر والتأديب، كما جاء في حديث:

(١) فتح الباري (١٠/٤١٤).

جعل السوط في البيت فإنه أدب لهم<sup>(١)</sup> - يعني: لأهل البيت.

إذا قيل: أدبه بمعنى عاقبه وزجره وعززه فهذه من معاني كلمة الأدب كذلك.

والأدب أيضًا يطلق على شيء يتعلق باللغة: إصلاح اللسان والخطاب وتحسين الألفاظ والصيانة عن الخطأ والزلل كما صنف ابن قتيبة رحمته «أدب الكاتب» إذن كلمة الأدب المستعملة في اللغة هذه لفظة مولدة حدثت في الإسلام، أطلقوا على بعض الأشياء المتعلقة باللسان من الشعر والنثر أدبًا، فهذا إطلاق لغوي يتعلق بإصلاح اللسان والخطابة

وقد ذكر الفقهاء الآداب على أبواب الفقه، فذكروا في كل باب ما يخصه من الآداب، فلاستنجاء مثلاً ذكروا آداب الاستنجاء، غير الأحكام الفقهية مما يجوز ولا يجوز ذكروا أشياء من الآداب، وفي الطهارة كذلك بأقسامها ذكروا آدابًا وفي القضاء ذكروا آداب القضاء في كتب الفقه.

وصنفت كتب خاصة بالأدب مثل: كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي، ونظم ابن عبد القوي رحمته منظومته المشهورة في الأدب والآداب وشرحها السفاريني رحمته ومن قبله صنف الإمام ابن مفلح كتاب «الآداب الشرعية».

وهناك كتب تتكلم بشكل مخصوص عن آداب معينة مثل: «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» لابن جماعة رحمته، و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي رحمته، و«أدب الإملاء والاستملاء» للسمعاني، وهو إملاء الحديث وكتابته كيف يملي المحدث الحديث؟ وكيف يكتبه عنه الطلاب؟ وفي آداب الفتيا كتب منها «آداب الفتيا» للسيوطي، وفي آداب البحث والمناظرة مثل كتاب «آداب البحث

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٣٣٢/٧) من حديث ابن عمر مرفوعًا، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٨٤/١٠)، و«الأوسط» (٣٤١/٤)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه، ولفظه: «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه أدب لهم» وقد أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٦/٨) وحسنه الألباني لشواهد في «الصحيحة» (١٤٤٦)، (١٤٤٧).

والمناظرة» للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، هذه كتب خاصة بآداب العلم والتعلم. كذلك في «آداب الأكل» للإفهامي و«آداب الأطفال» للهيتمي، وفي الصحبة كتب مثل كتاب «آداب الصحبة» للسلمي، وفي آداب العشرة كتب مثل كتاب أبي البركات الغزي، وفي التجارة أيضًا، آداب التجارة، وآداب الحوار، وآداب معاملة اليتيم، وآداب الطبيب، وهناك الكثير من الكتب تتكلم في آداب مخصوصة.

أما بالنسبة لأهمية الأدب فقد حث الإسلام المسلم أن يعتني بالآداب في أولاده وذويه ولا يتغافل عنهم ويذكرهم ويأدبهم بآداب الإسلام، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] قال علي رضي الله عنه: «علموهم وأدبوهم». وقال مجاهد رضي الله عنه: «أوقفوا أنفسكم وأهلكم بتقوى الله وأدبوهم».

ومما جاء في النصوص الشرعية في معاني ما يتعلق بالأدب والتأديب قول النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الصحيح: «ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين... ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاها، ثم أدها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»<sup>(١)</sup>.

وكذلك فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب، إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة»<sup>(٢)</sup> وتأديب الرجل فرسه أي: ترويضه وتعليمه.

والأدب كذلك هذه اللفظة جاءت في حديث جابر رضي الله عنه عندما تزوج ثيبًا، وسأله النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه تزوج بثيب فقال عليه الصلاة والسلام: «فهل تزوجت بكرًا

(١) أخرجه: البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٢/٨٩/١)، والنسائي في «كتاب عشرة النساء» رقم

(٥٢، ٥٣، ٥٤) من حديث جابر بن عبد الله أو جابر بن عمير، وله شاهد عند الترمذي، وابن

ماجه وغيرهما، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٥).

تلاعبها وتلاعبك» قال يا رسول الله استشهد والذي ولي أخوات صغار فكرهت أن أتزوج مثلهن فلا تأديهن، ولا تقوم عليهن فتزوجت ثيبًا لتقوم عليهن وتأديهن<sup>(١)</sup>. قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوًّا ءَأَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦] قال ابن عباس وغيره: «أدبوهم وعلموهم» وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع، فالأدب: «اجتماع خصال الخير في العبد ومنه المأدبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس».

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب وإصابة مواقفه وتحسين ألفاظه وصيانه عن الخطاء والخلل وهو شعبة من الأدب العام. «والأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله وشرعه، وأدب مع خلقه.

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع أحدها: صيانة معاملته: أن يشوبها بنقيصة، الثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره، الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يملكك عليه. وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله وخطابهم وسؤالهم كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به، قال المسيح ﷺ: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ [المائدة: ١١٦] ولم يقل: لم أقله وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره فقال: تعلم ما في نفسي ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ثم أتى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به وهو محض التوحيد فقال: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم وأن الله ﷻ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم وصفه بأن

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٧١٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم فقال: وأنت على كل شيء شهيد ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدا لغيرك فإذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فلولا أنهم عبيد سوء من أجنس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له: لم تعذبهم لأن قرينة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحسانا عبيده لولا فرط عتوهم وإباؤهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] أي هم عبادك وأنت أعلم بسرهم وعلايتهم فإذا عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة كما تظنه القدرية وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بمآلهم واستحقاقهم للعذاب ثم قال: ﴿وَإِن تَنْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل الغفور الرحيم، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعاة بل مقام براءة منهم، فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه ولجهله بمقدار إساءته إليه والكمال: هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب، وفي بعض الآثار: حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك

لك الحمد على حلمك بعد علمك واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠] ولم يقل وإذا أمرضني حفظا للأدب مع الله وكذلك قول الخضر ﷺ في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] ولم يقل فأراد ربك أن أعييبها وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] وكذلك قول مؤمن الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠] ولم يقولوا: أرادهم ربهم ثم قالوا: أم أراد بهم ربهم رشدا وألطف من هذا قول موسى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقل أطمعني وقول آدم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّنَا لَغَفِيرٌ لَنَا وَتَزَحَّمْنَا لِنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ولم يقل: رب قدرت علي وقضيت علي وقول أيوب ﷺ: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ولم يقل فعافني واشفني وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: أخرجني من الحب حفظا للأدب مع إخوته وتفنيا عليهم: أن لا ينجلهم بما جرى في الحب وقال: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ ولم يقل: رفع عنكم جهد الجوع والحاجة أدبا معهم وأضاف ما جرى إلى السبب ولم يصفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسول والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل: أن يستر عورته وإن كان خاليا لا يراه أحد أدبا مع الله على حسب القرب منه وتعظيمه وإجلاله وشدة الحياء منه ومعرفة وقاره وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرا وباطنا فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهرا وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا.

وقال عبد الله بن المبارك رحمته الله: من تهاون بالأدب عوقب بجرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بجرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بجرمان المعرفة.

وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل ولهذا كان الأدب: استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل فإن الله سبحانه هياً الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد فألهمه ومكنه وعرفه وأرشده وأرسل إليه رسله وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكمالها إلى الفعل قال الله تعالى: ﴿وَقَفَّيْ وَمَا سَوَّيْهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدالة على الاعتدال والتمام ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى وأن ذلك نالها منه امتحاناً واختباراً ثم خص بالفلاح من زكاها فنهاها وعلاها ورفعها بأدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه وهي التقوى ثم حكم بالشقاء على من دساها فأخفاها وحقرها وصغرها وقمعها بالفجور.

والأدب هو الدين كله؛ فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب والتطهر من الخبث من الأدب حتى يقف بين يدي الله طاهراً ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة فقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة لا بستر العورة إيذاناً بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة، وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي ومعلوم: أن الله تعالى يجب أن يرى أثر نعمته على عبده لا سيما إذا وقف بين يديه فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها طاهراً وباطناً، ومن الأدب: نهى النبي صلى الله عليه وسلم المصلي: أن يرفع بصره إلى السماء فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي

ربه مطرفاً خافضاً طرفه إلى الأرض ولا يرفع بصره إلى فوق قال: والجهمية لما لم يفقهوا هذا الأدب ولا عرفوه ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سمواته على عرشه كما أخبر به عن نفسه واتفقت عليه رسله وجميع أهل السنة قال: وهذا من جهلهم بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول على نقيض قولهم إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض ولا يرفع بصره إليهم فما الظن بملك الملوك سبحانه وسمعته يقول في نبيه عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: إن القرآن هو أشرف الكلام وهو كلام الله وحالتا الركوع.

والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم ﷺ والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان كما ذكرنا في غير هذا الموضع ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد: أنه من السنة و: كان الناس يؤمرون به ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء فعظيم العظماء أحق به ومنها: السكون في الصلاة وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبدالله بن المبارك عن ابن هبة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألتنا عقبه بن عامر عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون دائماً قال: لا ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران الدوام عليها والمداومة عليها فهذا الدوام والمداومة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة، وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد وأدبه في الركوع: أن يستوي ويعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ويتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى

يكون أقل من الهباء والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه والتأدب بأدابه ظاهرا وباطنا ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته ومعرفته بدينه وشرعه وما يجب وما يكره ونفس مستعدة قابلة لينة متهيئة لقبول الحق علما وعملا وحالا والله المستعان.



وأما الأدب مع الرسول: فالقرآن مملوء به فأس الأدب معه: كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولا أو يحمله شبهة أو شكاً أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحد المرسل ﷺ بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول فلا يحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه: تأويلا وحملا فقال: نؤوله ونحمله فلأن يلقي العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بهذه الحال ولقد خاطبت يوما بعض أكابر هؤلاء فقلت له: سألتك بالله لو قدر أن الرسول حي بين أظهرنا وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا وبأي شيء نسخ فوضع إصبعه على فيه وبقي باهتا متحيرا وما نطق بكلمة هذا أدب الخواص معه لا مخالفة أمره والشرك به ورفع الأصوات وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم وعزل كلامه عن اليقين وأن يستفاد

منه معرفة الله أو يتلقى منه أحكامه بل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكه المتحيرة المتناقضة وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركا لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره واستئصال شافته ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ (٦٦) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَلُونَ ﴿٦٧﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لِنَاكَ لَعْنَةً يَا كَذِبُونَ ﴿٦٨﴾ فَكَانَتْ آيَاتِي تُنَادِي عَلَيْكُمْ فَاكْفُرُوا بِنِعْمَتِي إِكْفَارًا وَكُفْرًا كَبِيرًا ﴿٦٩﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٠﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُم مُنْكَرُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنبَتْنَاهُمْ بَدَنًا وَأَنبَتْنَاهُمْ مَعْرُوفًا ﴿٧٣﴾ أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرُوجًا فَخْرَاجٍ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ إِلَيْنَ لَآ يَأْتِيهِمْ سَاعَةٌ أَن يَدْعُونَنَا فَنُقَرِّبَهُمْ إِلَيْكَ وَلَا تَجْعَلُونَ لِقَاءَ رَبِّكُمْ إِذْ تُسْعَفُونَ ﴿٧٥﴾ وَهَذَا بَاقٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَمْ يَنْسَخْ فَالتَّحَدُّثُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٧٦﴾ [الحجرات: ١] وسته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رضي الله عنه: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر ولا تنهوا حتى ينهى ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به أترى ذلك موجبا لقبول الأعمال ورفع الصوت فوق صوته موجبا لحبوطها ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ

يَتَّبِعُكُمْ كَدُّعَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴿٦٣﴾ [النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين أحدهما: أنكم لا تدعون به باسمه كما يدعو بعضهم بعضا بل قولوا: يا رسول الله ﷺ يا نبي الله فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول أي دعاءكم الرسول الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضهم بعضا إن شاء أجب وإن شاء ترك بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من أجابته ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل أي دعاؤه إياكم

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد منهم مذهبا في حاجته حتى يستأذنه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] فإذا كان هذا مذهبا مقيدا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله وفروعه دقيقه وجليله هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] [الأنبياء: ٧] ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد فكل هذا من قلة الأدب معه وهو عين الجرأة.



وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم فلكل مرتبة أدب والمراتب فيها أدب خاص فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به ومع العالم: أدب آخر ومع السلطان أدب يليق به وله مع الأقران أدب يليق بهم ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته ولكل حال أدب: فلأ كل آداب وللشرب آداب وللركوب والدخول والخروج

والسفر والإقامة والنوم آداب وللبول آداب وللكلام آداب وللسكوت وللإستماع آداب .

وأدب المرء : عنوان سعادته وفلاحه وقلة أذبه : عنوان شقاوته وبواره فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب فانظر إلى الأدب مع الوالدين : كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة والإخلال به مع الأم تأويلاً وإقبالاً على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة .

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر : كيف تجرد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان .

وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة : أن يتقدم بين يديه فقال : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده فكان ذلك التأخر إلى خلفه وقد أوماً إليه أن : اثبت مكانك جزاً وسعياً إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي والله أعلم فصل قال صاحب المنازل الأدب : حفظ الحد بين الغلو والجفاء بمعرفة ضرر العدوان هذا من أحسن الحدود فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء : هو قلة الأدب والأدب : الوقوف في الوسط بين الطرفين فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها ولا يتجاوزها ما جعلت حدوداً له فكلاهما عدوان والله لا يحب المعتدين والعدوان : هو سوء الأدب وقال بعض السلف : دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه فإضاعة الأدب بالجفاء : كمن لم يكمل أعضاء الوضوء ولم يوف الصلاة آدابها التي سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلها وهي قريب من مائة أدب : ما بين واجب ومستحب وإضاعته بالغلو : كالوسوسة في عقد النية ورفع الصوت بها والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سرا وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه كالشهاد الأول والسلام الذي حذفه سنة وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على ما يظنه سراق الصلاة والنقارون لها ويشتهونهم فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بأمر

ويخالفه وقد صانه الله من ذلك وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات ويأمرهم بالتخفيف وتقام صلاة الظهر فيذهب الذهاب إلى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضأ ويدرك رسول الله ﷺ في الركعة الأولى فهذا هو التخفيف الذي أمر به لا نقر الصلاة وسرقها فإن ذلك اختصار بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ويسمى به مصليا وهو كأكل المضطر في الخمصة ما يسد به رمقه: فليته شبع على القول الآخر وهو كجائع قدم إليه طعام لذيذ جداً فأكل منه لقمة أو لقمتين فماذا يغنيان عنه ولكن لو أحس بجوعه لما قام من الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك لكن القلب شبعان من شيء آخر ومثال هذا التوسط في حق الأنبياء عليهم السلام: أن لا يغلو فيهم كما غلت النصارى في المسيح ولا يجفو عنهم كما جفت اليهود فالنصارى عبدوهم واليهود قتلوهم وكذبوهم والأمة الوسط: آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم واتبعوا ما جاءوا به ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله أو عن تكميلها أو عن مصلحة دينه وقلبه وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية فإن الطرفين من العدوان الضار وعلى هذا الحد فحقيقة الأدب: هي العدل والله أعلم<sup>(١)</sup>.



أما التزكية، فقد بعث الله ﷻ الرسل عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين، ليذكروا بآيات الله وليعلموا الناس وليزكوا الأنفس، فالتعليم والتذكير والتزكية هي أهم مهمات الرسل، انظر مصداق ذلك في دعوة إبراهيم لذريته: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

(١) ما تقدم من كلام على أنواع الأدب منقول من مدارج السالكين لابن القيم رحمه الله.

وانظر الاستجابة لهذه الدعوة والمنة على هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَاةً وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

ولقد قال موسى لفرعون: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكِّيَ﴾ ⑧ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشِيَ ﴿ [النازعات: ١٨-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑨ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧-١٨].

وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ⑩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

فتزكية النفس من مهمات الرسل، وهي هدف للمتقين، وعليها مدار النجاة عند الله ﷻ.

والتزكية في اللغة تأتي على معان: منها التطهير، ومنها النمو وهي كذلك في الاصطلاح، فزكاة النفس تطهيرها من أمراض وأفات، وتحقيقها بمقامات، وتخليقها بأسماء وصفات.

فالتزكية في النهاية: تطهرٌ وتحققٌ وتخلق، ولذلك وسائله المشروعة، وماهيتها وثمراتها الشرعية، ويظهر آثار ذلك على السلوك، في التعامل مع الله ﷻ ومع الخلق، وفي ضبط الجوارح وفقاً لأوامر الله.

إن تزكية القلوب والنفوس: إنما تكون بالعبادات فإذا أُدِّيت العبادة على كمال وتمام فعندئذ يتحقق القلب بمعان تكون النفس بها مزكاة، ويكون لذلك آثاره وثمراته على الجوارح كلها كاللسان والعين والأذن وبقية الأعضاء، وأظهر ثمرات النفس المزكاة حسن الأدب والمعاملة مع الله والناس: مع الله قياماً بحقوقه بما في ذلك بذل النفس جهاداً في سبيله، ومع الناس على حسب الدائرة وعلى مقتضى المقام وعلى ضوء التكليف الرباني.

فالتزكية لها وسائل مثل: الصلاة، والإنفاق، والصوم، والحج، والذكر، والفكر وتلاوة القرآن، والتأمل، والمحاسبة، وتذكر الموت، إذا أُدِّيت هذه على كمالها وتمامها.

ومن آثار ذلك أن يتحقق القلب بالتوحيد، والإخلاص، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والحلم، والصدق مع الله، والمحبة له، ويتخلى عما يقابل ذلك من رياء، وعجب، وغرور، وغضب للنفس، أو للشيطان، وبذلك تصبح النفس مزكاة فتظهر ثمرات ذلك في ضبط الجوارح على أمر الله في العلاقة مع الأسرة والجوار والمجتمع والناس.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].



وبين يديك أيها القارئ الكريم سفرٌ جليل، حوى آدابًا وأخلاقًا وفضائل، تزكي النفوس، وتطهر القلوب، بحول وقوة علام الغيوب، لمن كان راغبًا في النجاة في الآخرة والسعادة في الدنيا.

وقد حرصت على أن أورد فيه ما صح من الأحاديث النبوية في كل باب، مع نقل كلام أهل العلم عليها، حرصت كذلك على أن يخلوا الكتاب من ألفاظ وعبارات الطرقية، وأصحاب الشطحات، سوى ما قد يفوت سهوًا، وعذري فيما يفوت تأثر كثير من كتب الأخلاق والآداب والرفائق بتلك العبارات وقد اعتمدت في هذا الكتاب على كتب الرفائق المسندة، وكتب الأدب والأخلاق من منشورٍ ومنظوم، وأغلب مادة الكتاب من كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي رحمته الله ومختصراته، بعد تصنيفيتها من الغبش ومن أبواب كتابنا هذا:

العلم وفضله، علم المعاملة، العلوم المحمودة، آداب المعلم والمتعلم، آفات العلم، الطهارة وأسرارها، فضائل الصلاة، صلاة الجمعة، الزكاة وأسرارها، دقائق الآداب الباطنة في الزكاة، آداب القابض للزكاة، صدقة التطوع فضلها وآدابها، الصوم وأسارره، سنن الصوم، بيان أسرار الصوم وآدابه، الحج وأسارره، آداب القرآن

وفضائله، آداب التلاوة، الأذكار والدعوات، أورد الليل والنهار وترتيبها، أورد الليل، اختلاف الأورد باختلاف الأحوال، قيام الليل وفضله، الأسباب الميسرة لقيام الليل، آداب الأكل، آداب الضيافة، آداب النكاح، آداب المعاشرة، آداب الولادة، آداب الطلاق، آداب الكسب والمعاش، الحلال والحرام، آداب الصحة ومعاشرة الخلق، صفات الصاحب، حقوق الإخوان، حقوق المسلم، آداب عيادة المريض، آداب تشييع الجنائز، حقوق الجار، حقوق الأقارب والأرحام، حقوق الأولاد، حقوق المملوك، العزلة والخلطة، آداب السفر، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حكم السماع، من أخلاق النبوة، أحوال القلوب، مداخل إبليس، ثبات القلوب على الخير، حسن الخلق، الطريق إلى تهذيب الأخلاق، علامات مرض القلب وصحته، شهوات النفوس، علامات حسن الخلق، تنشئة الأبناء، شهوة البطن، شهوة الفرج، آفات اللسان، الكلام فيما لا يعني، الخوض في الباطل، التقعر في الكلام، الفحش والسب، المزاح، السخرية والاستهزاء، إفشاء السر والكذب، الغيبة، النميمة، ذي اللسانين، الغضب، كظم الغيظ، الحلم، العفو، الرفق، الحقد والحسد، الدنيا، المال، الحرص والطمع، البخل، الرياء، الكبر، العجب، الغرور، التوبة، الصبر، الشكر، الرجاء، الخوف، الفقر، الزهد، التوكل، المحبة، الرضا، النية، الإخلاص، الصدق، المحاسبة والمراقبة، التفكير، الموت، القبر، جهنم، الجنة، سعة رحمة الله تعالى.

وختاماً فدونك هذه السبيكة الخالصة، والعقد المتألى، عسى الله أن يرفع به قارته، وكتبه وكل من شارك في إخراجه ونشره، اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، واجعلنا من أهل السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، وتوفنا على الإسلام والسنة.

### وكتب

إسلام محمود درباله

مدير مركز أبحاث ودراسات المستقبل للإسلام

موسوعة

الأخلاق والآداب

في

سؤال وجواب

obeykandi.com

## العلم وفضله

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل العلم والعلماء؟

ج: قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وفي «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» [أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)]. وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما: عابد، والآخر: عالم، فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير» [أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٥)] وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٢٢٣) وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٢١٣).

وفي حديث آخر: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يرثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر» [أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)]، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٢٢٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٢١٢).

قال الخطابي: في معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه بسط الأجنحة.

الثاني: أنه بمعنى التواضع تعظيماً لطالب العلم.

الثالث: أن المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة» [أخرجه مسلم (٢٦٩٩)].

وكان بعض الحكماء يقول: ليت شعري، أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم.

ومن فضائل التعليم ما أخرجاه في «الصحيحين» عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم» [أخرجه البخاري (٣٠٠٩)].

وقال ابن عباس: «إن الذي يعلم الناس الخير تستغفر له كل دابة حتى الحوت في البحر». فإن قيل ما وجه استغفار الحوت للمعلم؟ فالجواب: أن نفع العلم يعم كل شيء حتى الحوت، فإن العلماء عرفوا بالعلم ما يحل ويحرم، وأوصوا بالإحسان إلى كل شيء حتى المذبوح والحوت، فألهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاءً لحسن صنيعهم.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» [أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢)]، فإن الفقهاء أولي الفهم، كمثل البقاع التي قبلت الماء فأنبتت الكلاً لأنهم علموا وفهموا، وفرعوا وعلموا. وغاية الناقلين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم، أنهم كمثل الأجادب التي حفظت الماء فانتفع بما عندهم، وأما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا، فهم العوام الجاهلة.

وقال الحسن رضي الله عنه: لولا العلماء لسار الناس مثل البهائم.  
 وقال معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية  
 وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة،  
 وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة».

س: وما هو العلم الواجب تعلمه على كل مسلم ومسلمة؟

ج: روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «طلب العلم فريضة  
 على كل مسلم».

قال الفقهاء: هو علم الفقه، إذ به يعرف الحلال والحرام.  
 وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يتوصل إلى العلوم  
 كلها.

وقالت الصوفية: هو علم الإخلاص وآفات النفوس.  
 وقال المتكلمون: هو علم الكلام. إلى غير ذلك من الأقوال.  
 والمعاملة التي كلفها الله للعباد على ثلاثة أقسام: اعتقاد، وفعل، وترك.  
 فإذا بلغ الصبي، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناها، فإذا جاء  
 وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة، فإذا عاش إلى رمضان وجب عليه  
 تعلم الصوم، فإن كان له مالا وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة، وإن جاء  
 وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه تعلم المناسك.

وأما التروك: فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال، إذا لا يجب على الأعمى تعلم  
 ما يحرم النظر إليه، ولا على الأبكم تعلم ما يحرمه من الكلام، فإن كان في بلد  
 يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير، وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك.

وأما الاعتقادات: فيجب عليه تعلم أركان الإيمان ونواقضه حتى يحذر الوقوع  
 فيما يضاد الإيمان. وإن كان في بلد قد كثرت فيه البدع، وجب عليه أن يتلقن الحق،

كما لو كان تاجرًا في بلد شاع فيه الربا، وجب عليه أن يتعلم الحذر منه. وينبغي أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار. فبان بما ذكرنا أن المراد بطلب العلم الذي هو فرض عين: ما يتعين وجوبه على الشخص.

أما فرض الكفاية: فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب إذ هو ضروري في بقاء الأبدان على الصحة، والحساب، فإنه ضروري في قسمة الموارث والوصايا وغيرها.

فهذه العلوم لو خلا البلد عن يقوم بها أتم أهل البلد، وإذا قام بها من تقوم به الكفاية سقط الفرض عن الباقيين.

ولا يتعجب من قولنا: أن الطب والحساب من فروض الكفاية، فإن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفاية، كالزراعة والحياكة. وأما التعميق في دقائق الحساب، ودقائق الطب وغير ذلك، فهذا يعد فضيلة، لأنه يستغنى عنه.

وقد يكون بعض العلوم مباحًا، كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار.

وقد يكون بعضها مذمومًا، كعلم السحر، والطلسمات، والتليسات. فأما العلوم الشرعية فكلها محمودة، وتنقسم إلى أصول، وفروع ومقدمات ومتممات.

فالأصول: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة. والفروع: ما فهم من هذه الأصول من معان تنبته لها العقول حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره، كما فهم من قوله: «لا يقضي القاضي وهو غضبان» [أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)] أنه لا يقضي جائعًا.

والمقدمات: هي التي تجري مجرى الآلات، كعلم النحو واللغة، فانهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والمتممات: كعلم القراءات، ومخارج الحروف، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم، فهذه هي العلوم الشرعية، وكلها محمودة.

### علم المعاملة

فأما علم المعاملة وهو علم أحوال القلب، كالخوف، والرجاء، والرضا، والصدق، والإخلاص، وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهر ذكرهم، كسفيان الثوري، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد. وإنما انحطت رتبة المسمين بالفقهاء والعساة عن تلك المقدمات، لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بحفاياه. وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظهار، واللعان، والسبق، والرمي، ويفرع التفرعات التي تمضي الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها، ولا يتكلم في الإخلاص، ولا يجذر من الرياء، وهذا عليه فرض عين، لأن في إهماله هلاكه، والأول فرض كفاية. ولو أنه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس في الإخلاص والرياء لم يكن له جواب. ولوسئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمي، لقال: هذا فرض كفاية، ولقد صدق، ولكن خفي عليه أن الحساب فرض كفاية أيضًا، فهلا تشاغل به، وإنما تبهرج عليه النفس؛ لأن مقصودها من الرياء والسمعة يحصل بالمناظرة، لا بالحساب.

واعلم: أنه قد بدلت ألفاظ وحرفت، ونقلت إلى معان لم يردها السلف الصالح. فمن ذلك: الفقه، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول منطلقًا على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

ولذلك قال الحسن البصري رحمته: «إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في

الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم».

فكان إطلاقهم اسم الفقه على الآخرة أكثر؛ لأنه لم يكن متناولاً للفتاوى، ولكن كان متناولاً لذلك بطريق العموم والشمول، فثار من هذا التخصيص تلبس بعض الناس على التجرد لعلم الفتاوى الظاهرة، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة. اللفظ الثاني: العلم فقد كان ذلك يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته، أي نعمه وأفعاله في عباده، فخصوه وسموا به في الغالب المناظر في مسائل الفقه وإن كان جاهلاً بالتفسير والأخبار.

اللفظ الثالث: التوحيد وقد كان ذلك إشارة إلى أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط فيثمر ذلك التوكل والرضا، وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام في الأصول، وذلك من المنكرات عند السلف. اللفظ الرابع: التذكير والذكر. قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فنقلوا ذلك إلى القصص وما يحتوي عليه اليوم مجلس القاص من الشطح والطامات، وهي من أشد ما يؤذي العوام. اللفظ الخامس: الحكمة. والحكمة: العلم والعمل به. قال ابن قتيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل. وقد سار هذا الاسم يطلق في هذا الزمان على الطبيب والمنجم.

## العلوم المحمودة

س: ما هي أقسام العلوم المحمودة؟

ج: اعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين:

الأول: محمود إلى أقصى غاياته، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل. وهو العلم بالله تعالى، وبصفاته، وأفعاله، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، والتوصل به إلى سعادة الآخرة، وهو البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم المحومون على سواحله وأطرافه بقدر ما يتيسر لهم.

القسم الثاني: العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، وهي التي ذكرناها من فروض الكفايات، فإن في كل منهم افتقارًا واقتصارًا واستقصاءً. فكن أحد رجلين: إما مشغول بنفسك، وإما متفرغًا لغيرك بعد الفراغ من نفسك.

وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، واشتغل بإصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة، كالحرص، والحسد، والرياء، والعجب، قبل إصلاح ظاهره.

فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات، فإن في الخلق كثيرًا يقومون بذلك، فإن مهلك نفسه في طلب صلاح غيره سفيه، ومثله من دخلت العقارب تحت ثيابه وهو يذب الذباب عن غيره. فإن تفرغت من نفسك وتطهيرها، وما أبعد ذلك، فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدرج في ذلك.

فابتدأ بكتاب الله ﷻ، ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بعلوم القرآن: من التفسير، ومن ناسخ ومنسوخ، وحكم ومتشابه، إلى غير ذلك. وكذلك في السنة، ثم اشتغل بالفروع، وأصول الفقه، وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت.

ولا تستغرق عمرك في فن منها للاستقصاء، فإن العلم كثير، والعمر قصير، وهذه العلوم آلات يراد بها غيرها، وكل شيء يطلب لغيره، فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب.

## آداب المعلم والمتعلم

س: وضع بعض آداب المتعلم؟

ج: المتعلم ينبغي له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات؛ إذ العلم عبادة القلب.

وينبغي له قطع العلائق الشاغلة، فإن الفكرة متى توزعت قصرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء، فروى عن الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين.

وأهديت إلى أبي بكر الأنباري جارية: «فلما دخلت عليه تفكر في استخراج مسألة فعزبت عنه، فقال: أخرجوها إلى النخاس، فقالت: هل من ذنب؟ قال: لا، إلا أن قلبي اشتغل بك، وما قدر مثلك أن يمنعي علمي».

وعلى المتعلم أن يتواضع لمعلمه، ويبالغ في خدمته، وقد كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يأخذ بركاب زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء».

وينبغي أن يحترز الخائض في العلم في بداية الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه.

وينبغي له أن يأخذ من كل شيء أحسنه؛ لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم، ثم يصرف قوته إلى أشرف العلوم، وهو العلم المتعلق بالآخرة فهذه وظائف المتعلم.

وأما المعلم فعليه وظائف أيضًا: من ذلك الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، ولا يطلب على إفاضة العلم أجرًا، ولا يقصد به جزاء ولا شكرًا، بل يعلم لوجه الله تعالى، ولا يرى لنفسه منة على المتعلمين، بل يرى الفضل لهم إذ يهيؤوا قلوبهم للتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلم فيها، فهم كالذي يعبر الأرض لمن يزرع فيها.

فلا ينبغي أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله تعالى. وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم.

ومنها أن لا يدخر من نصح المتعلم شيئاً، وأن يزره عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مهما أمكن، لا على وجه التوبيخ، فإن التوبيخ يهتك حجاب الهية. ومنها: أن ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله، فلا يلقي إليه ما لا يدركه فهمه ولا يحيط به عقله.

وقال الشافعي رحمته الله:

أنثر درًا بين سارحة النعم      أنظم منشورًا لرعاية الغنم  
ومن منح الجهال علمًا أضاعه      ومن منع المستوجين فقد ظلم

ومنها أن يكون المعلم عاملاً بعلمه. ولا يكذب قوله فعله. قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤].  
وقال علي رضي الله عنه: «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك».

### آفات العلم

س: وما المقصود بعلماء السوء؟

ج: علماء السوء: هم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» [أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد في مسنده (٨٢٥٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦١٥٩)]. «عرف الجنة» يعني ربحها.

وقال بعض السلف: أشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرط.

واعلم: أن الواجب على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهداً أو معرضاً عن المباحات، إلا أنه ينبغي له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع؛ لأنه ليس كل جسم يقبل التعلل، فإن الناس يتفاوتون.

وروى أن سفيان الثوري رضي الله عنه: «كان حسن المطعم. وكان يقول: إن الدابة إذا لم يحسن إليها في العلف لم تعمل».

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: «يصبر من خشونة العيش على أمر عظيم». والطباع تتفاوت.

س: وما هي صفات علماء الآخرة؟

ج: من صفات علماء الآخرة أن يعلموا أن الدنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة. وأنهما كالضرتين، فهم يؤثرون الآخرة، ولا تخالف أفعالهم أقوالهم، ويكون ميلهم إلى العلم النافع في الآخرة، ويجتنبون العلوم التي يقل نفعها إثارة لما يعظم نفعه، كما روي عن شقيق البلخي رضي الله عنه أنه قال لحاتم: قد صحبتني مدة، فماذا تعلمت؟ قال: ثمانية مسائل:

أما الأولى: فإني نظرت إلى الخلق، فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلت محبوبي حسناتي لتكون في القبر معي.

وأما الثانية: فإني نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] فأجهدتها في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى.

وأما الثالثة: فإني رأيت كل من معه شيء له قيمة عنده يحفظه، ثم نظرت من قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فكلما وقع معي شيء له قيمة، وجهته إليه ليبقى لي عنده.

وأما الرابعة: فإني رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف، وليست بشيء، فنظرت في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فعملت في التقوى لأكون عنده كريماً.

وأما الخامسة: فإني رأيت الناس يتحاسدون، فنظرت في قوله تعالى ﴿وَمَنْ قَسَمْنَا  
بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢] فتركت الجسد.

والسادسة: رأيتهم يتعادون، فنظرت في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ  
فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدوًّا.

والسابعة: رأيتهم يذلون أنفسهم في طلب الرزق، فنظرت في قوله تعالى: ﴿وَمَا  
مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

والثامنة: رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم، فتوكلت على  
الله تعالى:

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا منقبضين عن السلاطين، محترزين من  
مخالطتهم.

قال حذيفة رضي الله عنه: «ياكم ومواقف الفتن. قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء،  
يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه». وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: «إذا رأيت العالم يغشى الأمراء، فاحذروا منه فإنه  
لص».

وقال بعض السلف: إنك لم تصيب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينك أفضل  
منه.

ومن صفات علماء الآخرة: أن لا يتسرعوا في الفتوى، وأن لا يفتوا إلا بما  
يتقنون صحته.

وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه: «أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من  
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أحد يُسأل عن حديث أو فتوى إلا ود أن أخاه كفاه  
ذلك. ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدعون العلم اليوم، يقدمون على الجواب في مسائل  
لو عرضت لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لجمع أهل بدر واستشارهم».

ومن صفاتهم: أن يكون أكثر بحبهم في علم الأعمال عما يفسدها ويكد القلوب ويهيج الوسواس، فإن صور الأعمال قريبة سهلة، وإنما التعب في تصفيتها.  
وأصل الدين: التوقي من الشر، ولا يصح أن يتوقى حتى يعرف.  
ومن صفاتهم: البحث عن أسرار الأعمال الشرعية، والملاحظة لحكمها. فإن عجز عن الاطلاع على العلة كفاه التسليم للشرع.  
ومن صفاتهم: اتباع الصحابة وخيار التابعين، وتوقى كل ما حدث.

### الطهارة وأسرارها

س: ما هي مراتب الطهارة؟

ج: اعلم: أن الطهارة لها أربع مراتب:  
الأول: تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات.  
والثانية: تطهير الجوارح من الذنوب والآثام.  
والثالثة: تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.  
والرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهذا هو الغاية القصوى، فمن قويت بصيرته سمت إلى هذا المطلوب، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى، فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء وغسل الثياب، ظناً منه بحكم الوسوسة وقلة علمه أن الطهارة المطلوبة هي هذه فقط، وجهلاً بسير المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان في تطهير القلوب ويتساهلون في أمر الظاهر، كما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أنه توضأ من جرة نصرانية»، وكانوا لا يكادوا يغسلون أيديهم من الزهم ويصلون على الأرض، ويمشون حفاة، ويقتصرون في الاستجمار على الأحجار.  
وقد انتهى الأمر إلى قوم يسمون الرعونة نظافة، فترى أكثر زمانهم يمضي في تزيين

الظواهر، وبواطنهم خراب محشوة بجبائث الكبر، والعجب، والجهل، والرياء، والنفاق، ولو رأوا مقتصرًا في الاستجمار على الحجر، أو حافيًا يمشي على الأرض، أو من يصلي عليها من غير حائل أو متوضأ من آنية عجوز، لأنكروا عليه أشد الإنكار، ولقبوه بالقذر، واستنكفوا من مؤاكلته.

فانظر كيف جعلوا البذاذة التي هي من الإيمان قذارة، والرعونة نظافة، وصيروا المنكر معروفًا، والمعروف منكراً، لكن من قصد بهذه الطهارة النظافة ولم يسرف في الماء، ولم يعتقد أن استعمال الماء الكثير أصل الدين، فليس ذلك بمنكر، بل هو فعل حسن. وليرجع في معرفة الأنجاس والأحداث إلى كتب الفقه.

س: وما هي أنواع إزالة الفضلات؟

ج: إزالة الفضلات نوعان: النوع الأول: أوساخ تزال، كالذي يجتمع في الرأس من الوسخ والدرن، فيستحب تنظيفه بالغسل والترجيل والتدهين لإزالة الشعث، وكذلك ما يجتمع في الأذن والأنف من الوسخ يستحب إزالته.

ويستحب التسوك والمضمضة لإزالة ما على الأسنان واللسان من القلح، وكذلك وسخ البراجم والدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق، وذلك يزيله الغسل.

النوع الثاني من إزالة الفضلات: أجزاء تحذف، مثل قص الشارب، وشفط الإبط، وحلق العانة، وقص الأظافر، ويكره نتف الشيب، ويستحب خضابه.

## فضائل الصلاة

س: تحدث عن فضل الصلاة؟

ج: الصلاة عماد الدين وغرة الطاعات. وقد ورد في فضائل الصلاة أخبار كثيرة مشهورة، ومن أحسن آدابها الخشوع.

وقد روى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله» [أخرجه مسلم (٢٢٨)].

وله في حديث أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من صلى ركعتين لم يحدث فيها نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه» [أخرجه البخاري، ومسلم (٢٢٦)].

س: اذكر طرفاً من خشوع السلف في الصلاة؟

ج: كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتتزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جزع حائط.

وقال ميمون بن مهران: «ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتاً في صلاة قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها، وإنه في المسجد فما انفلت، وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا، فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا».

وكان علي بن الحسن رضي الله عنه: «إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم».

س: وما هو روح الصلاة؟

ج: اعلم: أن للصلاة أركاناً وواجبات وسنناً، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، لأن النطق إذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهديان، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولم يكن القلب حاضرًا، لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقى صورة لا اعتبار بها، قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقَلْبُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] والمقصود أن الواصل إلى الله تعالى هو الوصف الذي استولى على القلب

حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة، ولكن سامح الشارع في غفلة تطراً، لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها.

س: ما هي المعاني التي يتم بها الخشوع في الصلاة؟

ج: المعنى الأول: حضور القلب كما ذكرنا، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له، وسبب ذلك الهمة، فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة، وانصراف الهمة يقوي ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة، فاعلم أن سببه ضعف الإيمان، فاجتهد في تقويته.

والمعنى الثاني: التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب؛ لأنه ربما كان القلب حاضرًا مع اللفظ دون المعنى، فينبغي صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها. والمواد، إما ظاهرة، وهي ما يشغل السمع والبصر، وهو القرب من القبلة، والنظر إلى موضع سجوده، والاحتراز في الصلاة من المواضع المنقوشة، وأن لا يترك عنده ما يشغل حسه، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما صلى في انبجانية لها أعلام نزعها وقال: «إنها ألهتني أنفًا عن صلاتي» [أخرجه البخاري (٧٥٢)، ومسلم (٥٥٦)].

وإن كان من المواد الباطنة، فطريق علاجه أن يرد النفس قهراً إلى ما يقرأ في الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويستعد لذلك قبل الدخول في الصلاة، بأن يقضي أشغاله، ويجتهد في تفرغ قلبه، ويجدد على نفسه ذكر الآخرة، وخطر القيام بين يدي الله ﷻ وهو المطلع، فإن لم تسكن الأفكار بذلك، فليعلم أنه إنما يتفكر فيما أهمه واشتهاه، فليترك تلك الشهوات وليقطع تلك العلائق.

واعلم: أن العلة متى تمكنت لا ينفعها إلا الدواء القوي، والعلة إذا قويت جاذبت المصلي وجاذبها إلى أن تنقضي الصلاة في المجاذبة، ومثل ذلك كمثل رجل تحت

شجرة أراد أن يصفو له فكره، وكانت أصوات العصافير تشوش عليه وفي يده خشبة يطيرها بها، فما يستقر فكره حتى تعود العصافير فيشتغل بها، فقليل له هذا شيء لا ينقطع، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة، فكذلك شجرة الشهوة إذا علت وتفرقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار كأنجذاب العصافير إلى الأشجار والذباب إلى الأقدار، فذهب العمر النفيس في دفع ما لا يندفع، وسبب هذه الشهوة التي توجب هذه الأفكار حب الدنيا.

قيل لعامر بن عبد قيس رضي الله عنه: هل تحدثك نفسك بشيء من أمور الدنيا في الصلاة؟ فقال: لأن تختلف الأسنة في أحب إلى من أجد هذا.

واعلم: أن قطع حب الدنيا من القلب أمر صعب، وزواله بالكلية عزيز، فليقع الاجتهاد في الممكن منه، والله الموفق المعين.

المعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد من شيئين: معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين: الاستكانة، والخشوع.

ومن ذلك الرجاء: فإنه زائد على الخوف، فكم من معظم ملكًا يهابه لخوف سطوته كما يرجو بره.

والمصلي ينبغي أن يكون راجيًا بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب. وينبغي للمصلي حضور قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا سمع المؤذن فليمثل النداء للقيامه ويشمر للإجابة، ولينظر ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر. وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق، وليس لها عنه ساتر، وأنها يكفرها الندم، والحياء، والخوف.

وإذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، فصرف قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك، فكما أنه لا يتوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف

عن غيرها، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالانصراف عما سواه. إذا كبرت أيها المصلي، فلا يكذب قلبك لسانك، لأنه إذا كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى.

فإذا استعدت، فاعلم أن الاستعاذة هي لجأ إلى الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغوًا، وتفهم معنى ما تتلو، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، واستحضر لطفه عند قولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وعظمته عند قولك: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وكذلك في جميع ما تتلو.

وقد روي عن زرارة بن أبي أوفى رضي الله عنه: «أنه قرأ في صلاته: ﴿فَإِذَا قُرِئَ فِي الْقُرْآنِ فَاسْتَمِعْ لَهُ﴾ [المدثر: ٨] فخر ميتًا»، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلief. واستشعر في ركوعك التواضع، وفي سجودك زيادة الذل؛ لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذي خلقت منه وتفهم معنى الأذكار بالذوق.

واعلم: أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدأ، وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسراره وما يعقلها إلا العالمون.

فأما من هوقائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لا يطلع على شيء من ذلك بل ينكر وجوده.

### صلاة الجمعة

س: اذكر بعض الآداب المتعلقة بيوم الجمعة وصلاة الجمعة؟

ج: هي نحو من خمسة عشر:

أحدها: أن يستعد لها من يوم الخميس وفي ليلة الجمعة، بالتنظيف، وغسل الثياب، وإعداد ما يصلح لها.

الثاني: الاغتسال في يومها، كما جاء في الأحاديث في «الصحيحين» [أخرجه البخاري (٨٧٩)، ومسلم (٨٤٦)]. والأفضل في الاغتسال أن يكون قبيل الرواح إليها.

الثالث: التزين بتنظيف البدن، وقص الأظافر، والسواك، وغير ذلك مما تقدم من إزالة الفضلات، وتطيب ولبس أحسن ثيابة.

الرابع: التبكير إليها ماشياً. وينبغي للساعي إلى الجامع أن يمشي بسكون وخشوع، وينوي الاعتكاف في المسجد إلى وقت خروجه.

الخامس: أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يفرق بين اثنين إلا أن يرى فرجة فيتخطى إليها.

السادس: أن لا يمر بين يدي المصلي.

السابع: أن يطلب الصف الأول، إلا أن يرى منكراً أو يسمعه فيكون في التأخر عذراً.

الثامن: أن يقطع النفل من الصلاة والذكر عند خروج الإمام، ويشغل بإجابة المؤذن، ثم بسماع الخطبة.

التاسع: أن يصلي السنة بعد الجمعة إن شاء ركعتين، وإن شاء أربعاً، وإن شاء ستاً.

العاشر: أن يراقب الساعة الشريفة التي في يوم الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر.

واختلف في هذه الساعة، ففي أفراد مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه: «أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضي الصلاة» [أخرجه مسلم (٨٥٢)، قال الألباني في «رياض الصالحين» (ص ٤٢٥)]: «صح الأئمة وقفه على أبي موسى الأشعري ومنهم الإمام الدارقطني». وفي حديث آخر: «هي ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تقضي الصلاة» [أخرجه

الترمذي (٤٩٠)، وابن ماجه (١١٣٨) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب ما جاء في الساعة التي ترجى في الجمعة، وفيه: كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، قال الحافظ في «تهذيب التهذيب» (٨/٤٢٣): «وقال أبو نعيم: ضعفه علي بن المديني، وقال ابن سعد: كان قليل الحديث، يستضعف، وقال ابن السكن: يروى عن أبيه عن جده أحاديث فيها نظر، وقال الحاكم: حدث عن أبيه، عن جده نسخة فيها مناكير، وضعفه الساجي، ويعقوب بن سفيان، وابن البرقي، وقال ابن عبد البر: مجمع على ضعفه»، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» برقم (١٨٩٠). وفي حديث جابر رضي الله عنه: «أنها آخر ساعة بعد العصر». وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «التمسوها ما بين صلاة العصر وغروب الشمس» [أخرجه أبو داود (١٠٤٨) كتاب الصلاة - باب الإجابة آية ساعة هي يوم الجمعة، والنسائي (١٣٨٩) كتاب الجمعة - باب وقت الجمعة، وهو حديث حسن]. وقال أبو بكر الأثرم رحمته الله: لا تخلو هذه الأحاديث من وجهين: إما أن يكون بعضها أصح من بعض، وإما أن تكون هذه الساعة تنتقل في الأوقات كتنتقل ليلة القدر في ليالي العشر.

الحادي عشر: أن يكثر من الصلاة على النبي ﷺ في هذا اليوم  
الثاني عشر: أن يقرأ سورة الكهف.

س: ما هي الأوقات المنهي عن التطوع بالصلاة فيها؟

ج: لا يتطوع في أوقات النهي بصلاة لا سبب لها كصلاة التسييح؛ لأن النهي مؤكد فيها عن الصلاة، وهذه الأشياء ضعيفة فلا تقاومه. وأما ما له سبب، كتحية المسجد، وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحوها، فعلى روايتين.

س: ما هي أسرار النهي عن صلاة التطوع في أوقات الكراهة؟

ج: النهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة له ثلاثة أسرار:  
أحدها: ترك التشبه بعباد الشمس.

الثاني: التحذير من السجود لقرن الشيطان، فإن الشمس تطلع معها قرن

الشیطان، فإذا ارتفعت فارقتها، فإذا استوت قارنها، فإذا زالت الشمس فارقتها، فإذا تضايقت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقتها.

الثالث: أن سالكي طريق الآخرة مواظبون على العبادات، والمواظبة على نمط واحد يورث الملل، فإذا وقع المنع زاد النشاط؛ لأن النفس حريصة على ما منعت منه، فمنع الإنسان من الصلاة في أوقات النهي، ولم يمنع من نوع آخر من التعبد، كالقراءة، والتسيح ليتقل العبد من حال إلى حال، كما جعلت الصلاة متنوعة بين قيام وقعود وركوع وسجود.

### الزكاة وأسرارها

س: تحدث عن أهمية الزكاة ومنزلتها في الإسلام؟

ج: الزكاة: أحد مباني الإسلام، وقد قرنها الله ﷻ بالصلاة، فقال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

أما أنواع الزكاة، وأقسامها، وأسباب وجوبها، فظاهر مشهور في مظانه من كتب الفقه، وإنما نذكر هنا بعض الشروط والآداب.

س: ما هي شروط الزكاة؟

ج: من الشروط أن يُخرج المنصوص عليه، ولا يخرج القيمة في الصحيح، فإن من أجاز إخراج القيمة إنما تلمح سد الخلة فقط، وسد الخلة ليس هو المقصود بل بعضه، فإن واجبات الشرع ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعبد محض، كرمي الجمار، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر عبودية العبد بفعل ما لا يعقل له معنى، لأن ما لا يعقل معناه يساعد عليه الطبع ويدعو إليه، فلا يظهر خلوص العبودية به، بخلاف ما ذكرنا.

والقسم الثاني: عكس ذلك، وهو ما لا يقصد منه التعبد، بل المقصود منه حض

محض، كقضاء دين الآدميين، ورد المغصوب ونحو ذلك، وكذلك لا تعتبر فيه النية ولا الفعل، بل كيفما وصل الحق إلى مستحقه حصل المقصود وسقط خطاب الشرع، فهذان قسمان لا تركيب فيهما.

وأما القسم الثالث: فهو المركب، وهو أن يقصد منه الأمران جميعًا: امتحان المكلف، وحظ العباد، فيجتمع فيه تعبد رمي الجمار، وحظ رد الحقوق، فلا ينبغي أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد، ولعل الأدق هو الأهم، والزكاة من هذا القبيل، فحظ الفقير مقصود في سد الخلة، وحق التعبد مقصود الشرع في اتباع التفاصيل، وبهذا الاعتبار صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج، والله أعلم.

### دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

س: اذكر بعض الآداب الخاصة بالمزكي؟

ج: اعلم: أن على ما يريد الآخرة في زكاته وظائف:

الأول: أن يفهم المراد من الزكاة، وهو ثلاثة أشياء: ابتلاء مدعي محبة الله تعالى بإخراج محبوبه، والتزهر عن صفة البخل المهلك، وشكر نعمة المال.

الوظيفة الثانية: الإسرار بإخراجها لكونه أبعد من الرياء والسمعة، وفي الإظهار إذلال للفقير أيضًا، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطى من المال لا يبالي من الفقر بالأخذ بين الجماعة علانية، وأعطى غيره سرًا.

الوظيفة الثالثة: أن لا يفسدها بالمن والأذى، وذلك أن الإنسان إذا رأى نفسه محسنًا إلى الفقير، منعمًا بالإعطاء، ربما حصل منه ذلك، ولو حقق النظر لرأي الفقير محسنًا إليه بقبول حق الله الذي هو طهارة له.

وإذا استحضر مع ذلك أن إخراجها للزكاة شكر لنعمة المال، فلا يبقى بينه وبين الفقير معاملة. ولا ينبغي أن يحتقر الفقير لفقره، لأن الفضل ليس بالمال ولا النقص

بعدمه .

الوظيفة الرابعة: أن يستصغر العطية، فإن المستعصم للفعل معجب به . وقد قيل :  
لا يتم المعروف إلا بثلاث: بتصغيره، وتعجيله، وستره .

الوظيفة الخامسة: أن ينتقي من ماله أحله وأجوده وأحبه إليه، أما الحل، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً . وأما الأجود، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] .

وينبغي أن يلاحظ في ذلك أمرين: أحدهما: حق الله ﷻ بالتعظيم له، فإنه أحق من اختيار له، ولو أن الإنسان قدم إلى ضيفه طعاماً رديئاً لأوغر صدره .  
والثاني: حق نفسه، فإن الذي يقدمه هو الذي يلقاه غداً في القيامة، فينبغي أن يختار الأجواد لنفسه .

وأما أحبه إليه، فلقوله تعالى: ﴿لَنْ نَأْتِيَ بِشَيْءٍ كَمِثْلِ شَيْءِكُمْ إِفْرًا﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا اشتد حبه لشيء من ماله قربه لله ﷻ» .

وروي: «أنه نزل الجحفة وهو شاك، فقال: إني لأشتهي حيتاناً، فالتمسوا له فلم يجدوا إلا حوتاً، فأخذته امرأته فصنعتة ثم قربته إليه، فأتى مسكين، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: خذه، فقال له أهله: سبحان الله قد عينتنا ومعنا زاد نعطيته، فقال: إن عبد الله يحب» .

وروي أن سائلاً وقف بباب الربيع بن خيثم رحمة الله عليه فقال: اطعموه سكرًا، فقالوا: نطعمه خبزًا أنفع فقال: ويحكم أطعموه سكرًا، فإن الربيع يحب السكر .  
الوظيفة السادسة: أن يطلب لصدقته من تزكو به، وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية، ولهم صفات:

الأولى: التقوى، فليخص بصدقته المتقين فإنه يرد بها همهم إلى الله تعالى .

وقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير يتخير العباد وهم سجد، فيأتيهم بالصرّة فيها الدنانير والدراهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه،

ف قيل له : ما يمنعك أن ترسل بها إليهم؟ فيقول : أكره أن يتَّعمر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لقيني .

الثانية : العلم ، فإن في إعطاء العالم إعانة على العلم ونشر الدين ، وفي ذلك تقوية للشريعة .

الثالثة : أن يكون ممن يرى الإنعام من الله وحده ولا يلتفت إلى الأسباب إلا بقدر ما ندب إليه من شكرها ، فأما الذي عادته المدح عند العطاء ، فإنه سيذم عند المنع .

الرابعة : أن يكون صائناً لفقره ، ساتراً لحاجته ، كاتماً للشكوى ، كما قال تعالى : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَقْفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] . وهؤلاء لا يحصلون في شبكة الطالب إلا بعد البحث عنهم ، وسؤال أهل كل محلة عمن هذه صفته .  
الخامسة : أن يكون ذا عائلة ، أو محبوباً لمرض أودين ، فهذا من المحصرين ، والتصدق عليه إطلاقاً لحصره .

السادسة : أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام ، فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة ، وكل من جمع من هذه الخلال خلتين أو أكثر كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع .

### آداب القابض للزكاة

س : وضح بعض الآداب المتعلقة بقابض الزكاة؟

ج : لا بد أن يكون آخذ الزكاة من الأصناف الثمانية ، وعليه في ذلك أمور :

- أن يشكر المعطي ويدعوه ويشني عليه ، وليكن ذلك بمقدار شكر السبب ، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، كما ورد في الحديث . ومن تمام الشكر أن لا يحتقر العطاء وإن قل ، ولا يذمه ، ويغطي ما فيه من عيب ، وكما أن وظيفة المعطي

الاستصغار فوظيفة المعطي الاستعصام، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله ﷻ. فإن من لا يرى الوسطة واسطة، فهو جاهل، وإنما المنكر أن يرى الوسطة أصلاً.

- أن ينظر فيما يعطاه، فإن لم يكن من حل لم يأخذه أصلاً، لأن إخراج مال الغير ليس بركة، وإن كان من شبهة تورع عنه، إلا أن يضيق عليه الأمر، فمن كان أكثر كسبه حراماً، فأخرج الزكاة ولم يعرف لما أخرجه مالك معين، كانت الفتوى فيه أن يتصدق به، فيجوز لهذا الفقير أن يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه وعجزه عن الصافي.

- أن يتوقى الشبه في قدر ما يأخذ، فيأخذ القدر المباح له، ولا يأخذ أكثر من حاجته. فإن كان غارماً لم يزد على مقدار الدين، أو غارماً لم يأخذ إلا مقدار ما يحتاج إليه، وإن أخذ بالمسكنة أخذ قدر حاجته دون ما يستغنى عنه، وكل ذلك موكول إلى اجتهاده، والورع ترك ما يريب.

س: ما هو قدر الغني المانع من أخذ الزكاة؟

ج: اختلف العلماء في قدر الغني المانع من الزكاة، والصحيح فيه أن يكون له كفاية على الدوام، إما من تجارة، أو صناعة، أو أجر عقار، أو غير ذلك، وإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يتممها، وإن لم يكن له ذلك أخذ ما يكفيه. وليكن ما يأخذه بقدر ما يكفي سنته ولا يزيد على ذلك، وإنما اعتبر بالسنة، لأنها إذا ذهبت جاء وقت الأخذ، وإذا أخذ الأكثر منها ضيق على الفقراء.

### صدقة التطوع فضلها وآدابها

س: ما هي فضائل الصدقة؟

ج: فضائل الصدقة كثيرة مشهورة:

منها: ما روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أياكم مال وراثته أحب إليه من ماله»؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم، ومال وراثته ما أخر» [أخرجه البخاري (٦٤٤٢)].

وفي «الصحيحين» من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل» [أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)].

وفي أفراد مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نقصت صدقة من مال» [أخرجه مسلم (٢٥٨٨)]. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟» فقالت: ما بقي منها إلا كتفها، فقال: «بقي كلها إلا كتفها» [أخرجه الترمذي (٢٤٧٠) وقال: حديث صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٩١٩)].

س: أيهما أفضل للفقير الأخذ من الزكاة أم من الصدقة؟

ج: اختلفوا: أيما أفضل للفقير، أن يأخذ من الزكاة، أو من الصدقة. فقال قوم: من الزكاة أفضل، وقال آخرون: من الصدقة أفضل.

س: وما هي أفضل الصدقة؟

ج: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ، أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» [أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢)]. أخرجاه في «الصحيحين».

## الصوم وأسراره

س: وضع طرفاً من فضل الصوم ومنزلته؟

ج: في الصوم خصيصة ليست في غيره، وهي إضافته إلى الله ﷻ حيث يقول سبحانه: «الصوم لي وأنا أجزي به» [أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)]. «لي» بهذه الإضافة شرفاً، كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦]. وإنما فضل الصوم لمعنيين:

أحدهما: أنه سر وعمل باطن، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

الثاني: أنه قهر لعدو الله؛ لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مخصبة، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وترك الشهوات تضيق عليهم المسالك. وفي الصوم أخبار كثيرة تدل على فضله وهي مشهورة.

## سنن الصوم

س: اذكر بعضاً من سنن الصوم ومستحباته؟

ج: يستحب السحور، وتأخيرهِ، وتعجيل الفطر، وأن يفطر على التمر. ويستحب الجود في رمضان، وفعل المعروف، وكثرة الصدقة، اقتداء برسول الله

ﷺ.

ويستحب دراسة القرآن والاعتكاف في رمضان: لا سيما في العشر الأواخر، وزيادة الاجتهاد فيه.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل

العشر - يعني الأخير-، شد مئزره، وأحيا الليل، وأيقظ أهله» [أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)].

ذكر العلماء في معنى شد المئزر وجهين:

أحدهما: أنه الإعراض عن النساء.

الثاني: أنه كناية عن الجد والتشمير في العمل. قالوا: وكان سبب اجتهاده في العشر طلب ليلة القدر.

### بيان أسرار الصوم وآدابه

س: ما هي مراتب الصوم؟

ج: للصوم ثلاث مراتب: صوم العموم. وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

وأما صوم الخصوص: فهو كف النظر، واللسان، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، وسائر الجوارح عن الآثام.

وأما صوم خصوص الخصوص: فهو صوم القلب عن الهمم الدنيئة، والأفكار المبعدة عن الله تعالى، وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية.

فمن آداب صوم الخصوص: غض البصر، وحفظ اللسان عما يؤذي من كلام محرم أو مكروه، أو ما لا يفيد، وحراسة باقي الجوارح.

وفي الحديث من رواية البخاري، أن النبي ﷺ قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» [أخرجه البخاري (١٩٠٣)].

ومن آدابه: أن لا يمتلئ من الطعام في الليل، بل يأكل بمقدار، فإنه ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه. ومتى شبع أول الليل لم ينتفع بنفسه في باقيه، وكذلك إذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه إلى قريب من الظهر، لأن كثرة الأكل تورث الكسل

والفتور، ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل، لأن المراد منه أن يذوق طعم الجوع، ويكون تاركًا للمشتهى.

س: وماذا عن صوم التطوع؟

ج: فأما صوم التطوع، فاعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان، وكصيام يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة، والمحرم. وبعضها يتكرر في كل شهر، كأوله، وأوسطه، وآخره، فمن صام أول الشهر وأوسطه وآخره فقد أحسن. غير أن الأفضل أن يجعل الثلاثة أيام البيض [أخرجه البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١)].

وبعضها يتكرر في كل أسبوع وهو يوم الإثنين، ويوم الخميس [أخرجه الترمذي (٧٤٧)، والنسائي (٢٣٥٨)، وأحمد في مسنده (٢١٢٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٥٨٣)]. وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا [أخرجه البخاري (٥٠٥٢)، ومسلم (١١٥٩)]. وذلك يجمع الثلاثة معان:

أحدها: أن النفس تعطي يوم الفطر حظها، وتستوفي في يوم الصوم تعبدها، وفي ذلك جمع بين مالها وما عليها، وهو العدل.

والثاني: أن يوم الأكل يوم شكر، ويوم الصوم يوم صبر، والإيمان نصفان: شكر وصبر.

والثالث: أنه أشق على النفس في المجاهدة، لأنها كلما أنست بجالة نقلت عنها. فأما صوم الدهر: ففي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كيف بمن يصوم الدهر كله؟ فقال: «لا صام ولا أفطر -أو- لم يصم ولم يفطر» [أخرجه أبو داود (٢٤٢٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٣٢٣)]. وهذا محمول على من سرد الصوم في الأيام المنهي عن صيامها: فأما إذا أفطر يومي العيدين وأيام التشريق فلا بأس بذلك.

فقد روي عن هشام بن عروة رضي الله عنه: «أن أباه كان يسرد الصوم، وكانت عائشة رضي الله عنها تسرد». وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «سرد أبو طلحة الصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين عامًا».

واعلم: أن من رزق فطنة، علم المقصود، فحمل نفسه قدر ما لا يعجزه عما هو أفضل منه. فقد كان ابن مسعود قليل الصوم، وكان يقول: «إذا صمت ضعفت عن الصلاة، وأنا أختار الصلاة على الصوم». وكان بعضهم إذا صام ضعف عن قراءة القرآن، فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة، وكل إنسان أعلم بحاله وما يصلحه.

### الحج وأسراره

س: وضح بعض الآداب الخاصة لمن أراد الحج؟

ج: ينبغي لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع، ويرد ما عنده من الودائع. ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه من غير تقشير، على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد، والرفق بالفقراء. ويستصحب ما يصلحه كالسواك، والمشط، والمرآة، والمكحلة.

ويتصدق بشيء قبل خروجه، وإذا اكرى فليظهر للجمال كل ما يريد أن يحمله من قليل وكثير. وقد قال رجل لابن المبارك: «احمل لي هذه الرقعة إلى فلان، فقال: حتى أستاذن الجمال».

وينبغي أن يلتمس رفيقًا صالحًا محبًا للخير معينًا عليه، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، إن ضاق صدره صبره.

وليؤمّر الرفقاء عليهم أحسنهم خلقًا، وأرفقهم بالأصحاب، وإنما احتيج إلى التأشير لأن الآراء تختلف، فلا ينتظم التدبير، وعلى الأمير الرفق بالقوم، والنظر في

مصالحهم، وأن يجعل نفسه وقاية لهم.

وينبغي للمسافر تطيب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار محاسن الأخلاق، فإن السفر يخرج خفايا الباطن، ومن كان في السفر الذي هو مظنة الضجر حسن الخلق، كان في الحضر أحسن خلقاً. وقد قيل: إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكو في صلاحه. وينبغي له أن ويودع رفقاءه وإخوانه المقيمين، ويلتمس أديعتهم، ويستودع أهله وماله، ويستعمل الأدعية والأذكار الماثورة عند خروجه من منزله، وفي ركوبه ونزوله، وهي مشهورة في كثير من الكتب في مناسك الحج، وكذلك جميع المناسك من الإحرام، والطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، وغير ذلك من أعمال الحج يأتي فيها بما ذكر من الأذكار والدعوات والآداب.

س: اذكر بعض أسرار الحج؟

ج: من الآداب، أن يكون خاليًا في حجه من تجارة تشغل قلبه وتفرق همه، ليجتمع على طاعة الله تعالى، وأن يكون أشعث أغبر، رث الهيئة غير مستكثر من الزينة. وينبغي أن يتجنب ركوب المحمل إلا من عذر، كمن لا يستمسك على الزاملة، وقد شرف الله تعالى بيته وعظمه، ونصبه مقصدًا لعباده، وجعل ما حوله حرماً له تفخيماً لأمره، وتعظيمًا لشأنه، وجعل عرفة كالميدان على فئائه. واعلم: أن في كل واحد من أفعال الحج تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر.

فمن ذلك: أن يتذكر بتحصيل زاد الآخرة من الأعمال، وليحذر أن تكون أعماله فاسدة من الرياء والسمعة فلا تصحبه ولا تنفعه، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر، فيبقى صاحبه وقت الحاجة متحيراً، فإذا فارق وطنه ودخل البادية وشهد تلك العقبات، فليتذكر بذلك خروجه من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال.

ومن ذلك: أن يتذكر وقت إحرامه وتجرده من ثيابه، إذا لبس المحرم الإحرام لبس

كفته، وأنه سيلقى ربه على زي مخالف لزي أهل الدنيا، وإذا لبي فليستحضر بتليته إجابة الله تعالى إذ قال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]. وليرج القبول، وليخش عدم الإجابة، وكذلك إذا وصل إلى الحرم ينبغي أن يرجو الأمن من العقوبة، وأن يخشى أن لا يكون من أهل القرب، غير أنه ينبغي أن يكون الرجاء غالبًا، لأن الكرم عميم، وحق الزائر مرعي، وذمام المستجير لا يضيع.

ومن ذلك إذا رأى البيت الحرام استحضر عظمته في قلبه، وشكر الله تعالى على تليغه رتبة الوافدين إليه، وليستشعر عظمة الطواف به، فإنه صلاة، ويعتقد عند استلام الحجر أنه مبايع لله على طاعته، ويضم إلى ذلك عزيمته على الوفاء بالبيعة، وليتذكر بالتعلق بأستار الكعبة والاتصاق بالملتزم لجأ المذنب إلى سيده وقرب المحب. وأنشد بعضهم في ذلك:

ستور بيتك نيل الأمن منك وقد علقته مستجيرًا أيها الباري  
وما أظنك لما أن علقته بها خوفًا من النار تدنيني من النار  
وها أنا جار بيت أنت قلت لنا حجوا إليه وقد أوصيت بالجار

ومن ذلك: إذا سعى بين الصفا والمروة، ينبغي أن يمثلها بكفتي الميزان، وترده بينهما في عرصات القيامة، أو تردد العبد إلى باب دار الملك، إظهارًا لخلوص خدمته، ورجاء الملاحظة بعين رحمته، وطمعًا في قضاء حاجته.

وأما الوقوف بعرفة: فاذكر بما ترى فيه من ازدحام الخلق، وارتفاع أصواتهم واختلاف لغاتهم موقف القيامة، واجتماع الأمم في ذلك الموطن، واستشفاعهم. فإذا رميت الجمار: فاقصد بذلك الانقياد للأمر، وإظهار الرق والعبودية، ومجرد الامتثال من غير حظ النفس.

وأما المدينة: فإذا لاحت لك فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه ﷺ، وشرع إليها هجرته، وجعل فيها بيته، ثم مثل في نفسك مواضع أقدام رسول الله ﷺ عند

تردده فيها، وتصور خشوعه وسكيبته .

## آداب القرآن وفضائله

س : اذكر بعض فضائل القرآن؟

ج : أعظم فضائل القرآن الكريم أنه كلام الله ﷻ، وقد مدحه الله تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الإسراء: ٩]. ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي أفراد البخاري، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [أخرجه البخاري (٥٠٢٧) كتاب فضائل القرآن - باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ﷻ أهلين من الناس»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته» [أخرجه أحمد (١١٨٧٠)، ١١٨٨٣، ١٣١٣٠، والدارمي (٣٣٢٦)، وابن ماجه (٢١٥) وإسناده حسن]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» [أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وقال: حديث حسن صحيح]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبجزئه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون».

ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا سخاباً ولا حديداً. وقال الفضيل رضي الله عنه: «حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلغو مع من يلغو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلهو مع من يلهو، تعظيماً لله».

ولا ينبغي أن يكون له إلى أحد حاجة، بل ينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

## آداب التلاوة

س: اذكر بعض آداب تلاوة القرآن؟

ج: ينبغي لقارئ القرآن أن يكون على وضوء، مستعملاً للآداب. مطرقاً غير متربع ولا متكئ، ولا جالس على هيئة المتكبر. وأفضل الأحوال: أن يقرأ في الصلاة قائماً، وأن يكون في المسجد. فأما مقدار القراءة، فقد اختلفت فيها عادات السلف، فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة ختمة، ومنهم من كان يختم في اليوم واللييلة أكثر من ذلك، ومنهم من كان يختم في كل ثلاث ختمة، ومنهم من كان يختم في كل أسبوع، ومنهم من كان يختم في كل شهر، اشتغالاً بالتدبير أو بنشر العلم، أو بتعليمه، بنوع من التعبد غير القراءة، أو بغيره من اكتساب الدنيا. وأولى الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لأن أقرأ البقرة وآل عمران، وأرتلها وأتدبرها أحب إلي من أقرأ القرآن كله هذرمة» ومن وجد خلسة في وقت، فليغتنم كثرة القراءة ليفوز بكثرة الثواب.

س: وماذا عن استحباب تحسين الصوت بالقراءة؟

ج: يستحب تحسين القراءة، وإذا لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع، فأما القراءة بالألحان، فقد كرهها السلف.

ويستحب الإسرار بالقراءة. وقد جاء في الحديث: «فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية» [أخرجه أحمد (١٦٩١٧، ١٦٩٩١)، وأبو داود (١٣٣٣)، والترمذي (٢٩١٩)، والنسائي (٢٥٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣١٠٥)]. إلا أنه ينبغي أن يسمع نفسه. ولا بأس بالجهر في بعض الأوقات

لمقصود صحيح، إما لتجويد الحفظ، أو ليصرف عن نفسه الكسل والنوم، أو ليوظ الوسنان. فأما حكم القراءة في الصلاة، ومقدار ما يقرأ في صلاة الفرض، وموضع الجهر والإسرار فذلك معروف مشهور في كتب الفقه. ومن كان عنده مصحف ينبغي له أن يقرأ فيه كل يوم آيات يسيرة لثلا يكون مهجوراً.

وينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه، فإن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليردها.

وقام تميم الداري رضي الله عنه بآية وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْسَبُهُمْ وَمَعَادُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجنابة: ٢١] وكذلك: قام بها الربيع بن خيثم رحمة الله عليه ليلة.

وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١] فليعلم عظمته ويتلمح قدرته في كل ما يراه. وإذا تلا: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨] فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء، كيف تنقسم إلى لحم وعظم، وعرق وعصب، وأشكال مختلفة من رأس ويد، ورجل، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة كالسمع، والبصر، والعقل، وغير ذلك، فيتأمل هذه العجائب.

وإذا تلا أحوال المكذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر. وليتخلى التالي من موانع الفهم، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التالي، فيصرف همته عن فهم المعنى. ومن ذلك أن يكون التالي مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه، فهو الجرب على المرأة، يمنع من تحلي الحق، فالقلب مثل المرأة، والشهوات مثل الصدا، ومعاني القرآن مثل الصور التي تراءى في المرأة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرأة. وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه مقصود

بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر، فليتنبه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود. وليتأمل الكتاب ويعمل بمقتضاه، فإن مثل العاصي إذا قرأ القرآن وكرره، كمثل من كرر كتاب الملك وأعرض عن عمارة مملكته وما أمر به في الكتاب فهو مقتصر على دراسته، مخالفٌ أوامره، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت. وينبغي أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن لا يلتفت إلى نفسه بعين الرضى والتزكية، فإن من رأى نفسه بصورة التقصير، كان ذلك سبب قربه.

### الأذكار والدعوات

س: ما هي أفضل العبادات التي تؤدي باللسان بعد تلاوة القرآن؟

ج: من أفضل العبادات التي تؤدي باللسان بعد تلاوة القرآن؛ ذكر الله ﷻ، ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه تعالى.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث التي تدل على فضل ذكر الله ﷻ؟

ج: يدل على فضل الذكر قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وفي أفراد مسلم عنه ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» [أخرجه مسلم (٢٧٠٠)]. وفي ذلك أحاديث كثيرة مذكورة في فضائل الأعمال. وعن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلسًا ففرقوا على غير ذكر الله ﷻ، إلا تفرقوا عن مثل جيفة الحمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة» [أخرجه أبو داود (٤٨٥٥)، وأحمد في مسنده (١٠٣٠٢)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٢٢٧٣)]. وفي حديث آخر: «لا يجلس قوم مجلسًا لا يذكرون الله ﷻ ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة

يوم القيامة».

وأما فضيلة الدعاء: فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس شيء أكرم على الله ﷻ من الدعاء» [أخرجه الترمذي (٣٣٧٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وأحمد (٨٥٣٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٣٩٢)]. وللدعاء آداب: من ذلك أن يتحرى الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، والجمعة من الأسبوع، والسحر من الليل. ومن الأوقات الشريفة بين الأذان والإقامة، وعقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفي السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجله. وعلى الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه، وحالة السجود حالة الذل. ومن آداب الدعاء أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه ثم يمسخ بهما وجهه، وأن يخفض صوته حال الدعاء. ومن آدابه أن يبدأ بذكر الله ﷻ، ثم يصلي على النبي ﷺ، ولا يتكلف السجع في الدعاء. ومن آدابه وهو الأدب الباطن - وهو الأصل في الإجابة - التوبة ورد المظالم.

س: لو ألقيت الضوء على تنويع العبادات وتوزيعها على الأوقات؟

ج: إذا حصلت المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعدده، والعلم بقصر العمر، وجب ترك التقصير في هذا العمر القصير، والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل، فمن التلطف نقلها من فن إلى فن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ آتَمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُمْ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الانسان: ٢٥-٢٦]، فهذا ونحوه مما ذكر من الآيات في ذلك يدل على أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]، أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر.

## أوراد الليل والنهار وترتيبها

س: ما هي الأوراد الماثورة بالنهار وكم عددها؟

ج: أوراد النهار سبعة، الورد الأول من أوراد النهار: ما بين طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالضُّحَىٰ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكوير: ١٨]. فينبغي للعبد إذا انتبه من النوم أن يذكر الله ﷻ فيقول: «الحمد الذي أحياناً بعد ما أماتنا وإليه النشور» [أخرجه البخاري (٧٣٩٤)]. روي ذلك عن النبي ﷺ من أفراد البخاري. وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر». وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله...» [أخرجه مسلم (٢٧٢٣)]. إلى آخره، ويقول: «بسم الله لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» ثلاث مرات [أخرجه أبو داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٩)، وأحمد في مسنده (٤٤٨)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الشيخ عبد العزيز بن باز في تحفة الأختيار (٣٨) بعد أن ذكر كلام الترمذي: وهو كما قال رحمته الله. اهـ] ثلاث مرات، «رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً» [أخرجه أبو داود (١٥٢٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٤٢٨)].

ويذكر سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي. لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» [أخرجه البخاري (٦٣٠٦)].

ويقول: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين» [أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٦٤١) والدارمي (٢٦٨٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٣)، وأورد الحديث الشيخ عبد العزيز بن باز في تحفة الأخيار (٤٦) وصححه إسناده. اهـ]. ويدعو «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر» [أخرجه مسلم (٢٧٢٠)].

فهذه الأدعية لا يستغني المسلم عن حفظها. وينبغي له قبل خروجه إلى صلاة الفجر أن يصلي السنة في منزله ثم يخرج متوجهاً إلى المسجد. فإذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ثم ليقول: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك» [أخرجه مسلم (٧١٣)]. ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعياً بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية فإذا صلى الفجر استحب أن يمكث في مكانه إلى طلوع الشمس. فقد روى أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة» [أخرجه الترمذي (٥٨٦) كتاب الجمعة - باب ذكر ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الفجر، وهو حديث حسن بشواهد]. وليكن وظائف وقته أربعاً: الدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر، وليأت بما أمكنه، وليتفكر في قطع القواطع، وشغل الشواغل عن الخير ليؤدي وظائف يومه، وليتفكر في نعم الله تعالى ليتوفر شكره.

الورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى الضحى، وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار، إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة، وهو الربع، وهذا وقت شريف، وفيه وظيفتان: إحداهما: صلاة الضحى.

والثانية: ما يتعلق بالناس من عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو حضور مجلس علم، أو قضاء حاجة مسلم. وإن لم يفعل شيئاً من ذلك تشاغل بالقراءة والذكر، الورد الثالث: من وقت الضحى إلى الزوال، والوظيفة في هذا الوقت، الأقسام الأربعة، وزيادة أمرين:

أحدهما: الاشتغال بالكسب والمعاش، فإن كان تاجرًا فليتجر بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صنعة، فليصنع بنصيحة وشفقة، ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله، وليقنع بالقليل.

والثاني: القيلولة، فإنها مما تعين على قيام الليل، كما يعين السحور على صيام النهار، فإن نام فليجتهد في الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت.

واعلم: أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فالاعتدال أن ينام من ذلك الثلث، وهو ثمان ساعات، فمن نام أقل من ذلك لم يأمن اضطراب بدنه، ومن نام أكثر من ذلك كثر كسله، فإذا أكثر من ذلك في الليل فلا وجه لنومه في النهار، بل من نقص منه استوفى ما نقص في النهار.

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر، وهو أقصر أورد النهار وأفضلها، فينبغي له في هذا الوقت إذا أذن المؤذن أن يجيبه مثل قوله، ثم يقوم فيصلي أربع ركعات، ويستحب أن يطيلهن، فإن أبواب السماء تفتح حينئذ، ثم يصلي الظهر وستتها، ثم يتطوع بعدها بأربع.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر، فيستحب له في هذا الوقت الاشتغال بالذكر، والصلاة، وفنون الخير، ومن أفضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة.

الورد السادس: إذا دخل وقت العصر إلى أن تصفر الشمس وليس في هذا الوقت صلاة سوى أربع ركعات بين الأذنين، ثم فرض العصر، ثم يتشاغل بالأقسام الأربعة التي سبق ذكرها في الورد الأول، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبر والتفهم.

الورد السابع: من اصفرار الشمس إلى أن تغرب، وهو وقت شريف. قال الحسن البصري رضي الله عنه: كانوا أشد تعظيمًا للعشي من أول النهار، فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة

وبالمغرب تنتهي أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه، فقد انقضت من طريقه مرحلة. وليعلم أن العمر أيام تنقضي جملتها بانقضاء آحادها. قال الحسن: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا مضى يومك مضى بعضك. ولينفكر هل ساوى يومه أمس، فإن رأى أنه قد توفر على الخير في نهاره، فليشكر الله تعالى على التوفيق، فإن تكن الأخرى، فليتب وليعزم على تلافي ما سبق من التفريط في الليل، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وليشكر الله تعالى على صحة جسمه، وبقاء بقية من عمره يمكن فيها استدراك التقصير، وقد كان جماعة من السلف يستحبون أن لا ينقضي يوم إلا عن صدقة، ويجتهدون فيما أمكن من كل خير.

### أوراد الليل

س: وما هي الأوراد المأثورة بالليل؟

ج: من الأوراد المأثورة بالليل: الوتر قبل النوم، إلا من كان عادته القيام بالليل، فإن تأخيره في حقه أفضل، قالت عائشة رضي الله عنها: «من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أول الليل، وأوسطه، وآخره، فانتهى وتره إلى السحر» [أخرجه البخاري (٩٩٦)، ومسلم (٧٤٥)]. ثم ليقبل بعد الوتر: «سبحان الملك القدوس» ثلاث مرات [أخرجه أبو داود (١٤٣٠)، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٦٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود»].  
- النوم، وإنما عددها من الأوراد، لأنه إذا روعيت آدابه وحسن المقصود به احتسب عبادة. وقد قال معاذ رضي الله عنه: «إني لأحتسب في نومتي كما أحتسب في قومي».

فمن آداب النوم: أن ينام على طهارة، لما روت عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ: «كان إذا أراد أن ينام يتوضأ وضوءه للصلاة» [أخرجه البخاري (٢٨٨)، ومسلم (٣٠٥)]. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «إن الأرواح يعرج بها في منامها إلى السماء فتؤمر بالسجود عند العرش، فما كان منها طاهرًا سجد عند العرش، وما كان ليس بطاهر سجد بعيدًا عن العرش».

ومن آدابه: أن يتوب قبل نومه، لأنه ينبغي لمن طهر ظاهره أن يطهر باطنه، لأنه ربما مات في نومه.

ومنها: أن يزيل كل غش في قلبه لمسلم، ولا ينوي ظلمه، ولا يعزم على خطيئة إذا استيقظ.

ومنها: أن لا يبيت من له شيء يوصي به إلا ووصيته مكتوبة عنده، لأنه في «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده» [أخرجه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧) كتاب الوصية]. وينبغي له أيضًا أن لا يبالي في تمهيد الفراش متعمدًا بذلك، فإنه يزيد في النوم، وينبغي أن لا ينام حتى يغلبه النوم، فقد كان السلف لا ينامون إلا غلبة. ومن آدابه أن يستقبل القبلة وأن يدعو بما ورد من الأحاديث في ذلك، أن ينام على جنبه الأيمن، فمما جاء في ذلك ما روي أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليفضه بداخله إزاره، فإنه لا يدري ما حدث بعده» [أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤)]. فإذا وضع جنبه فليقل: «باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» أخرجاه في «الصحيحين». وفي الصحيحين أيضًا، من حديث عائشة، أن النبي ﷺ: «كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفخ فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده،

يفعل ذلك ثلاث مرات» [أخرجه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٢١٩٢)]. وفيهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فإنك إن مت ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبحت خيراً» [أخرجه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠)].

وعن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة: «إذا أخذتما مضاجعكما أو أويتما إلى فراشكما، فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين، واحمداً ثلاثاً وثلاثين، وكبراه أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم» [أخرجه البخاري (٦٣١٨)، ومسلم (٢٧٢٧)]. وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان مشهور، وفيه أن شيطاناً قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب» [أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم، وقال ابن حجر في «الفتح» (٥٦٩/٤)، «وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم من طرق»]. وفي أفراد مسلم أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي» [أخرجه مسلم (٢٧١٥)].

فإذا استيقظ للتهجد، فليدع بدعاء رسول الله ﷺ: «اللهم ربنا لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وبك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت» وفي رواية: «وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت» [أخرجه البخاري

(١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

وليجتهد أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالى، وأول ما يجري على لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى، فهاتان علامتان على الإيمان.

الورد الخامس من أوراد الليل: يدخل بمضي النصف الأول إلى أن يبقى من الليل سدسه، وذلك وقت شريف. وروي أن داود عليه السلام قال: «يا رب، أية ساعة أقوم لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم في شطر الليل حتى تخلو بي وأخلو بك، وارفع إلى حوائجك».

فإذا قام إلى التهجد، قرأ العشر آيات من آخر سورة «آل عمران»، كما روي في «الصحيحين» أن النبي ﷺ فعل ذلك [أخرجه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣)]. وليدع بما سبق من دعائه ﷺ عند قيامه من الليل. ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين، لما روى أبوهريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قام أحدكم يصلي بالليل، فليبدأ بركعتين خفيفتين» [أخرجه مسلم (٧٦٨)]، ثم يصلي مثنى مثنى، وأكثر ما روي عن النبي ﷺ أنه: «كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر، وأقلهن سبع» [أخرجه البخاري (١١٤٠)، ومسلم (٧٣٧)].

الورد السادس من الليل: السدس الأخير وهو وقت السحر، قال الله تعالى: ﴿وَيَا لَأَتَحَارَّ هُمْ بِسْتَعْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وفي الحديث: «إن قراءة الرجل آخر الليل محضورة» [أخرجه مسلم (٧٥٥)]. وجاء طاووس إلى رجل وقت السحر فقالوا: هو نائم، فقال: «ما كنت أرى أن أحداً ينام وقت السحر».

فإذا فرغ المسلم من صلاة السحر، فليستغفر الله ﷻ. وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يفعل ذلك.

## اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

س: كيف تختلف الأوراد باختلاف الأحوال؟

ج: السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال: إما أن يكون عابداً، أو عالماً، أو متعلماً، أو والياً، أو محترفاً.

الأول: العابد: وهو المنقطع عن الأشغال كلها إلى التعبد، فهذا يستعمل ما ذكرنا من الأوراد، وقد تختلف وظائفه، فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف مختلفة، فمنهم من كان يغلب على حاله التلاوة، حتى يختم في يوم ختمة، أو ختمتين، أو ثلاثاً، وكان فيهم من يكثر التسبيح، ومنهم من يكثر الصلاة، ومنهم من يكثر الطواف بالبيت.

فإن قيل: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟ فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما عسرت المواظبة على ذلك، والأفضل يختلف باختلاف حال الشخص، ومقصود الأوراد تركية القلب وتطهيره، فلينظر المسلم ما يراه أشد تأثيراً فيها فليواظب عليه، فإذا أحس بميل انتقل عنه إلى غيره. قال أبو سليمان الداراني: «فإذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع».

الثاني: العالم: الذي ينتفع الناس بعلمه في فتوى، أو تدريس، أو تصنيف، أو تذكير، فترتيبه في الأوراد يخالف ترتيب العابد فإنه يحتاج إلى المطالعة في الكتب، والتصنيف والإفادة، فإن استغرق الأوقات في ذلك، فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات، وإنما نعني بالعلم المقدم على العبادة الذي يرغب في الآخرة، ويعين على سلوك طريقها، والأولى بالعالم أيضاً أن يقسم أوقاته، لأن استغراق الأوقات في

العلم لا تصبر عليه النفس، فينبغي أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا، ثم ما بعد طلوع الشمس إلى الضحى في الإفادة والتعليم، فإن لم يكن عنده من يتعلم، صرف ذلك الزمان إلى التفكير في العلوم، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهوم الدنيا يعين على التفتن للمشكلات، ثم من ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة، لا يترك ذلك إلا في وقت أكل، أو طهارة، أو مكتوبة، أو قيلولة، ومن العصر إلى اصفرار الشمس بسماع ما يقرأ عليه من تفسير، أو حديث، أو علم نافع، ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح، فيكون ورده الأول من عمل اللسان، والثاني في عمل القلب بالتفكير، والثالث في عمل العين واليد والمطالعة والنسخ، والرابع بعد العصر في عمل السمع لتروح العين واليد.

وأما الليل: فأحسن قسمة فيه قسمة الشافعي رحمته، فإنه كان يقسمه ثلاثة أجزاء: الثلث الأول: لكتابة العلم، والثاني: للصلاة، والثالث: للنوم، فأما الصيف، فربما لا يحتمل ذلك، إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار.

الثالث: حال المتعلم: فإن المتعلم أفضل من التشاغل بالأذكار والنوافل، وحكم المتعلم حكم العالم في ترتيب الأوراد، لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف، فإن كان من العوام كان حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد المتطوع بها.

الرابع: الوالي: مثل الإمام، والقاضي، أو المتولي للنظر في أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، لأنه عبادة يتعدى نفعها، فينبغي أن يقتصر في النهار على المكتوبات، ثم يستفرغ باقي الزمان في ذلك، ويقنع بأوراد الليل.

الخامس: المحترف: وهو محتاج إلى الكسب له أو لعياله، فليس له أن يستغرق الزمان في التعبد، بل يجتهد في الكسب مع دوام الذكر، فإذا حصل له ما يكفيه عاود الأوراد.

## قيام الليل وفضله

س: اذكر لنا طرفاً من فضل قيام الليل؟

ج: قال الله تعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: «لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف الليل، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره».

## الأسباب الميسرة لقيام الليل

س: ما هي الأسباب الميسرة لقيام الليل؟

ج: قيام الليل صعب إلا من وفق للقيام بشروطه الميسرة له، فمن الأسباب ظاهر، ومنها باطن.

فأما الظاهر: فإن لا يكثر الأكل، كان بعضهم يقول: لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

ومنها: أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة. ومنها: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل ومنها أن يجتنب الأوزار. قال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنوب أذنبته.

وأما الميسرات الباطنة:

فمنها سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الدنيا. ومنها: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل. ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل. ومن أشرف البواعث على ذلك الحب لله تعالى، وقوة الإيمان بأنه إذا قام

ناجى ربه، وأنه حاضره ومشاهده، فتحمله المناجاة على طول القيام. قال أبو سليمان رضي الله عنه: «أهل الليل في ليلهم ألد من أهل الله في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا».

وفي «صحيح مسلم» عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا آتاه إياه، وذلك كل ليلة» [صحيح]: أخرجه مسلم (٧٥٧) كتاب صلاة المسافرين - باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه. وإحياء الليل مراتب:

أحدها: أن يحمي الليل كله، روي ذلك عن جماعة من السلف. الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهو مروى أيضاً عن جماعة من السلف وأحسن الطريق في هذا أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه. المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول، والسدس الأخير، وهو قيام داود عليه السلام.

ففي «الصحيحين»: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه» [صحيح]: أخرجه البخاري (٣٤٢٠) ومسلم (١١٥٩). ونوم آخر الليل حسن، لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة، ويقلل صفرته.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أوخمسه، والأفضل من ذلك ما كان في النصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله السدس الأخير.

المرتبة الخامسة: أن لا يراعى التقدير، فإن مراعاة ذلك صعب ثم فيما يفعله طريقان:

أحدهما: أن يقوم أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا انتبه قام، فإذا غلبه النوم نام، وهذا من أشد المكابدة، وهو طريق جماعة من السلف.

وفي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه: «ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم مصلياً من الليل إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه» [أخرجه البخاري

(١١٤١). وكان عمر رضي الله عنه يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله، فيقول: الصلاة الصلاة».

وقال الضحاك: «أدركت أقوامًا يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة».

الطريق الثاني: أن ينام أول الليل، فإذا أخذ حظه من النوم، وانتبه، قام الباقي. قال سفيان الثوري: «إنما هي أول نومة، فإذا انتبهت لم أفلها - يعني: لم ينم». المرتبة السادسة: أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين.

وفي «سنن أبي داود» قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعاً ركعتين، كتبنا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». وكان طلحة بن مصرف يأمر أهله بقيام الليل، ويقول: صلوا ركعتين، فإن الصلاة في جوف الليل تحط الأوزار.

فهذه طرق قسمة الليل، فلتخير المسلم لنفسه ما يسهل عليه، فإن صعب القيام عليه في وسط الليل، فلا ينبغي أن يخل بإحياء ما بين العشاءين وورد السحر، ليكون قائماً في الطرفين، وهذه مرتبة سابعة.

س: من لم تيسر له الصلاة بالليل فماذا يفعل؟

ج: من صعبت عليه الطهارة في الليل، وثقلت عليه الصلاة، فليجلس مستقبل القبلة، وليذكر الله تعالى، وليدع مهما قدر. فإن لم يجلس فليدع وهو مضطجع، ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته، فليأت به بعد صلاة الضحى. فقد ورد ذلك في الحديث [صحیح]: أخرجه أبو داود (١٤٥١)، وابن ماجه (١٣٣٥) وصححه الشيخ الألباني في «صحیح الجامع» برقم (٦٠٣٠). وليحذر من له عادة بقيام الليل أن يتركها، ففي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن عمرو: «لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل» [أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩)].

## آداب الأكل

س: إلى كم قسم تنقسم آداب الأكل؟

ج: آداب الأكل، منها ما هو قبله، ومنها ما هو مع الأكل، ومنها ما هو بعد الأكل.

س: تحدث عن الآداب المستحبة قبل الأكل؟

ج: من القسم الأول: غسل اليدين قبل الأكل، لأنها لا تخلو من درن، ومن ذلك أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، فإنه أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ من رفعه على المائدة، وهو أدنى إلى التواضع، ومن ذلك أن يجلس الجلسة على السفرة، فينصب رجله اليمنى، ويعتمد على اليسرى، وينوي بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعًا بالأكل، ولا يقصد به النعم فقط، وعلامة صحة هذه النية أخذ البلغة دون الشبع.

قال النبي ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، من حديث المقدم بن معد يكرب رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)].

ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع، وأن يرفع يده قبل الشبع ومع فعل ذلك لم يكذب يحتاج إلى طيب، ومن ذلك أن يرضى بالموجود من الرزق، ولا يحتقر اليسير منه، وأن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده.

القسم الثاني: في الآداب حالة الأكل: وهو أن يبدأ بيسم الله في أوله، ويحمد

الله تعالى في آخره .

ومن ذلك أن يأكل باليمنى ويصغر اللقمة ويجود مضغها، وأن لا يمد يده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى، ولا يذم مأكولاً، ومن ذلك أن يأكل مما يليه، إلا أن يكون الطعام متنوعاً كالفاكهة، وليأكل بثلاث أصابع، وإذا وقعت لقمة أخذها .  
ومن ذلك أن لا ينفخ في الطعام الحار، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق واحد، ولا يجمعه في كفه، بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيه، وكذا كل ماله عجم وثقل، ولا يشرب الماء في أثناء الطعام، فإنه أجود في باب الطب .

القسم الثالث: من آداب الأكل ما يستحب بعد الطعام، وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه، وأن يسلت القصة، وليحمد الله، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها» [أخرجه مسلم (٢٧٣٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه].  
ويغسل يديه من العمر .

س: اذكر آداب الشرب؟

ج: من آداب الشرب أن يتناول الإناء بيمينه، وينظر فيه قبل الشرب، ويمص مصاً لا عباً، فقد روي عن علي رضي الله عنه: «مصوا الماء مصاً ولا تبعوه عباً، فإن الكباد من العب، ولا يشرب قائماً، ويتنفس في شربه ثلاثاً خارج الإناء .

ففي «الصحيحين» أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كان يتنفس في الإناء ثلاثاً» [صحيح]: أخرجه البخاري (٥٦٣١)، ومسلم (٢٠٢٨)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. والمعنى يتنفس في شربه في الإناء، بأن يباعد الإناء عنه ويتنفس، لا أن يكون النفس في الإناء .

س: اذكر آداب الأكل التي تلزم من يأكل مع جماعة من الناس؟

ج: من ذلك أن لا يبتدئ في الأكل إذا كان معه من يستحق التقديم لكبر سن أو زيادة فضل، بل ينتظر حتى يبتدئ الأكبر في السن أو صاحب الفضل إلا أن يكون

هو المتبوع .

ومنها أن لا يسكتوا على الطعام، بل يتكلموا بالمعروف، ويتحدثوا بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها .

ومن ذلك أن يقصد كل منهم الإيثار لرفيقه، ولا يجوج رفيقه إلى أن يقول له: كل، بل ينبسط، ولا يتصنع بالانقباض . ومن ذلك أن لا ينظر إلى أصحابه حالة الأكل لثلا يستحيوا .

ومن ذلك أن لا يفعل ما يستقذره من غيره، فلا ينفض يده في القصة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه ليرمي به، صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل، ولا الخل في الدسمة، فقد يكرهه غيره، ولا يغمس بقية اللقمة التي أكل منها في المرقة .

س: اذكر بعض الآثار في استحباب تقديم الطعام للإخوان والأصحاب؟

ج: يستحب تقديم الطعام إلى الإخوان، روي ذلك عن علي رضي الله عنه قال: لأن أجمع إخواني على صاع من الطعام أحب إلي من أن أعتق رقبة .

وكان خيثة كَلَّه: «يصنع الخبيص والطعام الطيب، فيدعو إبراهيم والأعمش ويقول: كلوا، فما صنعته إلا لكم» .

ويقدم ما حضر من غير تكلف، ولا يستأذنهم في التقديم، بل يقدم من غير استئذان، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده .

ومن آداب الزائر أن لا يقترح طعاماً بعينه، وإن خير بين طعامين اختار أيسرهما، إلا أن يعلم أن مضيفه يسر باقتراحه، ولا يقصر عن تحصيل ذلك، فقد نزل الشافعي كَلَّه على الزعفراني، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان، ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة وألحق فيها لوناً آخر، فلما علم الزعفراني اشتد فرحه .

س: وهل يستحب الدخول على قوم يأكلون؟

ج: لا ينبغي لأحد إذا علم أن قومًا يأكلون أن يدخل عليهم، فإن صادفهم من غير قصد، فسألوه الأكل، نظر، فإن علم أنهم إنما سألوه حياء منه، فلا يأكل، وإن علم أنهم يحبون أكله معهم، جاز له أن يأكل.  
ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكان واثقًا به عالمًا أنه إذا أكل من طعامه سر بذلك، جاز له أن يأكل.

### آداب الضيافة

س: اذكر بعض آداب الضيافة؟

ج: من آداب الضيافة، أن يقصد بدعوته الأتقياء دون الفساق، وقال بعض السلف: لا تأكل إلا طعام تقي، ولا يطعم طعامك إلا تقي.  
وينبغي أن يقصد الفقراء دون الأغنياء. وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافتهم، فإن إهمالهم يوجب الإيحاء وقطيعة الرحم، وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه، ولا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استعمال السنة في إطعام الطعام واستمالة قلوب الإخوان، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، ولا يدعو من يعلم أنه تشق عليه الإجابة، أو إذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب.

س: وما هي آداب الإجابة للدعوة؟

ج: أما آداب الإجابة، فإن كانت دعوة عرس، فالإجابة عليها واجبة إذا دعاه المسلم في اليوم الأول، وإن كانت لغيره، فهي جائزة، ثم ينبغي أن لا ينحصر الغني بالإجابة دون الفقير، ولا يمتنع من الدعوة لكونه صائمًا، بل يحضر، فإن كان تطوعًا وعلم أن فطره يسر أخاه المسلم فليفطر.

فأما إن كان الطعام حرامًا فليمتنع من الإجابة، وكذلك إذا كان ثمة فرش محرمة،

أو إثناء محرم، أو مزمار أو صورة، وكذلك إذا كان الداعي ظالمًا أو فاسقًا أو مبتدعًا أو مفاخرًا بدعوته.

وينبغي أن لا يقصد بالإجابة إلى الدعوة نفس الأكل، بل ينوي به الاقتداء بالسنة، وإكرام أخيه المؤمن، وينوي صيانة نفسه عن سيء به الظن، فربما قيل عنه إذا امتنع: هذا متكبر.

وينبغي أن يتواضع في مجلسه إذا حضر، ولا يتصدر، وإن عين له صاحب الدار مكانًا لم يتعده، ولا يكثر النظر إلى المكان الذي منه الطعام، فإنه دليل على الشره.

س: وما هي آداب إحضار الطعام؟

ج: إحضار الطعام له خمسة آداب:

الأول: تعجيله، فذلك من إكرام الضيف.

الثاني: تقديم الفاكهة أولاً قبل غيرها، وذلك أصلح في باب الطب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَكَهَةً مِمَّا يَتَخَبَّرُونَ﴾ (٢٠) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿ [الواقعة: ٢١-٢٢]. ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم، خصوصاً المشوي، ثم أفضل الطعام بعد اللحم الثريد، ثم الحلوى، وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد، وتكملة الأمر صب الماء الفاتر على اليد عند الغسل.

الثالث: أن يقدم جميع الألوان الحاضرة.

الرابع: أن لا يبادر إلى رفعها بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم.

الخامس: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليل من الكفاية نقص في

المروءة.

وينبغي أن يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام، فإذا أراد الضيف الانصراف ينبغي أن يخرج معه إلى باب الدار، فإنه سنة، وذلك من إكرام الضيف ومن تمام الإكرام طلاقة الوجه، وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

وأما الضيف فينبغي أن يخرج طيب النفس وإن جرى في حقه، فذلك من حسن الخلق والتواضع، ولا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قدر الإقامة.

## آداب النكاح

س: ما هي فوائد النكاح؟

ج: لا يختلف العلماء في أن النكاح مستحب، مندوب إليه، كثير الفضائل، وفيه فوائد، منها: الولد، لأن المقصود بقاء النسل، وفيه فوائد محبة الله تعالى بالسعي لذلك، ليبقى جنس الإنسان.

وفيه طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباهاته. وفي طلب التبرك بدعاء الولد الصالح والشفاعة بموت الولد الصغير. ومن فوائد النكاح: التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة. وفيه ترويح النفس، وإيناسها بمخالطة الزوجة.

وسنها: تفرغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل به بشغل الطبخ والكسب والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب العيش، فإن الإنسان يتعذر عليه أكثر ذلك مع الواحدة، ولو تكفل به لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريقة، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل للقلب. ومن فوائده أيضاً: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، وكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يجتريز منها من يخاف من القصور عن القيام بحقوقها، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله ﷻ. وفي أفراد مسلم، عن النبي ﷺ أنه قال: «دينار أنفقته في سبيل الله،

ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك،  
أفضلها الذي أنفقته على أهلك» [أخرجه مسلم (٩٩٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

س: وما هي آفات النكاح؟

ج: في النكاح آفات، أقواها: العجز عن طلب الحلال، فإن ذلك يصعب، فربما امتدت يد المتزوج إلى ما ليس له.

الثانية: القصور عن القيام بحقوق النساء، والصبر على أخلاقهن وأذاهن، وفي ذلك خطر، لأن الرجل راع وهو مسؤول عن رعيته.

الثالثة: أن يكون الأهل والولد يشغلونه عن ذكر الله تعالى، فينقض ليلاً ونهاره بالتمتع بذلك، فلا يتفرغ القلب للفكر في الآخرة والعمل لها، فهذه مجامع الآفات، والفوائد فالحكم على شخص واحد، بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً مصروف على الإحاطة بمجامع هذه الأمور، بل ينبغي للمريد أن يعرض نفسه على هذه الأحوال، فإن انتفت عنه الآفات واجتمعت له الفوائد، بأن كان له مال حلال وحسن خلق، وهو مع ذلك شاب يحتاج إلى تسكين الشهوة، ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شك أن النكاح أفضل، وإن انتفت هذه الفوائد واجتمعت فيه الآفات، فتركه أفضل، وهذا في حق من لم يحتاج إلى النكاح، فإن احتاج إليه فإنه يلزمه.

س: وما هي الأمور المستحب توافرها في المرأة لطيب العشرة؟

ج: يعتبر في المرأة لطيب العشرة أمور:

أحدها: الدين، وهو الأصل، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «عليك بذات الدين» [صحيح]:  
أخرجه البخاري (٥٠٩٠) كتاب النكاح - باب الأكل في الدين، ومسلم (١٤٦٦) كتاب الرضاع - باب استحباب نكاح ذات الدين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «تنكح المرأة لأربع لخالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك». فإذا لم يكن لها دين أفست دين زوجها، وأزرت به. وإن سلكت الغيرة لم يزل في بلاء وتكدير عيش.

الثاني: حسن الخلق، فإن سيئة الخلق ضررها أكثر من نفعها.

الثالث: حسن الخِلقَة، وهو مطلوب، إذ به يحصل التحصن، ولهذا أمر بالنظر إلى المخطوبة. وقد كان أقوام لا ينظرون في الحسن، ولا يقصدون التمتع، كما روي أن الإمام أحمد كَلَّفَهُ: «اختار امرأة عوراء على أختها»، إلا أن هذا يندر، والطباع على ضده

الرابع: خفة المهر، وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين. وقال عمر رضي الله عنه: «لا تغالوا في مهور النساء».

وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة، يكره السؤال عن مالها من جهة الرجل.

قال الثوري: إذا تزوج الرجل وقال: أي شيء للمرأة؟ فاعلم أنه لص. الخامس: البكارة، لأن الشارع ندب إلى ذلك، ولأنها تحب الزوج وتألفه أكثر من الثيب، فيوجب ذلك الود، فإن الطباع مجبولة على الأُنس بأول مألوف، وهو أيضًا أكمل لمودته لها، لأن الطبع ينفر من التي مسها غيره. السادس: أن تكون ولو دًا.

السابع: النسب، وهو أن تكون من بيت دين وصلاح. الثامن: أن تكون أجنبية.

وكما ينبغي للرجل أن ينظر في المرأة، ينبغي للولي أن ينظر في دين الرجل وأخلاقه وأحواله، لأنها تصير بالنكاح مرفوقة، ومتى زوجها من فاسق أو مبتدع، فقد جنى عليها وعلى نفسه.

قال رجل للحسن: «ممن أزوج ابنتي؟ قال: ممن يتقي الله، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لن يظلمها».

## آداب المعاشرة

س: ما هي الحقوق التي تلزم الزوج لزوجته؟

ج: أما الزوج، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمرًا:  
الأول: الوليمة فإنها مستحبة.

الثاني: حسن الخلق مع الزوجات. واحتمال الأذى منهن لقصور عقلمن.  
وفي الحديث الصحيح: «استوصوا بالنساء خيرًا، خلقن من ضلع، وإن أعوج ما  
في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا  
بالنساء خيرًا» [أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

واعلم: أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها،  
والحلم على طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ، ففي «الصحيحين»، من  
حديث عمر رضي الله عنه: «أن أزواج النبي ﷺ كن يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى  
الليل» [أخرجه البخاري (٥١٩١)، ومسلم (١٤٧٩)].

الثالث: أن يداعبها ويمازحها، وقد سبق عليه السلام عائشة رضي الله عنها، وكان  
يداعب نساءه رضي الله عنه، وقال جابر: «هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك» [أخرجه البخاري  
(٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥)].

الرابع: أن يكون ذلك بقدر، ولا ينبسط في الرعاية إلى أن تسقط هيئته بالكلية  
عند المرأة، بل ينبغي أن يقصد طريق الاقتصاد. وقد روينا عن عمر بن الخطاب  
رضي الله عنه: «أنه عتب على بعض عماله، فكلّمته امرأة عمر رضي الله عنه فيه فقالت: يا أمير  
المؤمنين فيم وجدت عليه؟ قال: يا عدوة الله، وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب  
بك ثم تتركين».

الخامس: الاعتدال في الغيرة، وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي يخشى

غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن، وقد نهى النبي ﷺ: «أن يطرق الرجل أهله ليلاً» [أخرجه البخاري (٥٢٤٤)، من حديث جابر بن عبد الله ؓ، ومسلم (١٩٢٨)، من حديث أنس بن مالك ؓ].

السادس: الاعتدال في النفقة والقصد دون الإسراف والتقتير، ولا ينبغي للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطيب، فإن ذلك مما يوغر الصدر.

السابع: أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يدري به كيف معاشرة الحائض، ويلقنها الاعتقاد الصحيح، ويزيل عن قلبها كل بدعة إن كانت، ويعلمها أحكام الصلاة والحيض والاستحاضة، فيعرفها أنها إذا انقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها الظهر والعصر، وإذا انقطع دمها قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء، وهذا لا يكاد النساء يراعينه.

الثامن: إذا كانت له نسوة ينبغي أن يعدل بينهن، والعدل في المبيت والعطاء، لا في الحب والوطء، فإن ذلك لا يملكه، فإن سافر وأراد استصحاب إحداهن أقرع بينهن، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

التاسع: النشوز، فإذا كان النشوز من المرأة، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكنه ينبغي أن يتدرج في تأديبها بتقديم الوعظ والتخويف، فإن لم ينفع هجرها في المضجع، فولأها ظهره أو انفرد عنها بالفراش، وهجرها في الكلام فيما دون ثلاثة أيام، فإن لم ينفع ضربها ضرباً غير مبرح، وهو أن لا يدمي لها جسماً، ولا يضرب لها وجهاً.

العاشر: في آداب الجماع، يستحب البداءة بالتسمية [أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤)]. والانحراف عن القبلة، وأن يتغذى هوأهله بثوب، وأن لا يكونا متجردين، وأن يبدأ بالملاعبة والضم والتقبيل. ومن العلماء من استحَب الجماع يوم الجمعة، ثم إذا قضي وطره فليتمهل لتقضي وطرها، فإن إنزالها ربما تأخر.

ومن الآداب: أن تأتزر الحائض بإزار من حقوبها إلى ما بين الركبة إذا أراد الاستمتاع بها، ولا يجوز وطؤها في الحيض، ولا في الدبر، ومن أراد أن يجامع مرة

ثانية فليغسل فرجه ويتوضأ.

ومن الآداب: أن لا يخلق شعره، ولا يقلم أظافره، ولا يخرج دمًا وهو جنب، وأما العزل فهو مباح مع الكراهة.

س: وما هي الحقوق التي تلزم الزوجة تجاه زوجها؟

ج: عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» لعظم حقه عليها.

وفي هذا القسم أحاديث كثيرة تدل على تأكيد حق الزوج على زوجته، وحقوقه عليها كثيرة، وأهمها أمران:

أحدهما: الستر والصيانة.

الثاني: القناعة، وعلى هذا كان النساء في السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له أهله: إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار. ومن الواجب عليها: أن لا تفرط في ماله، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن كان بغير رضاه، كان له الأجر وعليها الوزر.

وينبغي لوالديها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، وينبغي للمرأة أن تكون قاعدة في بيتها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، وينبغي للمرأة أن تكون قاعدة في بيتها، لازمة لمغزلها، قليلة الكلام لجيرانها، كثيرة الانقباض في حال غيبة زوجها، تحفظه غائبًا وحاضرًا، وتطلب مسرته في جميع الأحوال، ولا تخونه في نفسها ولا في ماله، ولا توطئ فراشه من يكره، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، ولتكن همتها صلاح شأنها وتدييره، قائمة بخدمة الدار في كل ما أمكنها، ولتكن مقدمة لحق زوجها على حق نفسها وحق جميع أقربائها.

## آداب الولادة

س: ما هي آداب الولادة واستقبال المولود؟

ج: آداب استقبال المولود ستة:

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري في أيهما الخير.

الثاني: أن يؤذن في أذن المولود حين يولد.

الثالث: أن يسميه اسمًا حسنًا.

وفي أفراد مسلم: «إن أحب أسمائكم إلى الله ﷻ عبد الله وعبد الرحمن» [أخرجه مسلم (٢١٣٢)]. ومن كان له اسم مكروه، استحب تبديله، فقد غير النبي ﷺ أسماء جماعة، وقد كره من الأسماء: أفلح، ونافع، ويسار، ورباح، وبركة، لأنه يقال: أهو ثمة؟ فيقال: لا.

الرابع: العقيقة عن الذكر شاتان، وعن الأنثى شاة.

الخامس: أن يحنكه بتمرّة.

السادس: الختان.

## آداب الطلاق

س: ما هي آداب الطلاق؟

ج: مما يتعلق بآداب الطلاق، وهو أبغض المباحات إلى الله ﷻ فيكره للرجل أن يفاجئ به المرأة من غير ذنب، ولا يجوز للمرأة أن تلجئه إلى طلاقها، فإذا أراد الطلاق فليراع فيه أربعة أشياء.

الأول: أن يطلقها في طهر لم يصبها فيه، لثلاث تطول عليها العدة.

الثاني: أن يقتصر على طلقة واحدة ليستفيد بها الرجعة إن ندم.  
الثالث: أن يتلطف في الأمر في الطلاق بإعطائها ما تتمتع به لينجبر الفاجع، فقد روي عن الحسن بن علي رضي الله عنه أنه: «طلق امرأة وبعث إليها بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق».

الرابع: أن لا يفشي سرها، وفي الحديث الصحيح في أفراد مسلم «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرها» [أخرجه مسلم (١٤٣٧)].

وروي عن بعض الصالحين أنه: «أراد طلاق امرأته فقيل له: ما الذي يريك منها؟ فقال: العاقل لا يهتك سرًا، فلما طلقها قيل له: لم طلقها؟ فقال: مالي ولا امرأة غيري. فهذا كله في بيان ما على الزوج».

### آداب الكسب والمعاش

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل الكسب والحث عليه؟  
ج: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١]، فذكره في معرض الامتنان، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠] فجعلها نعمة، وطلب الشكر عليها، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وفي أفراد البخاري أن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمله يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» [أخرجه البخاري (٢٠٧٢)].

وفي حديث: «أن زكريا عليه السلام كان نجارًا» [أخرجه مسلم (٢٣٧٩)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان آدم عليه السلام حرثًا، ونوح نجارًا، وإدريس خياطًا، وإبراهيم ولوط زراعين، وصالح تاجرًا، وداود زرادًا، وموسى وشعيب

ومحمد صلوات الله تعالى عليهم وسلم رعاة».

س: اذكر بعض الآثار في فضل الكسب والحث على الاكتساب؟

ج: من الآثار روي أن لقمان الحكيم قال لابنه: «يا بني استعن بالكسب الحلال، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الخصال استخفاف الناس به».

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي»، وقال حين ذكر الطير: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

وكان أصحاب رسول الله ﷺ، يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخلهم، والقدوة بهم.

وقال أبو سليمان الداراني: «ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يتعب لك، ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد»، فإن قيل: قال أبو الدرداء: «زاوت التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فاخترت العبادة؟» فالجواب: أنا لا نقول: إن التجارة لا تتراد لذاتها، بل للاستغناء عن الناس، وإغناء العائلة، وإفاضة الفضل على الإخوان، فأما إن كان المقصود نفس المال وجمعه، والتفاخر ونحو ذلك، فهو مذموم.

س: ما هي الأمور التي ينبغي توافرها في عقد الاكتساب؟

ج: ليكن العقد الذي به الاكتساب جامعاً لأمر أربعة: الصحة، والعدل، والإحسان، والشفقة على الدين.

الأمر الأول: في الصحة، فإن كان العقد بيعاً، فهذه ثلاثة أركان: العاقد والمعقود عليه، واللفظ.

الركن الأول: أما العاقد، فينبغي للتاجر أن لا يعامل المجنون، لأنه غير مكلف، فلا يصح بيعه، ولا يعامل العبد إلا أن يعلم أنه مأذون له، وكذلك الصبي لا يعامل إلا أن يكون قد أذن له الأب أو الوصي، فيصير بمنزلة العبد المأذون له، وعند الشافعي لا تصح عقود الصبي، ومعاملة الأعمى عندنا صحيحة، يصح بيعه وشراؤه، وعند الشافعي لا تصح.

وأما الظلمة ومن أكثر ماله حرام، فلا ينبغي أن يعامل إلا في شيء يعرف أن عينه حلال.

الركن الثاني: المعقود عليه، وهو المال المقصود نقله، ولا يجوز بيع الكلب، لأنه نجس العين، فأما البغل والحمار فيجوز بيعهما، سواء قلنا: إنهما طاهران أو نجسان، ولا يجوز بيع الحشرات، ولا بيع العود والمزمار، والصور المصنوعة من الطين ونحوه، ولا يجوز بيع ما لا يقدر على تسليمه حسًا ولا شرعًا، أما الحس فكالطير في الهواء، والعبد الآبق ونحوهما، وأما الشرع فكالمرهون، وبيع الأم دون الولد الصغير، أو الولد دون الأم، فهذا ممنوع تسليمه شرعًا.

الركن الثالث: اللفظ، وهو الإيجاب والقبول، فإن تقدم القبول للإيجاب لم يصح في إحدى الروايتين، ويصح في الأخرى، سواء كان بلفظ الماضي أو بلفظ الطلب، فإن تبايعا بالمعاطاة، فظاهر كلام أحمد صحة البيع.

وقال القاضي أبو يعلى: لا يصح ذلك إلا في الأشياء اليسيرة، وهذا أصلح الأقوال، أعني أن تكون المعاطاة في الأشياء المحقرة دون النفيسة، لجريان العادات بذلك، وينبغي من طريق الورع أن لا يترك الإيجاب والقبول ليخرج عن شبهة الخلاف، وقد شدد الله تعالى في أمر الربا، فينبغي أن يحذر من الوقوع فيه، وهو قسمان: ربا الفضل، وربا النسيئة، فينبغي أن يعرف ذلك وما يجري فيه الربا، ويحتاج أيضًا أن يعرف شروط السلم، والإجازة والمضاربة، والشركة، فإن المكاسب لا تنفك عن هذه العقود المذكورة.

الأمر الثاني: وهو العدل، واجتناب الظلم في المعاملة، ونعني بالظلم ما يتضرر به الغير، وهو ينقسم إلى ما يعم ضرره وما يخص.

الأول: الاحتكار، وهو منهي عنه لما فيه من غلاء السعر وتضييق الأقوات على الناس.

وصفته: أن يستكثر من ابتياع الغلات في الغلاء، ويربص بها زيادة الأسعار، فأما إذا دخلت له غلة من ضيعته وحبسها، فليس محتكرًا، وكذلك إذا كان الشراء في حال الاتساع والرخيص على صفة لا يضيق على الناس، وفي الجملة تكره التجارة في القوت، لأنه قوام الأدمي.

القسم الثاني: ما يخص ضرره، نحو أن يثني على السلعة بما ليس فيها، أو يكتم بعض عيوبها فيضر بذلك المشتري. وقد قال النبي ﷺ: «من غشنا ليس منا» [أخرجه مسلم (١٠١)].

واعلم: أن الغش حرام في البيوع، وفي الصناعات، وقد سئل الإمام أحمد عن رفو الثوب حتى لا يبين، فقال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه.

وينبغي للتاجر أن يحقق الوزن، ولا يتخلص في هذا حتى يرجح إذا أعطي، وينقص إذا أخذ، ومتى خلط العلاف الطعام ترابًا ثم كاله فهو مطفف، وكذلك القصاب إذا خلط عظمًا لم تجر العادة بمثله.

وقد نهي عن النجش، وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها ليُغر المشتري، ونهي عن التصرية.

الأمر الثالث: في الإحسان بالمعاملة، وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان، فمن الإحسان المسامحة في البيع، وأن لا يغبنه في الربح بما لا يتغابن في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولكن يراعى فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته، فينبغي أن يتمتع البائع من قبول ذلك، فإن ذلك من الإحسان.

من ذلك أنه إذا أراد استيفاء الثمن أو الدين، فيحسن تارة بالمساحة وتارة بحط البعض، وتارة بالإنظار، وتارة بالتساهل، وتارة في جودة النقد.

ومن الإحسان: أن يقلل من يستقبله، فإنه لا يستقبل إلا مضرر بالبيع، والأحاديث تشهد بفضل هذه الأمور المذكورة، وما لصاحبها من الأجر والثواب. الأمر الرابع: في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته، لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، بل يراعي دينه، وإنما تتم شفقته على دينه بمراعاة ستة أشياء:

الأول: حسن النية في التجارة فلينبهها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس، والقيام بكفاية العيال، ليكون بذلك من جملة المجاهدين، ولينبه النصح للمسلمين.

الثاني: أن يقصد القيام في صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش، إلا أن من الصناعة ما هو مهم، ومنها ما يستغني عنه لكونه متعلقًا بالزينة أو طلب التمتع، فليشتغل بصناعة مهمة، ليكون في قيامه بها كافيًا عن المسلمين مهمًا، وليجتنب صناعة الصياغة، والنقش، وتشييد البنيان بالجص، وجميع ما يزخرف به، فإنه مكروه.

ومن المعاصي: خياطة الحياط القباء الديباج للرجل، ويكره أن يكون جزاءً، لأنه يوجب قساوة القلب، أو حجامًا، أو كناسًا لما فيه مباشرة النجاسة، وفي معناه الدباغ.

ولا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والعبادات، وفروض الكفايات. الثالث: أن لا يمنع سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وسوق الآخرة المساجد، فينبغي أن يجهل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته، فيواظب على الأوراد، وقد كان صالحوا السلف من التجار يجعلون أول النهار وآخره للآخرة، ووسطه للتجارة، وإذا سمع أذان الظهر والعصر، فينبغي أن يترك المعاش اشتغالًا بأداء الفرض.

الرابع: أن يلازم ذكر الله تعالى في السوق، ويشغل بالتسييح والتهيل.  
الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، فلا يكون أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها.  
السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتوقى مواقع الشبه ومواضع الريب، ولا يقف مع الفتاوى، بل يستفتي قلبه ما يحز في القلب.

### الحلال والحرام

س: ما حكم طلب الحلال؟ وكيف نجيب على من يقول أن الحلال منعدم وغير موجود؟

ج: طلب الحلال فرض على كل مسلم، وقد ادعى كثير من الجهال عدم الحلال، وقالوا: لم يبق منه إلا الماء الفرات، والحشيش النبات، وما عدا ذلك فقد أفسدته المعاملات الفاسدة، فلما وقع لهم هذا، وعلموا أنه لا بد لهم من الأوقات توسعوا في الشبهة والحرام، وهذا من الجهل، وقلة العلم، فإن في «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتهات» [أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)].

ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجهال بدعة قد عم ضررها، واستطار في الدين شررها، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة.

ونحن نوضح ذلك في أقسام:

القسم الأول: في فضيلة طلب الحلال، وذم الحرام، ودرجات الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، والطيبات: الحلال، فأمر بذلك قبل العمل، وقال في ذم الحرام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ

يَبْنِكُمْ بِالْبَطِيلِ ﴿ [البقرة: ١٨٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»، وذكر الحديث إلى قوله: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأني يستجاب لذلك» [أخرجه مسلم (١٠١٥)]. رواه مسلم. وروي في ذلك غير حديث.

وقد كان السلف ينظرون في الحلال ويدققون فيه، فأكل أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «شيئاً من شبهة ثم قاء».

س: وما هي درجات الحلال، وما هي درجات الحرام؟

ج: الحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض، كما أن الطيب يحكم على كل حلو بالحرارة، ولكنه يقول: هذا حار في الدرجة الأولى، وهذا في الدرجة الثانية، وهذا في الثالثة، وهذا في الرابعة. مثال ذلك في الحرام المأخوذ بعقد فاسد، حرام ولكنه ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ، إذ فيه إيذاء الغير، وترك طريق الشرع في الاكتساب، ليس في العقود الفاسدة إلا ترك طريق التعبد فقط، وكذلك المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو يتيم، أخبث وأغلظ من المأخوذ من قوي أو غني أو فاسق.

س: وما هي درجات الورع؟

ج: الورع له درجات أربع:

الدرجة الأولى: وهي درجة العدول عن كل ما تقتضي الفتوى تحريمه، وهذا لا يحتاج إلى أمثلة.

الدرجة الثانية: الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحب، كما يأتي

في قسم الشبهات. ومن هذا قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» [أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي (٥٧١١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٣٧٧)].

الدرجة الثالثة: الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

الدرجة الرابعة: الورع عن كل ما ليس لله تعالى، وهو الورع الصديقين، مثال ذلك ما روي عن يحيى بن يحيى النيسابوري رحمة الله عليه أنه: «شرب دواء، فقالت له امرأته: لومشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسي ثلاثين سنة». فهذا رجل لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق في الدين فلم يقدم عليها، فهذا من دقائق الورع.

والتحقيق فيه أن الورع له أول وغاية، وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشد تشديداً، كان أسرع جوازاً على الصراط، وأخف ظهراً، وتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت دركات النار في حق الظلمة بحسب درجات الحرام، فإن شئت فرد في الاحتياط، وإن شئت فترخص، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص.

س: وما هي مراتب الشبهات وكيف نميزها عن الحرام؟

ج: حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه نص في هذه الأقسام الثلاثة، وهي الحلال والحرام وما بينهما، والمشكل فيها هو المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس، وهو الشبهة. ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول: الحلال المطلق الذي لا يتعلق بذاته صفة توجب تحريماً لعينه، ولا يتعلق بأسبابه ما يطرق إليها تحريماً أو كراهية.

مثال ذلك الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد. الحرام المحض: ما فيه صفة محرمة، كالشدة في الخمر، والنجاسة في البول، أو حصل بسبب منهي عنه، كالمحصل بالظلم والربا، فهذان الطرفان ظاهران، ويلتحق بهما ما تحقق أمره، ولكن يحتمل تغييره، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب ظاهر يدل عليه، فإن صيد

البر والبحر حلال، إلا أنه من صاد ظبية أو سمكة، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت، وهذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء، فمساكنة ذلك الاحتمال في الصيد ورع الموسوسين، لأنه وهم مجرد لا دلالة عليه، فلولد عليه دليل، مثل أن يجد في الظبية جرحًا لا يقدر عليه، إلا بعد الضبط، كالكي، ويحتمل أن يكون غيره، فهذا موضع الورع.

وحد الشبهة ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين.  
ومثالات الشبهة كثيرة، والمهم منها مثالان:

المثال الأول: الشك في السبب المحلل أو المحرم، وينقسم إلى أربعة أنواع:  
النوع الأول: أن يكون الحل معلومًا من قبل، ثم يقع الشك في المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها، ويحرم الإقدام عليها، مثاله أن يرى صيدًا فيجرحه فيقع في الماء فيصادفه ميتًا، ولا يدري هل مات بالغرق أو بالجرح؟ فهذا حرام، لأن الأصل التحريم.

النوع الثاني: أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فيكون الأصل الحل، والحكم له، كما لو طار طائر، فقال رجل: إن كان هذا غرابًا فامرأته طالق، وقال آخر: وإن لم يكن غرابًا، فامرأته طالق: ثم التبس الأمر، فإنا لا نقضي بالتحريم في واحد منهما، ولكن الورع اجتنابهما وتطبيقهما.

النوع الثالث: أن يكون الأصل التحريم، ولكن طرأ ما يوجب التحليل بظن غالب فهو مشكوك فيه، والغالب حله، مثاله أن يرمى على صيد فيغيب عنه، ثم يدركه ميتًا وليس عليه أثر سوى سهمه، فهذا الظاهر فيه الحل، لأن الاحتمال إذا لم يستند إلى دليل التحقيق بالوسوسة، فأما إن ظهر عليه أثر ثدمة أو جرحه أخرى التحق بالنوع الأول.

النوع الرابع: أن يكون الحل معلومًا، ولكن يغلب على الظن طريان المحرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعًا، مثاله أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد

على علامة معينة توجب عليه الظن، فتوجب تحريم شربه، كما أوجب منع الوضوء به.  
 المثال الثاني: أن يختلط الحرام بالحلال، ويشتهبه الأمر فيه. وذلك على ضرب:  
 أحدها: إذا اختلطت ميتة بمدكاة، أو بعشرة من المذكيات، ونحو ذلك من العدد  
 المحصور، ومثله أن تشتهبه أخته بأجنبيات، فهذه شبهة يجب اجتنابها.

الثاني: أن يختلط حرام محصور بحلال غير محصور، كما لو اشتبهت أخته أو عشر  
 رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح من  
 شاء منهن، لأن في تحريمهن حرجاً كبيراً، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام  
 قطعاً، لم يلزمه ترك الشراء والأكل، لأن في ذلك حرجاً، وقد علم رسول الله ﷺ  
 وأصحابه أن في الناس من يراي، وما تركوا الدراهم بالكلية، وأن مجنأ سرق في  
 زمانه، وما تركه شراء المجن، فاجتناب هذا من ورع الوسوسة.

الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كحكم الأموال في زماننا  
 هذا، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شيء بعينه، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل  
 على أنه من الحرام، نحو أن يأخذه من يد سلطان ظالم، فإن لم يكن له علامة، فتركه  
 ورع، ولا يحرم ذلك، لأنه قد علم في زمان رسول الله ﷺ والخلفاء بعده أن أثمان  
 الخمر ودراهم الربا وغلول الغنيمة اختلطت بالأموال، وقد أدركت الصحابة نهب  
 المدينة وتصرف الظلمة ولم يمنعوا من الشراء بالسوق، ولولا صحة ذلك لا نسد باب  
 جميع التصرفات فإن الفسق يغلب على الناس، لكن الأصل في الأموال الحل، وإذا  
 تعارض أصل وغالب، ولا أمانة على الغالب، حكم بالأصل كما قلنا في طين  
 الشوارع وأواني المشركين، فقد توضعاً عمر رضي الله عنه من جرة نصرانية، مع أن مشربهم  
 الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحتززون من نجاسة، وكانت الصحابة تلبس الفراء  
 المدبوغة والثياب المصبوغة.

ومن تأمل أحوال الدباغين والصباعين، علم غلبة النجاسة عليهم، فيدل ذلك  
 على أنهم لم يكونوا يحتززون إلا من نجاسة مشاهدة، أو يكون عليها علامة، فأما الظن

الذي يستفاد من رد الوهم إلى مجاري الأحوال، فلم يعتبروه، فإن قيل: قد كانوا يتوسعون في أمور الطهارة، ويحترزون من شبهات الحرام، فما الفرق؟ قلنا: إن أردت أنهم كانوا يصلون مع النجاسة فباطل، وإن أردت أنهم احترزوا من كل نجاسة وجب اجتنابها فصحيح، وأما تورعهم عن الشبه، فكان بطريق كف النفس عما ليس به بأس مخافة ما به بأس، والنفس تميل إلى الأموال كيف كانت بخلاف الأنجاس، وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال، والله أعلم.

س: وكيف يميز الإنسان بين ما يقدم له من طعام أوهدية؟

ج: اعلم: أنه لو قدم لك الطعام أوأهديت لك الهدية، وأردت أن تشتري شيئاً من شخص فليس لك أن تقول: هذا مما لا أتحقق حله، فأريد أن أفتش عنه وليس لك أن تترك البحث مطلقاً، بل السؤال واجب مرة، وحرام مرة، ومندوب مرة، ومكروه مرة.

والقول الشافي فيه: أن مظنة السؤال الربية، وهي تحصل إما من أمر يتعلق بالمال أو بصاحب المال، أما ما يتعلق بصاحب المال، فنحو أن يكون مجهولاً، وهو الذي ليس عليه قرينة تدل على ظلمه، كزبي الأجناد، ولا على صلاحه، كثياب أهل العلم والزهد، فهذا لا يجب السؤال ولا يجوز، لأن فيه هتك المسلم وإيذائه، ولا يقال لهذا: إنه مشكوك فيه، لأن المشكوك فيه هو الذي تحصل فيها الربية بدلالة، مثل أن يكون على خلقة الأتراك، وأهل البوادي المعروفين بالظلم، وقطع الطريق، فهذا يجوز معاملته، لأن اليد تدل على الملك، وهذه الدلالات ضعاف، إلا أن الترك من الورع.

وأما ما يتعلق بالمال، فنحو أن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا طرح في السوق أحمال من طعام مغصوب فاشتراها أهل السوق، فإنه لا يجب على من يشتري في تلك البلدة من السوق أن يسأل عما يشتريه، إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام، فعند ذلك يجب السؤال، فإن لم يكن الأكثر حراماً كان التفتيش ورعاً غير واجب.

وكذلك نقول في رجل له مال حلال خالطه حرام، مثل أن يكون تاجرًا يعامل معاملات صحيحة ويرابي، فهذا إن كان الأكثر من ماله حرامًا، لم تجز قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التفطيش، فإن ظنه أن المأخوذ من وجه حلال جاز، وإلا ترك، وإن كان الحرام أقل، فالمأخوذ شبهة، والورع تركه.

واعلم: أن السؤال إنما يقع لأجل الربية، فلا ينقطع إلا من حيث تنقطع الربية المفضية له، بأن لا يكون المسؤول متهمًا، فإن كان متهمًا وعلمت أن له غرضًا في حضورك أو قبول هديته، فلا ثقة بقوله، وينبغي أن يسأل غيره.

س: من كان في يده مال مختلط منه الحلال والحرام ثم تاب، فكيف يميز بينهما؟  
ج: من تاب وفي يده مال مختلط، فعليه تمييز الحرام وإخراجه، فإن كان معلوم العين، فأمره سهل، وإن كان ملتبسًا مختلطًا، فإن كان من ذوات الأمثال، كالحبوب والنقود والأدهان، وكان معلوم القدر، ميز ذلك القدر، فإن أشكل فله طريقان: أحدهما: الأخذ بغالب الظن.

والثاني: الأخذ باليقين، وهو الورع.  
فإذا أخرج المال الحرام، فإن كان له مالك معين، وجب صرفه إليه أو إلى وارثه، وإن كان لذلك المال زيادة ومنفعة، جمع ذلك كله وصرفه إليه، وإن يئس من معرفة المالك ولم يدر أمانات عن وارث أم لا؟ فليصدق به، وإن كان ذلك من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين، صرف ذلك إلى القناطر والمساجد ومصالح طريق مكة وما ينتفع به كل من يمر من المسلمين.

مسألة: إذا كان في يده مال حلال وشبهة، فليخص نفسه بالحلال، وليقدم قوته وكسوته على أجرة الحجام والزيت وإسجار التنور، وأصل هذا قوله ﷺ في كسب الحجام: «اعلفه ناضحك» [أخرجه الترمذي (١٢٧٧)]، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٠٠٠).

ولو كان في يد أبويه حرام، فليمتنع من مؤاكلتهما، فإن كان شبهة دارهما، فإن لم

يقبلا تناول اليسير .

وقد روي: «أن أم بشر الحافي ناولته ثمرة فأكلها، ثم صعد الغرفة فقاءها».

س: وما الحكم في أموال الأعطيات التي يعطيها السلاطين؟

ج: من أخذ مالا من السلطان فلا بد أن ينظر في مدخل ذلك إلى السلطان من أين هو، وفي صفته التي يستحق بها الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقه؟ وقد تورع جماعة عن ذلك، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به .  
وأما في هذا الزمان، فالاحتراز أولى، لأنه قد علم طريق الأخذ، ثم لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت على الإنكار .

وقد كان بعض السلف لا يأخذ، ويعلل بأن باقي المستحقين لم يأخذوا، وهذا ليس بشيء، لأنه يأخذ حقه ويبقى أولئك في مقام مظلوم، وليس المال مشتركا .

س: وما أحوال من يخالط الأمراء والعمال الظلمة؟

ج: اعلم: أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن تدخل عليهم وهي شرها .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى أبواب السلطان افتتن» [صحيح]: أخرجه الترمذي (٢٢٥٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح جامع الترمذي» .

وقال حذيفة: «ياكم ومواقف الفتن، فقل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه» .

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد: «ألا تأتينا؟ فقال: أخاف إن أدنيتني فنتني، وإن أقصيتني حرمتني، وليس في يدك ما أريده، ولا في يدي ما أخافك عليه، وإنما أتاك من أتاك ليستغني بك عن سواك، وقد استغنيت عنك بمن أغناك عني .

وأيضا: فإن الداخل على السلطان معرض لأن يعصي الله ﷻ، إما بفعله أو قوله

أوسكوته».

أما الفعل: فإن الدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى أماكن مغضوبة، ولو فرض أنه في موضع غير مغضوب، ففي الغالب يكون ما تحته أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله الحرام، والانتفاع بذلك حرام، ولو فرض ذلك حلالاً، فربما يقع في غيره من المحذورات، إما أن يسجد له، أو يتمثل له قائماً، ويخدمه، ويتواضع له بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه.

والتواضع للظالم معصية، بل من تواضع لغني لأجل غناه لا لمعنى آخر يقتضي التواضع، ذهب ثلثا دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟!  
وتقبيل اليد له معصية، إلا أن يكون عند خوف، أو لإمام عادل، أو عالم يستحق ذلك، فأما غير ما ذكرنا، فلا يباح في حقهم إلا مجرد السلام.

وأما القول: فهو أن يدعو للظالم، أو يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالة والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

وأما القول: فهو أن يدعو للظالم، أو يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالة والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

وقد جاء في الأثر: «من دعا لظالم بطول البقاء، فقد أحب أن يعصي الله». ولا يجوز دعاؤه له إلا أن يقول: أصلحك الله، أو وفقك الله، أو نحو ذلك. وأما السكوت: فهو أن يرى في مجالسهم من الفرش الحرير، وأواني الفضة، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير، ونحو ذلك، فيسكت. وكل من رأى شيئاً من ذلك وسكت فهو شريك فيه، وكذا إذا سمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم

وإيذاء، فإن السكوت عن ذلك كله حرام، لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه، فهو معذور في السكوت.

قلنا: صدقت، إلا أنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، لأنه لو لم يدخل ويشاهد، لم يجب عليه الأمر والنهي، وكل من علم بفساد في مكان، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته، لم يجز له أن يحضر.

س: وما الأعذار والأحوال التي تسوغ الدخول على الأمراء الظلمة؟

ج: فإن سلم مما ذكرنا، وهيئات، لم يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه، لما يرى من توسعهم في التنعم، فيزدري نعمة الله عليه، ثم يقتدي به غيره في الدخول، ويكون مكثراً لسواد الظلمة.

وروي أن سعيد بن المسيب: «دعي إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، فقال: لا أباع اثنين ما اختلف الليل والنهار، فقالوا: ادخل من هذا الباب واخرج من الآخر، قال: لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد مائة وألبس المسوح».

فعلى ما بينا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلمة إلا بعذرين:

أحدهما: إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى.

والثاني: أن يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم، فيجوز بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحته يتوقع لها قبولاً، فهذا حكم الدخول.

الحال الثاني: أن يدخل عليه زائراً، فجواب السلام لا بد منه.

وأما القيام والإكرام، فلا يجرم مقابلة له على إكرامه، فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للحمد، كما أنه بالظلم مستحق للذم، فإن دخل عليه وحده، وقد رأى أن يقوم إعزاز للدين فهو أولى، وإن كان دخوله عليه في جمع، فمراعاة حشمة أرباب

الولايات فيما بين الرعايا أولى وأمثل، ولا بأس بالقيام على هذه النية. وإن علم أن ذلك لا يورث فسادًا في الرعية ولا يناله أذى من غضبه، فترك الإكرام بالقيام أولى، ثم يجب عليه أن ينصحه، ويعرفه تحريم ما بفعله مما لا يدري أنه محرم.

فأما إعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر، فلا فائدة فيه، بل عليه أن يخوفه من ركوب المعاصي مهما كان التخويف يؤثر في قلبه، وعليه وأن يرشده إلى المصالح. ومتى عرف طريقًا للشرع يحصل به غرض الظالم عرفه إياه.

الحال الثالث: أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يرونه، والسلامة في ذلك، ثم ينبغي أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، فلا يجب لقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يستخير عن أحوالهم، ولا يقترب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم، كما قال بعضهم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، إما يوم مض فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم في غد على وجل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون في اليوم؟! مسألة: إذا بعث إليك سلطان مألًا لتفرقه على الفقراء، وكان له مالك معين، لم يجل أخذه، وإن لم يكن له، كان حكمه أن يتصدق به كما سبق بيانه، ويتولى تفرقه على الفقراء.

ومن العلماء من امتنع من أخذه، وإذا كان أكثر أموالهم الحرام، حرمت معاملتهم وما بنته الظلمة من القناطر والمساجد والسقايات، ينبغي أن ينظر فيه، فإن كانت تلك الأعيان التي بنيت بها لمالك معين، لم يجز العبور عليها إلا للضرورة، وإن لم يعرف مالکها جاز العبور عليها، والورع الامتناع، والله أعلم.

## آداب الصحبة ومعاشرة الخلق

س: س: لو ذكرت بعض فضائل حسن الخلق واستحباب الإحسان للخلق؟  
ج: اعلم: أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق سوء الخلق، لأن حسن الخلق  
يوجب التحابب والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتدابير، ولا يخفي ما في  
حسن الخلق من الفضل، والأحاديث دالة على ذلك.

فقد روي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من شيء أثقل  
في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن» [صحيح]: أخرجه الترمذي (٢٠٠٢)، وقال:  
حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٣٢).

وفي حديث آخر: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً  
وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة مساويكم أخلاقاً» [أخرجه أحمد في  
مسنده (١٧٢٨٩) والترمذي (٢٠١٨)، وقال: حديث حسن،، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع»  
برقم (٢٢٠١)].

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن  
الخلق» [أخرجه أحمد في مسنده (٩٤٠٣) والترمذي (٢٠٠٤)، وقال: حديث حسن صحيح، من  
حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٩٧٧)].

س: اذكر بعض الأحاديث في فضل المحبة في الله؟

ج: في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سبعة  
يظلمهم الله في ظلة يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجلان تحاببا في الله اجتماعاً  
على ذلك وتفرقا عليه» [أخرجه البخاري (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١)].

وفي حديث آخر يقول الله تعالى: «حققت محبتي للمتحابين في، وحققت محبتي

للمتباذلين في، وحقت محبتي للمتزاورين في» [أخرجه مالك في «الموطأ» (١٧٧٩)، وأحمد (٢١٤٩٧)، (٢١٥٢٥)، (٢١٥٥٩)، (٢١٥٧٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٣٢١)].

وفي حديث آخر: «أوثق عرى الإيمان، أن تحب في الله وتبغض في الله»، والأحاديث في ذلك كثيرة.

واعلم: أن من يحب في الله يبغض في الله، فإنك إذا أحببت إنساناً لكونه مطيعاً لله، فإذا عصى الله أبغضته في الله، لأن من أحب لسبب أبغض لوجوده ضده، ومن اجتمعت فيه خصال محمودة ومكروهة، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه.

فينبغي أن تحب المسلم لإسلامه، وتبغضه لمعصيته، فتكون معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال، فأما ما يجري منه مجرى الهفوة التي يعلم أنه نادم عليها، فالأولى حينئذ الإغماض والستر، فإذا أصر على المعصية وخفتها.

واعلم: أن المخالف لأمر الله تعالى أقسام:

أحدهما: أن يكون كافراً فإن كان حربياً فهو مستحق للقتل والإرقاق وليس بعد هذين إهانة، وإن كان ذمياً فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقيق له بالاضطرار له إلى أضييق الطريق. وترك البداءة بالسلام. فإن سلم قيل له: وعليك. والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومؤاكلته، ومن المكروه الاسترسال إليه والانسباط كما يفعل بالأصدقاء.

القسم الثاني: المبتدع، فإن كان ممن يدعو إلى بدعة. وكانت البدعة بحيث يكفر بها، فأمره أشد من الذمي؛ لأنه لا يقر بجزية ولا يسامح بعقد ذمة. وإن كان ممن لا يكفر بها، فأمره بينه وبين الله تعالى أخف من أمر الكافر لا محالة. ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر؛ لأن شر الكافر غير متعد؛ لأنه لا يلتفت إلى قوله، بخلاف المبتدع الذي يدعو إلى بدعته لأنه يزعم أن ما يدعو إليه حق فيكون سبباً لغواية الخلق، فشره متعد، فإظهار بغضه والانقطاع عنه ومعاداته وتحقيره ولا تشنيع

عليه ببدعته وتغيير الناس عنه أشد فأما المبتدع العامي الذي لا يقدر أن يدعو ولا يخاف الاقتداء به، فأمره أهون والأولى أن يتلطف به في النصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقييح لبدعته في عينه، تأكد استحباب الإعراض عنه، وإن علم أن ذلك لا يؤثر لجمود طبعه ورسوخ اعتقاده في قلبه، فالإعراض عنه أولى؛ لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقييحها شاعت بين الخلق وعم فسادها.

القسم الثالث: العاصي بفعله لا باعتقاده، فإن كانت بحيث يتأذى بها غيره، كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك، فالأولى الإعراض عنه وترك مخالطته والانتباض عن معاملته، وكذلك الحكم فيمن يدعو إلى الفساد، كالذي يجمع بين الرجال والنساء ويهين أسباب الشرب لأهل الفساد، فهذا ينبغي إهانته ومقاطعته والإعراض عنه. فأما الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو زنا أو سرقة أو ترك واجب، فالأمر فيه أخف، ولكنه في وقت مباشرته إن صودف، وجب منعه بما يمتنع به، فإن كان النصح يردده وكان أنفع له، نصح وإلا أغلظ له.

### صفات الصاحب

روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال» [حسن]: أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد في مسنده (٨٢١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥٠١٩).

واعلم: أنه لا يصلح للصحة كل أحد، ولا بد أن يتميز المصحوب بصفات وخصال يرغب بسببها في صحبته، وتشرط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحة، وهي إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاوره، وليس ذلك غرضنا، وإما دينية، وتجتمع فيها أغراض مختلفة، منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع إيذاء من

يكدّر الاستفادة بالعلم والعلم، ومنها: الاستفادة من الجاه تحصيلًا عن إيذاء من يكدّر الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها: الاستفادة من الجاه تحصيلًا به عن تضييع الأوقات ويصد القلب عن العبادة، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المهمات، فتكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة، كما قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة.

فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطًا لا تحصل إلا بها وفي الجملة:

فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلًا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا. أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق، لأنه يريد أن ينفكك فيضرك، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه، وإما أن يكون بحيث إذا أفهم فهم. وأما حسن الخلق، فلا بد منه، إذ رب عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه فلا خير في صحبته. وأما الفاسق، فإنه لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته ولا يوثق به وأما المبتدع فيخاف من صحبته بسراية بدعته قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «عليك بإخوان الصدق تعيش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقلبك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على شرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى».

قال يحيى بن معاذ: «بس الصديق تحتاج أن تقول له: اذكرني في دعائك، وأن تعيش معه بالمداراة، أو تحتاج أن تعتذر إليه».

ودخل جماعة على الحسن وهو نائم، فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت، فقال: «رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان».

وقال أبو جعفر لأصحابه: «أيدخل أحدكم يده في كم أخيه فيأخذه منه ما يريد؟

قالو: لا، قال: فلستم بإخوان كما تزعمون».

ويروى أن فتحًا الموصلِي جاء إلى صديق له يقال له: عيسى التمار، فلم يجده في المنزل، فقال للخادمة: «أخرجي لي كيس أخي، فأخرجته، فأخذ درهمين، وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك، فقال: إن كنت صادقة، فأنت حرة، فنظر فإذا هي قد صدقت، فعتقت».

### حقوق الإخوان

س: ما هي الحقوق التي تلزم الإنسان تجاه إخوانه؟  
 ج: الحق الأول: قضاء الحاجات والقيام بها، وذلك درجات: أدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، لكن مع البشاشة والاستبشار.  
 وأوسطها: القيام بالحوائج من غير سؤال.  
 وأعلىها: تقديم حوائجه على حوائج النفس.  
 وقد كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضى حوائجهم.  
 الحق الثاني: على اللسان بالسكوت تارة، وبالنطق أخرى.  
 أما السكوت، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في حضوره وغييبته، وعن الرد عليه ومماراته ومناقشته، وعن السؤال عما يكره ظهوره من أحواله. ولا يسأله إذا لقيه: إلى أين؟ فربما لا يريد إعلامه بذلك، وأن يكتف سره ولو بعد القطيعة، ولا يقدر في أحبابه وأهله، ولا يبلغه قدح غيره فيه.  
 الحق الثالث: وينبغي أن يسكت عن كل ما يكرهه، إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أن ينهي عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت، فإن مواجهته بذلك إحسان إليه في المعنى.

واعلم: أنك إن طلبت منزلها عن كل عيب لم تجد، ومن غلبت محاسنه على مساويه فهو الغاية.

وقال ابن المبارك: «المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزلات».

وقال الفضيل: «الفتوة: الصفح عن زلات الإخوان».

وينبغي أن تترك إساءة الظن بأخيك، وأن تحمل فعله على الحسن مهما أمكن، وقد قال النبي ﷺ: «وإياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» [أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣)].

واعلم: أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المنهي عنه، وأن ستر العيوب والتغافل عنها سمة أهل الدين.

واعلم: أنه لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يجب أن يعامله به، ولا شك أنك تنتظر من أخيك أن يستر عورتك، وأن يسكت عن مساويك، فلوظهر لك منه ضد ذلك اشتد عليك فكيف تنتظر منه ما لا تعزم عليه له؟

ومتى التمتست من الإنصاف ما لا تسمح به دخلت في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا يُخْسِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة المطففين: ٢-٣]. ومنشأ التقصير في ستر العورة والمغري بكشفها الحقد والحسد.

واعلم: أن من أشد الأسباب لإثارة الحقد والحسد بين الإخوان المماراة، ولا يبعث عليها إلا إظهار التميز بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه، ومن ماري أخاه، فقد نسبه إلى الجهل والحمق، أو إلى الغفل والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه، كل ذلك استحقار، وهو يوغر الصدر ويوجب المعادة، وهو ضد الأخوة. الحق الرابع: على اللسان بالنطق، فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكروه، تقتضي النطق بالمحجوب، بل هو أخص بالأخوة، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص منهم، لأن السكوت صحب

أهل القبور، وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص منهم، لأن السكوت معناه كف الأذى، فعليه أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقدته في أحواله، ويسأل عما عرض له، ويظهر شغل قلبه بسببه، ويبدى السرور بما يسر به.

وفي الصحيح من رواية الترمذي: «إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه» [أخرجه الترمذي (٢٢٩٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٧٩)].

ومن ذلك أن يدعو بأحب أسمائه إليه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليك».

ومن ذلك أن يثني عليه بما يعرفه من محاسن أحواله عند من يؤثر الثناء عنده، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله، حتى في خلقه وعقله وهيئته وخطه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب.

وكذلك ينبغي أن تبلغه ثناء من أثني عليه مع إظهار الفرح به، فإن إخفاء ذلك محض الحسد.

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك، وأن تذب عنه في غيبته إذا قصد بسوء، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة.

وفي الحديث الصحيح: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» [أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠)]. ومتى أهمل الذب عن عرضه يكون قد أسلمه، ولك في ذلك معياران:

أحدهما: أن تقدر أن الذي قيل فيه، قد قيل فيك وهو حاضر، فتقول ما تحب أن يقوله.

الثاني: أن تقدر أنه حاضر وراء جدار يتسمع عليك، فما تحرك في قلبك من نصرته في حضوره ينبغي أن يتحرك في غيبته، ومن لم يكن مخلصاً في إخائه فهو منافق. ومن ذلك التعليم والنصيحة، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى

المال، وإذا كنت غنيًا بالعلم فواسه وأرشدته.

وينبغي أن يكون نصحك إياه سرًا، والفرق بين التوبيخ والنصيحة الإعلان والإسرار، كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن.

ومن ذلك: العفوعن الزلات، فإن كانت زلته في دينه فتلطف في نصحه مهما أمكن، ولا تترك زجره ووعظه، فإن أبي فالمصارمة:

الحق الخامس: الدعاء للأخ في حياته وبعد موته بكل ما تدعو به لنفسك.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي الدرداء، أن النبي ﷺ قال: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل» [أخرجه مسلم (٢٧٣٢)].

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يدعو لخلق كثير من إخوانه يسميهم بأسمائهم. وكان أحمد ابن حنبل رضي الله عنه يدعو في السحر لستة نفر.

وأما الدعاء بعد الموت، فقال عمرو بن حريث: «إذا دعا العبد لأخيه الميت، أتى بها ملك قبره، فقال: يا صاحب القبر الغريب، هذه هدية من أخ عليك شفيق». الحق السادس: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء: الثبات على الحب إلى الموت، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه، وقد أكرم النبي ﷺ عجزًا وقال: «إنها كانت تغشانا في أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».

ومن الوفاء أن لا يغر على أخيه في التواضع وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه.

واعلم: أنه ليس من الوفاء موافقة لأخ فيما يخالف الدين، فقد كان الشافعي رضي الله عنه أخى محمد بن عبد الحكم، وكان يقربه ويقبل عليه، فلما احتضر قيل له: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ

إليه فقال: إلى أبي يعقوب البويطي، فانكسر لها محمد، ومع أن محمدًا كان قد حمل مذهبه، لكن البويطي كان أقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي رحمته الله المسلمين وترك المداهنة، فانقلب ابن الحكم عن مذهبه، وصار من أصحاب مالك.

ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه، ولا يصادق عدو صديقه. الحق السابع: التخفيف وترك التكلف والتكليف، وذلك أن لا يكلف أخاه ما يشق عليه، بل يروح سره عن مهماته وحاجاته، ولا يستمد من جاهه ولا ماله، ولا يكلفه التفقد لأحواله والقيام بحقوقه والتواضع له، بل يكون قصده بمحبته الله وحده، والتبرك بدعائه، والاستئناس بقلائه، والاستعانة على دينه، والتقرب إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه، وتمام التخفيف طي بساط الاحتشام حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي فيه من نفسه.

قال جعفر بن محمد: «أثقل إخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي».

وقال بعض الحكماء: من سقطت كلفته دامت ألفته، ومن تمام هذا الأمر أن ترى الفضل لإخوانك عليك، لا لنفسك عليهم، فتنزل نفسك معهم منزلة الخادم.

س: وضح بعض آداب المعاشرة للخلق؟

ج: من آداب المعاشرة للخلق: أن تتوقر من غير كبر، وتتواضع في غير ذلة، وأن تلقى الصديق والعدو بوجه الرضى من غير ذل لهم ولا خوف منهم، وتتحفظ في مجالسك من تشييك أصابعك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك، والتثاؤب.

واصغ إلى محدثك، ولا تسأله الإعادة، ولا تحدث بإعجابك بولدك وجاريتك، ولا تصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تبذل تبذل العبد.

وخوف أهلك في غير عنف، ولن لهم من غير ضعف، ولا تهازل أمتك وعبد، فيسقط وقارك، ولا تكثر الالتفات إلى ورائك.

ولا تجالس السلطان، فإن فعلت فاحذر الذنوب والغيبة، وصن سره، واحذر المداعبة عنده، وتحفظ من الجشأ بمحضته والتخلل، وإن قربك فكن منه على حذر، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهي، ولا تدخل بينه وبين أهله وحشمه.

وإياك وصديق العافية، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلسًا فاجلس فيما هو أقرب للتواضع، ولا تجلس على الطريق، فإذا جلست فغض البصر، وانصر المظلوم، وأرشد الضال.

ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك، ولكن عن يسارك تحت قدمك اليسرى. واحذر مجالسة العوام، فإن فعلت فعليك بالتغافل عما يجري من سوء أخلاقهم وترك الخوض في حديثهم.

واحذر كثرة المزاح فإن اللبيب يحقد عليك في المزاح، والسفيه يجترئ عليك.

### حقوق المسلم

س: اذكر حقوق المسلم على المسلم؟

ج: من حقوق المسلم: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتحييه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وجميع هذا منقول في الآثار.

ومنها: أن لا تؤذي أحدًا من المسلمين بقول ولا فعل، وأن تتواضع للمسلمين، فلا تتكبر عليهم، ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم في بعض، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض.

ومنها: أن لا تزيد في الهجرة على ثلاثة أيام لمن تعرفه، للحديث المشهور في ذلك

[أخرجه مسلم (٢٧٣٢)].

واعلم: أن هذه الهجرة إنما هي فيما يتعلق بالدنيا، أما حق الدين، فإن هجران أهل البدع والأهواء والمعاصي ينبغي أن تدوم، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق، إذا كان هجرانك لهم يؤثر فيهم، وتراعى المصالح والمفاسد في ذلك.

ومنها: أن يحسن إلى كل من يقدر أن يحسن إليه من المسلمين ما استطاع، وأن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه، ويستأذن ثلاثاً فإن لم يأذن انصرف.

ومنها: أن يخالق الناس بخلق حسن، وذلك أن يعامل كلاً منهم بحسب طريقته، فإنه متى لقي الجاهل بالعلم، واللاهي بالفقه، والغبي بالبيان، أذى وتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ، ويرحم الصبيان، وأن يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رقيقاً، وأن يفني لهم بالوعد، وينصف الناس من نفسه، ولا يأتي إليهم إلا ما يجب أن يؤتي إليه.

قال الحسن: «أوحى الله إلى آدم ﷺ كلمات، وقال: فيهن جماع الأمر لك ولولدك: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق. فأما التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئاً. وأما التي لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه. وأما التي بيني وبينك: فعليك الدعاء وعلي الإجابة. وأما التي بينك وبين الناس: فتصحبهم بالذي تحب أن يصحبوك به».

ومنها زيادة توقير ذوي الهيئات.

ومنها: إصلاح ذات البين، وستر عورات المسلمين.

واعلم: أنه من تأمل ستر الله تعالى على العصاة في الدنيا اقتدى بلطفه، فإنه جعل الشهادة في الزنى أن يشهد أربعة من العدول أنهم شهدوا ذلك كالليل في المكحلة، وهذا لا يتفق، ومن هذا أثر كرمه في الدنيا يرجى منه ذلك في الآخرة.

ومنها: أن يتقي مواضع التهم، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به، وألستهم عن غيبته.

ومنها أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة، ويسعى في قضاء حوائجهم.

ومنها: أن يبدأ بالسلام كل مسلم قبل أن يكلمه، ومن السنة المصافحة. ولا بأس بتقبيل يد المعظم في الدين، ولا بأس بالمعانقة، وأما الأخذ بالركاب لتوقير العلماء، فقد فعل ذلك ابن عباس بن يزيد بن ثابت رضي الله عنه، والقيام على سبيل الإكرام لأهل الفضل حسن، وأما الانحاء فمنهي عنه.

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم نفسه وماله عن ظلم الغير، ويناضل دونه وينصره.

ومنها: أنه إذا ابتلي بذى شر، فينبغي أن يجامله ويتقيه، لحديث عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه فلما انطلق الرجل قالت له عائشة يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة متى عهدتني فحاشا إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره». [أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٧٠٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٠٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» برقم (٨٨٩)].

وقال محمد بن الحنفية: «ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدءاً، حتى يجعل الله ﷻ له فرجاً».

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء، ويختلط بالمساكين، ويحسن إلى الأيتام.

ومنها: عيادة مرضاهم. ومنها: أن يشيع جنازتهم، ويزور قبورهم.

## آداب عيادة المريض

س: اذكر بعض آداب عيادة المريض؟

ج: من آداب العائد: أن يضع يده على المريض، ويسأله كيف هو، ويخفف الجلوس، ويظهر الرقة، ويدعو له بالعافية، وبغض البصر عن عورات المكان. ويستحب للمريض أن يفعل ما أخرجه مسلم في أفراده، من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكأ إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» [أخرجه مسلم (٢٢٠٢)].

س: وما الآداب التي يلزم المريض الأخذ بها؟

ج: جملة آداب المريض: حسن الصبر، وقلة الشكوى والتضجر، والفرع إلى الدعاء، والتوكل على الله سبحانه.

## آداب تشييع الجنائز

س: ما المقصود من تشييع الجنائز والتعزية؟

ج: المقصود من التشييع: قضاء حق المسلمين، والاعتبار. قال الأعمش: «كنا نحضر الجنائز، فلا ندري من نعزي لحزن القوم كلهم».

س: وما المقصود من زيارة القبور؟

ج: المقصود من زيارة القبور: الدعاء، والاعتبار، وترقيق القلب.

س: ما آداب تشييع الجنائز؟

ج: من آداب تشييع الجنائز: المشي، ولزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكير في الموت، والاستعداد له.

### حقوق الجار

س: ما هي حقوق الجار؟

ج: الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة.

واعلم: أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى والرفق، وابتداء الخير، وأن يبدأ جاره بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويهئته في الفرح، ويصفح عن زلاته، ولا يطلع إلى داره، ولا يضايقه في وضع الخشب على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في طرح التراب في فئائه، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف من عوراته، ولا يتسمع عليه كلامه، ويغض طرفه عن حرمة، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب.

### حقوق الأقارب والأرحام

س: وما هي حقوق الأقارب وذوي الرحم؟

ج: في الحديث الصحيح، من رواية عائشة، أن النبي ﷺ قال: «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله» [أخرجه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥)]. وفي حديث آخر من أفراد البخاري: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» [أخرجه البخاري (٥٩٩١)].

وفي حديث آخر من أفراد مسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، قال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك» [أخرجه مسلم (٢٥٥٨)]. والمعنى أنك منصور عليهم، وقد انقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة، كما ينقطع كلام من سف المل، وهو الرماد الحار. والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة في صلة الرحم، وفي حقوق الوالدين، وفي تأكيد حق الأم.

### حقوق الأولاد

س: وما هي حقوق الولد على والديه؟

ج: لما كانت الطباع تميل إلى الولد لم يحتج إلى تأكيد الوصية به، إلا أنه قد يغلب هوى الوالد للولد، فيترك تعليمه وتأديبه. وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَرَأ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. قال المفسرون: معناه: علموهم وأدبوهم. وينبغي للوالد أن يحسن اسم ابنه، ويعق عنه، فإذا بلغ سبع سنين أمره بالصلاة وختنه، فإذا بلغ زوجه.

### حقوق المملوك

س: ما هي حقوق المملوك؟

ج: أما حقوق المملوك، فأن يطعمه، ويكسوه ولا يكلفه ما لا يطيق، ولا ينظر إليه بعين الازدراء، وأن يعفو عن زلله، وليتذكر الله عند زلل نفسه، فيعفو رجاء أن يعفو الله تعالى عنه.

## العزلة والخلطة

س: أيهما أفضل العزلة أم الخلطة؟

ج: اختلف الناس في العزلة والمخالطة، أيتهما أفضل؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة. وممن ذهب إلى اختيار العزلة: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفضيل، وبشر الحافي، وآخرين. وممن ذهب إلى استحباب المخالطة سعيد بن المسيب، وشريح، والشعبي، وابن المبارك وآخرين.

س: وما هي حجج القائلين بتفضيل العزلة على الخلطة والعكس؟

ج: لكل طائفة فيما ذهبت إليه حجج، ونحن نشير إلى ذلك. أما حجة الأولين، فقد روي في «الصحاحين» من حديث أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره» [أخرجه البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨)]. وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «املك عليك لسانك، وليسمعك بيتك، وابك على خطيئتك» [أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧٣٢) والترمذي (٢٤٠٦)، وقال: هذا حديث حسن،، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٣٩٢)]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خذوا بحظكم من العزلة». وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «لوددت أن بيني وبين الناس بابًا من حديد، لا يكلمني أحد ولا أكلمه حتى ألقى الله سبحانه».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كونوا ينايع العلم، مصايح الليل، أحلاس البيوت

جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء، وتحفون على أهل الأرض». وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «نعم صومعة المرء المسلم بيته، يكف لسانه وفرجه وبصره، وإياكم ومجالس الأسواق، فإنها تلهي وتلغي».

وقال داود الطائي: «فر من الناس كما تفر من الأسد».

وقال أبو مهلهل: «أخذ بيدي سفيان الثوري وأخرجني إلى الجبانة، فاعتزلنا ناحية، فبكى ثم قال: يا أبا مهلهل، إن استطعت أن لا تحالط في زمانك أحدًا فافعل، وليكن همك مرمة جهازك».

وأما حجة من اختار المخالطة، فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» [صحيح]: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٦٥١). واحتجوا بأشياء غير ذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾. [آل عمران: ١٠٥]، وهذا ضعيف، لأن المراد تفرق الآراء والمذاهب في أصل الشريعة، واحتجوا أيضًا بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد ثلاث» [أخرجه مسلم (٢٥٦٢)]. قالوا: والعزلة هجر بالكلية، وهذا ضعيف لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة.

س: ما هي فوائد العزلة؟

ج: فوائد العزلة: ست، الفائدة الأولى: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإن ذلك يستدعي فراغًا، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصًا في البداية. قيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضي بهم الزهد والخلوة؟ قال: «إلى الأُنس بالله». وقال أويس القرني رضي الله عنه: «ما كنت أرى أن أحدًا يعرف ربه فيأنس بغيره». واعلم: أن من تيسر له بدوام الذكر الأُنس بالله، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالبًا

بالمخالطة، وهي أربعة. أحدها: الغيبة، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكه بها، فإن خالطتهم ووافقهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكاً، فإن المستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك واغتابوك فازدادوا غيبة إلى الغيبة، وربما خرجوا إلى الشتم. الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من خالط الناس لم يخل عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصي الله، وإن أنكرت تعرض لأنواع من الضرر، وفي العزلة سلامة من هذا.

الثالثة: الرياء، وهو الداء العضال الذي يعسر الاحتراز منه، وأول ما في مخالطة الناس إظهار التشوق إليهم، ولا يخلو ذلك عن الكذب، إما في الأصل، وإما في الزيادة، وقد كان السلف يجترزون في جواب قول القائل: كيف أصبحت، وكيف أمسيت؟ كما قال بعضهم وقد قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاء مدنين، نأكل أرزاقنا، ونتنظر آجالنا.

واعلم: أنه إذا كان سؤال السائل لأخيه: كيف أصبحت؟ لا يبعثه عليه شفقة ولا محبة، كان تكلفاً ورياء، وربما سأله وفي القلب ضغن وحقق يورث أن يعلم فساد حاله، وفي العزلة الخلاص عن هذا، لأنه من لقي الخلق ولم يخالفهم بأخلاقهم، مقتوه واستثقلوه واغتابوه، ويذهب دينهم فيه، ويذهب دينه ودينه في الانتقام منهم. الرابعة: مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، وذلك أنه قل أن يجالس الإنسان فاسقاً مدة، مع كونه منكراً عليها في باطنه، إلا ولوقاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقاً في النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيناً على الطبع، ويسقط وقعه واستظامه، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره، احتقر الصغائر من نفسه، كما أن الإنسان إذا لاحظ أحوال السلف في الزهد والتعبد، احتقر نفسه، واستصغر عبادته، فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد، وهذه الدقيقة يعرف سر قول القائل: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء بسبب تكرره ومشاهدته، إن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً قد أفطر في رمضان، استعظمو ذلك، حتى يكاد يفضي إلى اعتقادهم فيه الكفر، وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن أوقاتها، فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم، مع أن ترك صلاة واحدة تخرج إلى الكفر، ولا سبب لذلك إلا أن الصلاة تتكرر، والتساهل فيها يكثر، وكذلك لولبس الفقيه ثوباً من حرير، أو خاتماً من ذهب، لا شدة إنكار الناس لذلك، وقد يشاهدونه يغتاب، فلا يستعظمون ذلك، والغيبة أشد من لبس الحرير، ولكن لكثرة سماعها، ومشاهدة المعتابين، سقط عن القلوب وقعها، فافطن لهذه الدقائق واحذر مجالسة الناس، فإنك لا تكاد ترى منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا، وفي غفلتك عن الآخرة، وتهون عليك المعصية، وتضعف رغبتك في الطاعات، فإن وجدت مجلساً يذكر الله فيه، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين عن الخوض فيها، فإنه قلما تخلو البلاد من العصبية والخصومات، والمعتزل عنهم سليم. وقد روي ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ ذكر الفتن، ووصفها وقال: «إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، فكانوا هكذا» وشبك بين أصابعه، فقلت: ما تأمروني؟ فقال: «الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع أمر العامة» [حسن]: أخرجه أبو داود (٤٣٤٢)، (٤٣٤٣)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، وأحمد (٦٩٤٨)، (٧٠٠٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم [٢٧٤٤].

وقد روي غير ذلك من الأحاديث في معناه.

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بالنميمة، ومرة بسوء الظن، ومرة بالتهمة، ومرة بالإطماع الكاذبة، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو، وغير ذلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من

معارفه، وفي العزلة خلاص من ذلك، كما قال بعضهم:  
عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرون من الصحاب  
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب منتسب

وقال عمر رضي الله عنه: «في العزلة راحة من خلطاء السوء». وقال إبراهيم بن أدهم:  
«لا تتعرف إلى من لا تعرف، وأنكر من تعرف».

وقال رجل لأخيه: «أصحبك إلى الحج؟ فقال: دعنا نعش في ستر الله، فإننا نخاف  
أن يرى بعضنا من بعض ما تتماقت عليه».  
وهذه فائدة أخرى في العزلة، وهي بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر  
العورات.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم.  
أما طمعهم، فإن رضاهم غاية لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم في حضور  
ولائهم وإملاكاتهم، وغير ذلك.

وقد قيل: من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم.  
وأما انقطاع طمعك، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه، وانبعث بقوة  
الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر المطامع فيتأذى.

وفي الحديث: «انظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن  
لا تزدروا نعمة الله عليكم» [أخرجه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣)].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾  
[طه: ١٣١].

الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة أخلاقهم،  
وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء، لم يلبث، أن يغتابهم، فإن آذوه بالقدح فيه كآفهم،  
فانجر الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة من ذلك.

س: وما هي آفات العزلة ومضارها؟

ج: اعلم: أن من المقاصد الدينية والدينية ما يستفاد من الاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة.

ومن فوائد المخالطة: التعلم والتعليم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع، واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال، والاعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة، ولنفصلها: الفائدة الأولى: التعلم والتعليم، وقد ذكرنا فضلها في كتاب العلم، فأما من تعلم الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الخوض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة، فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران. ولهذا قال الربيع بن خيثم: تفقه ثم اعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام.

سئل بعض العلماء: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: «خبال ووبال، فقيل له: فالعالم؟ فقال: مالك ولها، دعها، معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها».

وأما التعليم، ففيه ثواب عظيم إذا صحت النية فيه، ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع، فهو هلاك الدين، وقد سبق ذلك في كتاب العلم، والغالب في هذا الزمان سوء القصد من المعلمين، فيقتضي الدين الاعتزال عنهم، فإن صودف طالب لله ومتقرب بالتعلم إليه، لم يجز الاعتزال عنه، ولا يحل كتمان العلم، ولا ينبغي أن يغتر بقول من قال: تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، فإنه أشار بهذه إلى علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذلك يتضمن التخويف والتحذير، وهو سبب لإثارة الخوف من الله سبحانه، فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل، فأما علم الكلام وعلم الخلاف، فإنه لا يرد الراغب في الدنيا إلى الله تعالى، بل لا يزال صاحبه متماديًا في حرصه إلى آخر عمره.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع، أما الانتفاع بالناس، فبالكسب والمعاملة، والاحتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة، وأما إن كان معه ما يقنعه، فالعزلة أفضل، إلا أن يقصد التصديق بكسبه، فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالى والأنس به، عن كشف وبصيرة، لا عن أوهام وخيالات فاسدة. وأما النفع: فهو أن ينفع الناس، إما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومن قدر على ذلك مع القيام بحدود الشرع، فهو أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلة إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر، فذاك الذي لا يعدل به البتة.

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب، ونعني به الارتياض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمل أذاهم، وكسر النفس، وقهر الشهوة، وذلك أفضل من العزلة في حق من لم تنهذب أخلاقه.

وينبغي أن يفهم أن الرياضة لا تراد لنفسها كما لا يراد ذلك من رياضة الدابة، بل المراد منها أن تتخذ مركبًا تقطع عليه المراحل، والبدن مطية يسلك بها طريق الآخرة، وفيها شهوات إن لم تكسر جمحت براكبها في الطريق، فمن اشتغل طول عمره بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمره بالرياضة الدابة ولم يركبها، ولا يستفيد إلا الخلاص من عضها ورفسها، وهي لعمرى فائدة، ولكن ليست معظم المقصود، قيل لراهبك يا راهب، فقال: لست براهب، إنما أنا كلب عقور، حبست نفسي حتى لا أعقر الناس، وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر، لكن لا ينبغي أن يقتصر عليه. وأما التأديب: فهو أن يؤدب غيره، ويتطرق إليه من دقائق الآفات ما يتطرق إلى نشر العلم على ما ذكر.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس، وقد يكون مستحبًا كالأستئناس بأهل التقوى وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة، فينبغي أن يكون الاستئناس في بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في

أمور الدين .

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته .

أما الأول: فبحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وحضور الإملاكات، والدعوات، ففيها ثواب من جهة إدخال السرور على المؤمن .

وأما الثاني: فهو أن يفتح بابه للناس ليعزوه أو يهتوه أو يعودوه، فإنهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إن كان من العلماء فأذن لهم في زيارته .

ولكن ينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بأفاتها، فيرجح العزلة أو المخالطة، وقد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة عليها .

الفائدة السادسة: التواضع، ولا يقدر على ذلك في الوحدة، فقد يكون الكبر سبباً في اختياره العزلة، ويمتنع في المحافل التقصير في إكرامه وتقديمه، وربما ترفع عن مخالطتهم لارتفاع محله عند نفسه، أو نحو ذلك .

وعلاوة من هذه صفته أن يجب أن يزار ولا يجب أن يزور، ويفرح بتقرب السلاطين والعوام إليه واجتماعهم على بابه، وتقبيل يده، فالعزلة بهذا السبب جهل، لأن التواضع لا يغض من منصب الكبير .

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالترفضيل نفيًا وإثباتًا خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وعلى الباعث على مخالطته، وإلى الفئات بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفئات بالخاص، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل .

فقد قال الشافعي رحمته الله: «الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة للسوء، فكن بين القبض والبط»، ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار عن حاله، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال. فإن قيل: فما آداب العزلة؟

س: وما هي آداب العزلة؟

ج: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبدًا، فهذه آداب بيئة.

ثم ليكن في خلواته مواظبًا على العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثرُوا غشيانه وزيارته ليصفو وقته، وليكف عن السؤال عن أخبارهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة، فوقع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس. وليكن صبورًا على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغى إلى الشاء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة. وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عن كد المواظبة، ففي ذلك عون على بقية الساعات، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر أمله، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسي، وإذا أمسى لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال الله تعالى في حق الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

## آداب السفر

س: ما تعريف السفر وما أنواعه؟

ج: السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه، أو الوصول إلى مرغوب إليه. والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن الوطن، وسفر بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السماوات، وهذا أشرف السفرين، فإن الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء، لازم درجة القصور، قانع برتبة النقض، ومستبدل بمتسع عرضه السماوات والأرض السجن وضيق الحبس.

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنعص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه في خطر خطير، اندرست مسالكه.

س: ما هي أقسام سفر البدن، وما آفاته وفوائده؟

ج: سفر البدن: أقسام، وله فوائد وآفات عظيمة، فإنه يضاهي النظر في العزلة والمخالطة، وقد ذكرنا منهاج ذلك.

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو من هرب أو طلب، فالهرب إما من أمر له نكاية في الأمور الدنيوية، كالطاعون إذا ظهر ببلد، أو كخوف فتنة وخصومة، أو غلاء سعر. وإما أمر له نكاية في الدين، كمن ابتلي في بلده بجاه أو مال أو اتساع أسباب، فصدّه عن التجرد لله تعالى، فيؤثر الغربة والخمول ويجتنب السعة والجاه، وكمن يدعى إلى بدعة أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته، فيطلب الفرار منه.

وأما المطلوب، فهو إما دنيوي كالمال والجاه، أو ديني كالعلم بأمور دينه، أو بأخلاقه في نفسه، أو بآيات الله في أرضه، وقل مذكور بالعلم محصل من زمان

الصحابة رضي الله عنهم إلى زماننا إلا وحصل العلم بالسفر وسافر لأجله .  
وأما علمه بنفسه وأخلاقه، فذلك أيضًا مهم، فإن سلوك الآخرة لا يمكن إلا  
بتحسين الخلق وتهذيبه، وإنما سمي السفر سفرًا، لأنه يسفر عن الأخلاق .  
وفي الجملة فالنفس في الوطن لا تظهر خباثت أخلاقهم لاستئناسها بما يوافق  
طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر، وصرفت عن مألوفاتها  
المعتادة، وامتنحت بمشاق الغربية، وانكشفت غوائلها، ووقع الوقوف على عيوبها .  
وأما آيات الله في أرضه، ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر : ففيها قطع متجاورات،  
وفيها الجبال والبراري والقفار والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء إلا  
وهو شاهد لله بالوحدانية، ومسبح بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو  
شاهد .

وإنما نعني بالسمع : سمع الباطن، فبه يدرك نطق لسان الحال، وما من ذرة في  
السموات والأرض إلا ولها أنواع شهادات لله سبحانه بالوحدانية .  
وقد ذكرنا أن من فوائد السفر الهرب من الولاية والجاه وكثرة العلائق، لأن  
الدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله، ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن  
مهمات الدنيا والحاجات الضرورية، ولكن يتصور تخفيفها وتقليلها، وقد نجا  
الخفقون وهلك المثقلون، والخف الذي ليست الدنيا أكبر همه .

س : وماذا عن السفر المباح؟

ج : من أقسام السفر أن يكون مباحًا، كسفر التفرج والتنزه، فأما السياحة في  
الأرض لا لمقصود، ولا إلى مكان معروف، فإنه منهي عنه .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : «ما السياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين  
ولا الصالحين، ولأن السفر يشتم القلب»، فلا ينبغي لطالب العلم أن يسافر إلا في  
طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به في سيرته .

س: وما آداب السفر؟

ج: للسفر آداب معروفة مذكورة في مناسك الحج وغيرها، من ذلك أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، ورد الودائع. ومنها: أن يختار رفيقًا صالحًا، ويودع الأهل والأصدقاء. ومنها: أن يصلي صلاة الاستخارة، وأن يكون سفره يوم الخميس بكرة. ومنها: أن لا يمشي منفردًا، وأن يكون أكثر سيره بالليل، ولا يهمل الأذكار والأدعية، إذا وصل منزلًا أو علا نشرًا أو هبط واديًا. ومنها: أن يستصحب معه ما فيه مصلحتهن كالسواك، والمشط، والمرآة، والمكحلة، ونحو ذلك.

س: ما هي الأمور التي لا بد للمسافر منها في سفره؟

ج: ينبغي للمسافر أن يتزود للدنيا والآخرة، أما زاد الدنيا، فالمطعم والمشرب وما يحتاج إليه. ولا ينبغي أن يقول: أخرج متوكلًا فلا أحمل زادًا، فهذا جهل، فإن حمل الزاد لا يناقض التوكل.

وأما زاد الآخرة، فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصلاته وعبادته، وتعلم رخص السفر، كالقصر والجمع والفطر، ومدة مسح السفر على الخفين والتميم، والتنفل للماشي، وكل ذلك مذكور في كتب الفقه بشروطه. ولا بد للمسافر من معرفة ما يتجدد السفر، وهو علم القبلة والأوقات، فإن ذلك في السفر أكد من الحضر.

ويستدل على القبلة بالنجوم والشمس والقمر والرياح والمياه والجبال والمجرة على ما هو مبين في موضعه، ويعتبر الجبال بأن وجودها جميعها مستقبلة البيت. وأما المجرة، فتكون أول الليل ممتدة على كتف المصلي اليسري إلى القبلة، ثم يلتوي

رأسها حتى تصير في آخر الليل على كتفه اليمنى، وتسمى المجرة: سرج السماء. وأما معرفة أوقات الصلوات، فلا بد منها، ووقت الظهر يدخل بزوال الشمس، فليُنصب المسافر عودًا مستقيمًا، وليعلم علامات على رأس الظل، ولينظر، فإن رآه في النقصان علم أنه لم يدخل وقت الظهر، فإذا أخذ في الزيادة علم أنه قد زالت الشمس ودخل الوقت، وهو أول وقت الظهر، وآخره إذا صار ظل كل شيء مثله، ثم يدخل أول وقت العصر، وآخره إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه. وعن الإمام أحمد: أن آخره ما لم تصفر الشمس، ثم يذهب وقت الاختيار، ويبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس، وباقى الأوقات معروفة.

### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

س: اذكر طرفًا من أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي بعث الله به النبيين، ولو طوي بساطه، لاضمحلت الديانة، وظهر الفساد، وخربت البلاد.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث عليه؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عين، لأنه قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾، ولم يقل: كونوا كلكم أمرين بالمعروف، فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقيين، واختص الفلاح بالقائمين المباشرين له. وفي القرآن العظيم آيات كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مثل القائم على

حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً» [أخرجه البخاري وأحمد في مسنده، وهذا لفظ أحمد].

س: ما هي مراتب إنكار المنكر؟

ج: جاء في الحديث المشهور من رواية مسلم، أن النبي ﷺ قال: «من رأى منك منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [أخرجه مسلم (٤٩)].

وفي حديث آخر: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» [أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، وأحمد في مسنده (١٠٧٥٩) وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١١٠٠)].

وقام أبو بكر ﷺ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وأنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب» [أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وأحمد في مسنده (١)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥١٤٢)].

س: ما هي أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج: اعلم: أن أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة:

أحدها: أن يكون المنكر مكلفاً مسلماً قادراً، وهذا شرط لوجوب الإنكار. فإن الصبي المميز له إنكار المنكر، ويثاب على ذلك، لكن لا يجب عليه. وأما عدالة

المنكر، فاعتبرها قوم وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب، وإنما استدلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وليس لهم في ذلك حجة.

واشترط قوم كون المنكر مأذوناً فيه من جهة الإمام أو الوالي، ولم يجيزوا لآحاد الرعية الحسبة، وهذا فاسد، لأن الآيات والأخبار عامة تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عنه عصي، فالتخصيص بإذن الإمام تحكم.

ومن العجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم، وهؤلاء أحسن رتبة من أن يتكلموا، لكن جوابهم أن يقال لهم إذا جاؤوا إلى القاضي طالبين حقوقهم: نصرتكم أمر بالمعروف، واستخراج حقوقكم من يد من ظلمكم نهي عن المنكر، ولم يجيء زمان ذلك لأن الإمام لم يخرج بعد. فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم، مع كونه حقاً، فينبغي أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من السلطان.

قلنا: أما الكافر فممنوع من ذلك لما فيه من السلطان والعز، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة.

الركن الثاني: أن يكون ما فيه الحسبة منكراً موجوداً في الحال ظاهراً، فمعنى كونه منكراً أن يكون محذور الوقوع في الشرع، والمنكر أعم من المعصية، إذ من رأى صبيّاً أو مجنوناً يشرب الخمر، فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذلك لو رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه.

وقولنا: موجوداً في الحال، احتراز ممن شرب الخمر وفرغ من شربها، ونحو ذلك، فإن ذلك ليس إلى الآحاد، وفيه أيضاً احتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يعلم بقريئة حاله أنه عازم على الشرب الليلة، فلا حسبة عليه إلا بالوعظ.

وقولنا: ظاهراً، احتراز ممن تستر بالمعصية في داره وأغلق بابه، فإنه لا يجوز أن يتجسس عليه، إلا أن يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير

والعيذان، فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهي، فإن فاحت رائحة الخمر، فالأظهر جواز الإنكار.

ويشترط في إنكار المنكر أن يكون معلومًا كونه منكراً بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد، فلا حسبة فيه، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله متروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه يسير النبيذ الذي ليس بمسكر.

الركن الثالث: في المنكر عليه، ويكفي في صفته أن يكون إنساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً كما بينا قبله من أنه ينكر على الصبي والمجنون.

الركن الرابع: نفس الاحتساب، وله درجات وآداب.

س: ما هي مراتب الحسبة؟

ج: الأولى: التعريف

الثانية: الوعظ بالكلام اللطيف.

الثالثة: السب والتعنيف، ولسنا نعني بالسب الفاحشة، بل نقول له: يا جاهل يا أحمق، ألا تخاف من الله تعالى! ونحو ذلك.

والرابعة: المنع بالقهر، ككسر الملاهي وإراقة الخمر.

والخامسة: التخويف والتهديد بالضرب، أو مباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها، لأنه ربما جر إلى فتنة.

واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاية قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض.

س: هل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على

الزوج، والرعية على الوالي؟

ج: قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب:

فللوالد من ذلك الحسبة بالتعريف، ثم بالوعظ والنصح باللطف.

وله من الرتبة الخامسة: أن يكسر العود، وبريق الخمر، ونحو ذلك، وهذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة.  
وأما الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الولد، فليس معه إلا التعريف والنصح.

ويشترط كون المنكر قادرًا على الإنكار، فأما العاجز، فليس عليه إنكار إلا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله، فذلك في معنى العجز.

س: ماذا لو علم المنكر أن إنكاره لا ينفع؟

ج: إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فينقسم إلى أربعة أحوال:  
أحدها: أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أو فعله من غير مكروه يلحقه، فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثانية: أن يعلم أن كلامه لا ينفع وأنه إن تكلم ضرب، فيرتفع الوجوب عنه.

الحالة الثالثة: أن يعلم أن إنكاره لا يفيد، لكنه لا يخاف مكروهًا، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين.

الحالة الرابعة: أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، مثل أن يكسر العود، وبريق الخمر، ويعلم أنه يضرب عقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مستحبًا لقوله في الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفوف الكفار ويقاتل، وإن علم أنه يقتل، لكن إن علم أنه لا نكاية له في الكفار، كالأعمى يطرح نفسه على الصفن حرم ذلك وكذلك لو رأى فاسقًا وحده وعنده قدح خمر ويده سيف، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه، لم يجز له الإقدام على ذلك، لأن هذا لا يؤثر في الدين أثرًا يفديه بنفسه، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر،

وظهر لفعله فائدة، كمن يحمل في صف الكفار ونحوه.

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه، لم تجز له الحسبة، لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء. ولسنا نعني بالعلم في هذه المواضع إلا غلبة الظن، فمن غلب على ظنه أنه يصيبه مكروه، لم يجب عليه الإنكار، وإن غلب على ظنه أنه لا يصيبه وجب، ولا اعتبار بحالة الجبان، ولا بالشجاع المتهور، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع، السليم المزاج. ونعني بالمكروه: الضرب أو القتل، وكذلك نهب المال، والإشهار في البلد مع تسويد الوجه، فأما السب والشتيم، فليس بعذر في السكوت، لأن الأمر بالمعروف يلقي ذلك في الغالب.

س: ما هي درجات الاحتساب وما آدابه؟

ج: الدرجة الأولى: أن يعرف المنكر، فلا ينبغي له أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا يتعرض للشتم ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجري، بل لو أخبره عدلان ابتداءً أن فلاناً يشرب الخمر، فله إذ ذاك أن يدخل وينكر.

الدرجة الثانية: التعريف، فإن الجاهل يقدم على الشيء لا يظنه منكراً، فإذا عرف أقلع عنه، فيجب تعريفه باللطف، فيقال له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين بأمر الشرع حتى علمنا العلماء، فلعل قرينك خالية من أهل العلم.

فهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء.

ومن اجتنب محذور السكوت عن المنكر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد، ويحكي له سيرة السلف، ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، وهاهنا آفة عظيمة أن يتوقاها، وهو أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم، وذلك غيره بالجهل.

ومثال ذلك مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل، ومذلة عظيمة، وغرور من الشيطان، ولذلك محك ومعيار، فينبغي أن يمتحن به المحتسب نفسه، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه، أو باحتساب غيره عليه، أحب إليه من امتناعه عنه باحتسابه، فإن كانت الحسبة شاقة عليه، ثقيلة على نفسه، وهو يود أن يكفي بغيره، فليحتسب، فإن باعته هو الدين، وإن كان الأمر بالعكس، فهو متبع هوى نفسه، متوسل إلى إظهار جاهه بواسطة إنكاره، فليتق الله وليحتسب أولاً على نفسه.

وقيل لداود الطائي: رأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخاف عليه السوط. قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه السيف، قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه الداء الدفين: العجب.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وإنما يعدل إلى هذا عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار، والاستهزاء بالوعظ والنصح، ولسنا نعني بالسب: الفحش والكذب، بل نقول له: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تحاف الله، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفِ لَكَؤُومًا وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الانباء: ٦٧].

الدرجة الخامسة: التغيير باليد، ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، وإخراجه من الدار المغصوبة، وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه الخروج عن الأرض المغصوبة، فلا يبغي أن يجره ولا يدفعه.

والثاني: أن يكسر الملاهي كسرًا يبطل صلاحيتها للفساد، ولا يزيد على ذلك، ويتوق في إراقة الخمر كسر الأواني إن وجد إليه سبيلاً، وإن لم يقدر إلا بأن يرمي ظروفها بجمر أو نحوه، فله ذلك، وتسقط قيمة الظروف، ولو ستر الخمر بيديه، فإنه يقصد بيده بالضرب ليتوصل إراقة الخمر، ولو كانت الخمر في قوارير ضيقة الرؤوس، بحيث أن إذا اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق فضعوه، فله

كسرهما، لأن عذر، وكذلك إن كان يضيع الزمان في صبتها، وتتعطل أشغاله، فله كسرهما ولولم يحذر من الفساق.

فإن قيل: فهلا يجوز الكسر زجرًا، وكذلك الجر بالرجل في الإخراج من الدار المغصوبة زجرًا؟

قلنا: إنما يجوز مثل ذلك للولاة، ولا يجوز لأحد الرعية، لخفاء وجه الاجتهاد فيه.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف كقوله: دع عنك هذا وإلا فعلت بك كذا وكذا، وينبغي أن يقدم هذا على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه.

والأدب في هذه الرتبة أن لا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه، كقوله: لأنهن دارك، ولأسبين زوجتك، لأنه إن قال ذلك عن عزم، فهو حرام، وإن قاله عن غير عزم، فهو كذب.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح، وذلك جائز للأحد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف.

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر على الإنكار بنفسه ويحتاج إلى أعوان يشهرون السلاح، فإنه ربما يستمد الفاسق أيضًا بأعوانه ويؤدي إلى القتال، فالصحيح أن ذلك يحتاج إلى إذن الإمام، لأنه إلى الفتن وهيجان الفساد.

وقيل: لا يشترط في ذلك إذن الإمام.

س: ما هي صفات المحتسب؟

ج: صفات المحتسب. الأولى: العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها، ليقتصر على حد الشرع. والثانية: الورع، فإنه قد يعلم شيئًا ولا يعمل به لغرض من الأغراض.

والثالثة: حسن الخلق، وهو أصل لىتمكن من الكف، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع فى قمعه ما لم يكن فى الطبع خلق حسن.

قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فىما يأمر به، رفيق فىما ينهى عنه، حلیم فىما يأمر به، حلیم فىما ينهى عنه، فقيه يأمر به، فقيه فىما ينهى عنه. ومن الآداب: تقليل العلائق، وقطع عن الخلق لتزول المداهنة، فقد حكى عن بعض السلف أنه كان له سنور، وكان يأخذ لسنوره فى كل يوم من قصاب فى جواره شيئاً من الغدد، فرأى على القصاب منكراً، فدخل الدار فأخرج السنور، ثم جاءه فأنكر على القصاب، فقال: لا أعطيك بعد هذا شيئاً لسنورك، فقال: ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك، وهذا صحيح، فإن لم يقطع الطمع من الناس من شىئين لم يقدر الإنكار عليهم. أحدهما: من لطف ینالونه به.

والثانى: من رضاهم عنه وثنائهم علیه.

وأما الرفق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فمتعين، قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾ [طه: ٤٤].

وروى أن أبا الدرداء رضي الله عنه مر على رجل قد أصاب ذنباً والناس يسبونونه، فقال: «أرأيتم لو وجدتموه فى قلب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذى عافاكم. فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخى».

ومر فتى يجر ثوبه، فهم أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألستهم أخذاً شديداً، فقال صلة: دعونى أكفكم أمره، ثم قال: يا ابن أخى، إن لى إليك حاجة، قال ما هى؟ قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمى عين، فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وأذيتتموه لشتمكم. ودعى الحسن إلى عرس: «فجىء بجام من فضة فىه خبيص، فتناوله وقلبه على

رغيف، فأصاب منه، فقال رجل: هذا نهي في سكون».

س: اذكر بعض المنكرات التي ألفها الناس ليحذر منها؟

ج: من ذلك: منكرات المساجد: مما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وكذلك كل ما يقدح في صحة الصلاة، من نجاسة على ثوب المصلي لا يراها، أو انحراف عن القبلة بسبب عمي أو ظلام. ومن ذلك اللحن في القراءة.

واشتغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل له من نافلة يقتصر عليها. ومن ذلك: تراسيل المؤذنين وتطويلهم مد كلماته.

ومن ذلك: أن يكون على الخطيب ثوب حرير، أو بيده سيف مذهب.

ومن ذلك: ما يجري من القصاص في المساجد من الكذب، والأشياء المنهي عنها، كالحوض في الكلام الموجب للفتن، ونحو ذلك.

ومن ذلك أن يكون الرجال مختلطين بالنساء، فينبغي إنكار ذلك عليهم.

ومنها: الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة، والتعويذات، وقيام السؤال، وإنشادهم الأشعار، ونحو هذا. فهذه منها ما هو حرام، ومنها ما هو مكروه.

منكرات الأسواق: ومن ذلك: الكذب في المراجعة، وإخفاء العيب، فمن قال: اشترت هذه السلعة بعشرة، ورابح فيها درهماً، وكان كاذباً، فهو فاسق. ويجب على من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة للبائع، كان شريكاً له في الخيانة، وكذلك إذا علم العيب، لزمه أن يبينه للمشتري، وكذلك التفاوت في الميزان والذراع، يجب على كل من عرفه تغييره، إما بنفسه، أو يرفعه إلى الوالي حتى يغيره. ومنها: الشروط الفاسدة، واستعمال الربا، وبيع الملاهي، والصور المجسمة، ونحو ذلك.

منكرات الشوارع: من ذلك بناء دكان متصلة بالأبنية المملوكة، وإخراج

الأجنحة، وغرس الأشجار إذا كان ذلك يؤدي إلى تضيق الطريق والإضرار بالمارة. فأما وضع الحطب والطعام في الطريق بمقدار ما ينقل إلى البيوت فجائز، فإن ذلك يشترك الكافة في الحاجة إليه.

ومن المنكرات: ربط الدواب على الطريق بحيث تضيق وتؤذي الناس، فيجب المنع من ذلك، إلا إذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب.

ومن ذلك: تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيق، وكذلك طرح الكناسه على جواد الطريق، وتبديد قشور البطيخ، وأورش الماء بحيث يخشى منه الزلق، والماء الذي يجتمع من ميزان معين. فأما ان كان من المطر، فذلك على الولاة، وليس للأحاد في ذلك إلا الوعظ.

منكرات الحمامات: من ذلك: صور الحيوانات على باب الحمام أوداخله، ويكفي في زوال ذلك أن تشوه وجوه الصور، بحيث يبطل به تصويرها. ومن لم يقدر على الإنكار، لم يجز له الدخول إلا للضرورة، وليعدل إلى حمام آخر. ومن ذلك: كشف العورات، والنظر إليها، وكشف المدلك عن الفخذ، وما تحت السرة، لتنحية الوسخ أو مس العورة.

ومنها: غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة، فإن فعل ذلك مالكي، لم ينكر عليه، بل يتلطف به، ويقول له: يمكنك أن لا تؤذيني بتفويت الطهارة علي. منكرات الضيافة: من ذلك: فرش الحرير للرجال، والبخور في مجمرة فضة أو ذهب، والشرب فيهما، واستعمال ماء الورد منهما، وكذلك تعليق الستور وفيها الصور، وسماع القينات والأوتار، وإطلاع النساء على الشباب الذين تخاف فتنتهم، فكل ذلك منكر يجب تغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج.

وأما الصور على النمارق والبسط، فليس بمنكر، وكذلك الفرش الحرير، والذهب للنساء، فإنه جائز، ولا رخصة في تثقيب آذان الصبية لأجل تعليق حلق الذهب، فإن ذلك جرح مؤلم لا يجوز، وفي المخانق والأسورة كفاية عن ذلك، والاستئجار على ذلك غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام.

ومن ذلك أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته، فلا يجوز الحضور معه إلا لمن يقدر على الرد عليه، وإن لم يتكلم المبتدع جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه، وإن كان هناك مضحك بالفحش والكذب، لم يجز الحضور، ويجب الإنكار، فإن كان مزحاً لا كذب فيه ولا فحش، أبيع ما لم يقل من ذلك، فأما اتخاذه صناعة وعادة فيمنع منه.

المنكرات العامة: من تيقن أن في السوق منكرًا يجري على الدوام، أو في وقت معين وهو قادر على تغييره، لم يجز له أن يسقط ذلك عنه بالعود في بيته، بل يلزمه الخروج، فإن قدر على تغيير البعض لزمه.

وحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يُعلِّمُ ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى إلى جيرانه وأهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى السواد كذلك إلى أقصى العالم، فإن قام بذلك الأقرب، سقط عن الأبعد، وإلا خرج به كل قادر عليه.

س: وماذا عن أمر الأمراء والسلاطين المعروف ونهيبهم عن المنكر؟

ج: ذكرنا درجات الأمر بالمعروف، والجائز من ذلك مع السلاطين القسمان الأولان وهما: التعريف والوعظ، فأما تحشين القول، نحو: يا ظالم، يا من لا يخاف الله، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير، لم يجز، وإن لم يخف إلا على نفسه، فهو جائز عند جمهور العلماء، والذي أراه المنع من ذلك، لأن المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكبر من المنكر الذي قصد إزالته، وذلك أن قرب السلاطين التعظيم، فإن سمعوا من آحاد الرعية: يا ظالم، يا فاسق، رأوا غاية الذل، لم يصبروا على ذلك.

قال الإمام أحمد رحمته الله: «لا تتعرضن بالسلطان، فإن سيفه مسلول، فأما ما جرى من السلف من التعرض لأمرائهم، فإنهم كانوا يهابون العلماء، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب».

س: اذكر بعض مواضع السلف للخلفاء والأمراء؟

ج: دخل شيخ من الأزهد على معاوية، فقال: «اتق الله يا معاوية، واعلم أنك كل يوم يخرج عنك، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بُعْدًا، ومن الآخرة إلا قُرْبًا، وعلى إثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن يلحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذي نحن صائرون إليه باق، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر».

ودخل سليمان بن عبد الملك المدينة، فأقام بها ثلاثًا، فقال: «ما ها هنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ يحدثنا؟ فقيل له: ها هنا رجل يقال: أبو حازم، فبعث إليه، فجاء. فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ فقال له أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني؟ فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتيني؟! فقال: ما جرى بيني وبينك معرفة آتية عليها. قال: صدق الشيخ، يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحًا مسرورًا، وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه خائفًا محزونًا.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله. قال: يا أبا حازم، وأني أصيب تلك المعرفة من كتاب الله؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار ١٣-١٤].

قال: يا أبا حازم، فأين كَلِمَةُ؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس. قال: فمن أحمق الناس؟ قال: من حط نفسه في هوى رجل وهو ظالم، فباع آخرته بدنياه غيره. قال: يا أبا حازم، فما أسمع الدعاء؟ قال: دعاء المحبتين. قال: فما أركى الصدقة؟ قال: جهد المقل.

قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفني من هذا. قال سليمان: نصحية تلقيها. قال أبو حازم: إن ناسًا أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائهم: بش ما قلت يا شيخ، فقال أبو حازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليعينه للناس ولا يكتمونونه. قال سليمان: يا أبا حازم، أصبحنا تصيب منا ونصيب منك. قال: أعوذ بالله من ذلك. قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئًا قليلًا، فيذيقني ضعف الحياة، وضعف الممات. قال: فأشر علي. قال: اتق الله أن يراك حيث هناك، أو يفقدك حيث أمرك.

قال: يا أبا حازم، ادع لنا بخير. فقال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير، وإن كان غير ذلك، فخذ إلى الخير بناصيته. فقال: يا غلام، هات مائة دينار، ثم قال: خذ هذا يا أبا حازم. قال: لا حاجة لي به، لي ولغيري في هذا المال أسوة، فإن واسيت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي. فكان سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط، فقال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيتني. قال الزهري: أتشتمني؟ قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أن للجار على الجار حقًا؟ قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها منهم، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم، وأتوا به الأمراء، واجتمع القوم على المعصية، فسقطوا وانتكسوا، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم، لم تزل الأمراء تهابهم. قال الزهري: كأنك إياي تريد وبني تعرض؟ قال: هو ما تسمع.

وحكي أن أعرابيًا دخل على سليمان بن عبد الملك، فقال: «يا أمير المؤمنين، إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته، فإن وراءه ما تحب قبلته. قال: قل، قال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفتك رجال ابتاعوك دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم،

خافوك في الله ولم يخافوه فيك، خربوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حرب للآخرة، سلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً والأمة خسفاً، وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا بمسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبنًا بائع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان: أما أنت فقد سلك لسانك، وهو أقطع من سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك. قال: فهل من حاجة في ذات نفسك؟ قال: أما خاصة دون عامة فلا، ثم قام فخرج. فقال سليمان: لله دره ما أشرف أصله، وأجمع قلبه، وأذرب لسانه، وأصدق نيته، وأورع نفسه، هكذا فليكن الشرف والعقل».

وقيل: وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لأبي حازم: «عظني. فقال: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن».

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: «يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبوهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا منها جنة، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نغبطهم بها فتخلفهم فيها، وإلى الأعمال التي نتخوف عليهم فيها فنكف عنها، فاتق الله، وافتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم. ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ﷻ: إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرج غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له».

ودخل عطاء بن أبي رباح على هشام، فرحب به وقال: «ما حاجتك يا أبا محمد؟ وكان عنده أشرف الناس يتحدثون، فسكتوا، فذكره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وعطيائهم. فقال: نعم، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم، ثم

قال: يا أبا محمد هل من حجة غيرها؟ فقال: نعم: فذكره بأهل الحجاز، وأهل نجد، وأهل الثغور، ففعل مثل ذلك، حتى ذكَّره بأهل الذمة أن لا يكلفوا ما لا يطيقون، فأجابه إلى ذلك، ثم قال له في آخر ذلك: هل من حاجة غيرها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله في نفسك، فإنك خلقت وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك ممن ترى أحد. قال: فأكب هشام يبكي، وقام عطاء، فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندرني ما فيه، أدراهم أم دنانير؟ وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهذا، فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها».

وعن محمد بن علي قال: «إني لحاضر مجلس المنصور، وفيه ابن أبي ذئب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، فأق الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر المنصور شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي ذئب. قال: فسأله عنهم، فقال: أشهد أنهم أهل الحطم في أعراض الناس. فقال أبو جعفر: قد سمعتم؟ فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، فسله عن الحسن بن زيد. فسأله، فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق. فقال: قد سمعت يا حسن. قال: يا أمير المؤمنين، سله عن نفسك. فقال: ما تقول في؟ قال: أو يعفني أمير المؤمنين؟ فقال والله لتخبرني. فقال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه، وجعلته في غير أهله. فوضع يده في قفا ابن أبي ذئب، وجعل يقول له: أما والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. فقال ابن أبي ذئب: قد ولي أبوبكر وعمر فأخذوا بالحق وقسما بالسوية، وأخذوا بأقفاء فارس والروم، فخلاه أبو جعفر، وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك، فقال: والله يا أمير المؤمنين إني أنصح لك من ابنك المهدي».

وعن الأوزاعي رضي الله عنه قال: بعث إلى المنصور وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت

إليه وسلمت عليه استجلسني، ثم قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعي؟ قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقْتباس منكم.

قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تعمل به، فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: «أبما وال مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة» [أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (١٤٢)].

وقد قال عمر بن الخطاب: «لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل، لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر تمام كلامه للمنصور، ثم قال: فهي نصيحة، والسلام عليك». ولما حج الرشيد قيل له: يا أمير المؤمنين، قد حج شيبان. قال: اطلبوه لي، فأتوه به، فقال: يا شيبان، عظني، قال: يا أمير المؤمنين، أنا رجل أكن، لا أفصح بالعربية، فجئني بمن يفهم كلامي حتى أكلمه. فأتى برجل يفهم كلامه، فقال له بالنبطية: قل له: يا أمير المؤمنين، إن الذي يخوفك قبل أن تبلغ المأمّن، أنصح لك من الذي يؤمنك قبل أن تبلغ الخوف، قال له: أي شيء تفسير هذا؟ قال: قل له: الذي يقول لك: اتق الله فإنك رجل مسؤول عن هذه الأمة، استرعاك الله عليها، وقلدك أمورها، وأنت مسؤول عنها، فاعدل في الرعية، واقسم بالسوية، وانفذ في السرية، واتق الله في نفسك، هذا الذي يخوفك، فإذا بلغت المأمّن أمنت، هذا أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم وفي شفاعته، فلا يزال يؤمنك حتى إذا بلغت الخوف عطبت، قال: فبكي هارون حتى رحمه من حوله، ثم قال: زدني، قال: حسبك».

وعن علقمة بن أبي مرثد، قال: لما قدم عمر بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي، فأمر لهما بيت، فكانا فيها نحوًا من شهر، ثم دخل عليهما وجلس

معظمًا لهما، فقال: «إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي كتبًا، أعرف أن في إنفاذها الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فهل تريان في متابعتي إياه فرجًا؟ فقال الحسن: يا أبا عمرو، أجب الأمير. فتكلم الشعبي، فانحط في أمر ابن هبيرة، كأنه عذره، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أيها الأمير، فقد قال الشعبي ما قد سمعت. فقال: ما تقول أنت؟ قال: أقول: يا عمر بن هبيرة، ويوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك.

يا عمر بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولن يعصمك يزيد ابن عبد الملك من الله تعالى.

يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك.

يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة، كانوا عن الدنيا وهي مقبلة عليهم أشد إدارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة عنكم.

يا عمر بن هبيرة، اني أخوفك مقامًا خَوْفَكَ اللهُ تعالى فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِي﴾ [إبراهيم: ١٤].

يا عمر بن هبيرة، إن تك مع الله في طاعته، كفاك يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله، وَكَلَّكَ اللهُ إِلَيْهِ. فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته.

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وأكثر فيها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس، من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه، فليفعل، فالذي نفسي بيده، ما علم الحسن شيئًا منه فجهلته، ولكني أردت وجه ابن هبيرة، فأقصاني الله منه». ودخل محمد بن واسع رضي الله عنه على بلال بن أبي بردة في يوم حار وبلال في حبشة،

وعنده الثلج، فقال له: «يا أبا عبد الله، كيف ترى بيننا هذا؟ قال: إن بينك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكر النار يلي عنه. قال: ما تقول في القدر؟ قال: جيرانك أهل القبور، ففكر فيهم، فإن فيهم شغلاً عن القدر. قال: ادع الله لي. قال: وما نصنع بدعائي؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون: إنك ظلمتهم، يرفع دعاؤهم قبل دعائي، لا تظلم، ولا تحتاج لدعائي».

وهذه كانت سير العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين إيثاراً لإقامة حق الله تعالى على تقاهم، إلا أن السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله فيصبرون على مريض على مواعظ هؤلاء. والذي أراه الآن، الهرب من السلاطين، فهو الأولى، فإن قدر لقاء، اقتنع بلطف الموعدة وحسب.

ولذلك سبيان:

أحدهما: يتعلق بالمواعظ، وهو سوء قصده وميله إلى الدنيا والرياء، فلا يخلص له وعظه.

والثاني: يتعلق بالموعوظ، فإن حب الدنيا قد شغل الأكثرين عن ذكر الآخرة، وتعظيمهم الدنيا أنساهم تعظيم العلماء، وليس لمؤمن أن يذل نفسه.

### حكم السماع

س: ما المقصود بالسماع وما حكمه؟

ج: السماع الذي نعني به الغناء من أكبر ما تطرق به إبليس إلى فساد القلوب، وغر به خلقاً لا يحصون من العلماء والزهاد، فضلاً عن العوام، حتى ادعوا حضور القلب مع الله عند سماع الأغاني المطربة، وظنوا أن ما أوجبه السماع من طرب القلوب وانزعاجها، وجده يتعلق بالآخرة.

وإذا أردت أن تعرف الحق، فانظر في القرن الأول، هل فعل رسول الله ﷺ شيئاً

من ذلك أو أصحابه، ثم انظر إلى أقوال التابعين وتابعيم، وفقهاء الأمة، كمالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد رحمهم الله، فكل القوم ذموا الغناء، حتى قال مالك: «إذا شترى جارية، فوجدتها مغنية، كان له ردها، وسئل عن الغناء، قال: إنما يفعله الفساق».

وسئل الإمام أحمد عن رجل مات وخلف ولدًا وجارية مغنية، فاحتاج الصبي إلى بيعها، فقال: «تباع على أنها ساذجة لا مغنية، فقليل له: إنها تساوي ثلاثين ألفًا إذا كانت مغنية، وإذا بيعت ساذجة ربما ساوت عشرين دينارًا، فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة. وقد أطبق الفقهاء على الزجر عن الغناء».

ومن المتأخرين أبو الطيب الطبري من كبار أصحاب الشافعي، وصنف كتابًا، وبلغ في النهي عنه، وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون، قالوا: قد أجازته قوم من السلف. وقد سمع أحمد بن حنبل قول قَوَالٍ، فقال: لا بأس بهذا، فينبغي أن يتأمل الذي أفتى بجوازه ما هو، وليس إلا الأشعار الزهدية وما يشبهها، من غير ضرب بقضيب، أو آلة تطرب، ولا ضم إلى ذلك تصنيف ولا رقص.

وعلى هذا يحمل حديث عائشة في الجاريتين المغنيتين لما غنتا بما تقاولته الأنصار يوم بعث فإن ذلك لا يطرب [أخرجه البخاري (٩٥٢٣)، ومسلم (٨٩٢)].

ومعلوم أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدف والصنج والشبابة والشعر الرقيق، فإن هذه الأشياء تثير دفائن الهوى الكامنة في النفوس وتزعج، فيحسب الجاهل هذا الانزعاج معلقًا بالآخرة، وهيئات.

وليتهم قالوا: إن هذا مباح من اللهو فنستريح إليه، وإنما يظنونه قرينة، ويسمون الطرب المخرج عن حد العقل وجدًا، وربما أوجد الطرب ما لا يحل، من تمزيق الثياب، والتخبط، وكل هذا بمعزل عن طريق السلف، وغير خاف أنه ضلال عن الجادة، فلا ينبغي للإنسان أن يغالط نفسه، وإنما الوجد الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن والوعظ، فحيثئذ يثور من الباطن خوف من الوعيد، وشوق من الوعد،

وندم على التفريط، وجميع هذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر، لا الجمز والتصفيق، ولم يضق علينا القرآن والوعظ وأشعار الزهد، حتى نحتاج في إحضار القلوب إلى باب الله تعالى أن نذكر سلمى وسعدي.

ومثل من أراد أن يأخذ منها للآخرة، كمثل من قال: أنا أنظر إلى الأمد المستحسن لأتعجب من صنعة القادر، فإنه قد أخطأ الطريق، لأن ما تستلبه الشهوة والطبع عند النظر يكدر طريق الفكر ويشغل عنه، فلذلك نمنعه ونقول: انظر إلى ما لا مكدر فيه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ [ق: ٦]. ومن قالك إنه لا يؤثر عندي ما يؤثر عند غيري من انجذاب الطبع إلى الهوى، كان مدعيًا ما يخالف الجبلية، فلا يتلفت إلى دعواه.

### من أخلاق النبوة

س: اذكر طرفًا من آدب النبي ﷺ وأخلاقه؟

ج: سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه» [أخرجه مسلم (٧٤٦)] ولما كمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٥]، فسبحان من أعطى ثم أثنى.

- كان رسول الله ﷺ أحلم الناس، وأسخى الناس، وأعطف الناس.

وكان يحرص النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله.

وكان أشد حياء من العذراء في خدرها.

وكان يجيب دعوة المملوك، ويعود المرضى، ويمشي وحده، ويردف خلفه، ويقبل الهدية، ويأكلها، ويكافئ عليها، ولا يأكل الصدقة، ولا يجد من الدقل ما يملأ بطنه، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام تباعًا.

وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع. وكان يأكل ما حضر، وما عاب طعامًا

قط . وكان لا يأكل متكئا، ويأكل مما يليه . وكان احب الطعام إليه اللحم، ومن الشاة الكتف، ومن البقول الدباء، ومن الصبغ الخلل، ومن التمر العجوة . وكان يلبس ما وجد، مرة برد حبرة، ومرة جبة صوف . ويركب تارة بعيرا، وتارة بغلة، وتارة حمارا، وعمشي مرة راجلا حافيا . وكان يحب الطيب، ويكره الريح الخبيثة . ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف . ولا يجفو على أحد، ويقبل معذرة المعتذر إليه . يمزح ولا يقول إلا حقا، يضحك في غير قهقهة، لا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه . وما لعن امرأة ولا خادما قط . وما رغب أدا بيده قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله . وما انتقم لنفسه إلا أن تنهك حرمان الله . وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون مائما أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه . وقال أنس رضي الله عنه : «خدمته عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: لا فعلت كذا؟ ومن صفته في التوراة: محمد رسول الله، عبدي المختار، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح» [أخرجه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٠٩)]. وكان من خلقه أنه يبدأ بالسلام من لقيه، ومن فارقه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . وما أخذ أحد يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ . وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس مختلطا بأصحابه كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأله عنه .

وكان طويل السكوت، فإذا تكلم لم يسرد كلامه، بل يثبت فيه ويكرره ليفهم . وكان يعفومع القدرة، ولا يواجه أحدا بما يكره . وكان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، وكان أصحابه إذا تكلموا في أمر الدنيا تحدث معهم، وكانوا يتذكرون أمر الجاهلية فيضحكون ويتسم . وكان أشجع الناس . قال بعض أصحابه: كنا إذا احمرت الحدق، واشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ، ولم يكن بالطويل البائن ولا

بالقصير، كان ربعةً من القوم.

وكان أزهر اللون ولم يكن بالأدم. وكان رجل الشعر، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان شعره إلى شحمة أذنه. وكان واسع الجبهة، أزج الحواجب، أدعج العينين، أهدب الأشفار، أقى العرنين، سهل الخدين، كث اللحية، كأن عنقه جيد. دمية، عريض الصدر، سواء البطن والصدر، رحب الراحة، طويل الزندين، كفه ألين من الحرير ﷺ.

س: اذكر طرفاً من معجزات النبي ﷺ؟

ج: أما معجزاته ﷺ: فإن من شاهد أحواله وسمع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن اشارته في تفصيل ظاهر الشرع الذي تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق عنده ريب في أن ذلك لم يكن محتسباً بحيلة، وأنه لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تاييد سماوي وقوة إلهية، وإن ذلك لا يصح للمبس ولا كذاب، بل كانت مائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقة.

ومن أعظم معجزاته، وأوضح دلالاته القرآن العزيز الذي عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، ومعجز كل نبي انقضى بذهابه، وهذا المعجز باق أبداً.

ومن معجزاته انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير، ورميه بمحصات يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير، وحنين الجذع إليه كما يحن العشار، وإخباره بالغائبات فكانت كما قال، ورد عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه، وتفل في عين علي ﷺ وهو أرمد فصيح من وقته، إلى غير ذلك من المعجزات التي شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها، نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته، إنه كريم مجيب، والحمد لله رب العالمين.

## أحوال القلوب

س: وضع أهمية صلاح القلب وأثره على الجوارح؟  
 ج: إن أشرف ما في الانسان قلبه، فإنه العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد. ومن عرف قلبه عرف ربه، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين.

## مداخل إبليس

س: ما هي مداخل إبليس إلى القلب؟  
 ج: القلب بأصل فطرته قابل للهدى، وربما وضع فيه من الشهوة والهو، مائل عن ذلك، والتطارد فيها بين جندي الملائكة والشياطين دائم، إلى أن يفتح القلب لأحدهما، فيتمكن، ويستوطن ويكون اجتياز الثاني اختلاسًا، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤٤]، وهو الذي إذا ذكر الله خنس، وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى، فإنه لا قرار له مع الذكر.

والقلب كمثل الحصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، ويملكه ويستولي عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرة، إلا أنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب

التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد، والحرص، فمتى كان العبد حريصًا على شيء، أعماه حرصه وأصمه، وغطى نور بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان. وكذلك إذا كان حسودًا، فيجد الشيطان حنثذ الفرصة، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً أو فاحشًا.

ومن أبوابه العظيمة: الغضب، والشهوة، والحدة، فإن الغضب غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالإنسان. وقد روي أن إبليس يقول: إذا كان العبد حديدًا، قلبناه كما يقبل الصبيان الكرة.

ومن أبوابه: حب التزين في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقفها وحيطانها، والتزين بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومن أبوابه: الشبع، فإنه يقوي الشهوة ويشغل عن الطاعة. ومنها: الطمع في الناس، فإن من طمع في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمره بالمعروف، ولم ينهه عن المنكر. ومن أبوابه: العجلة، وترك التثبت، ومن أبوابه: حب المال، ومتى تمكن من القلب أفسده، وحمله على طلب المال من غير وجهه، وأخرجه إلى البخل، وخوفه الفقر، فمنع الحقوق اللازمة. ومن أبوابه: حمل العوام على التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها. ومن أبوابه أيضًا: حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين. ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حكم على مسلم بسوء، احتقره وأطلق فيه لسانه، ورأى نفسه خيرًا منه، وإنما يترشح سوء الظن بجنت الظان، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه. وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم، لئلا يساء به الظن، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي

الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مفصلاً. إذا قلعت من القلب أصول هذه الصفات، بقي للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى. ومثل الشيطان كمثّل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه ينزجر بأن تقول له: احسأ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذا القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر. فأما القلب الذي غلب عليه الهوى، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويدائه، فيستقر الشيطان في السويداء. وإذا أردت مصداق ذلك، فتأمل هذا في صلاتك، وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك في مثل ذلك الموطن، بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبير أمر الدنيا.

واعلم: أنه قد عفي عن حديث النفس، ويدخل في ذلك ما هممت به، ومن ترك ذلك خوفاً من الله تعالى كتبت له حسنة، وإن تركه لعائق، رجونا له المسامحة، إلا أن يكون عزمًا، فإن العزم على الخطيئة خطيئة، بدليل قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: ما بال مقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» [أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)]. وكيف لا تقع المؤاخذه بالعزم، والأعمال بالنية، وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنة؟ ولو أن إنساناً رأى على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها، ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أثم بوطئها، وكل هذا متعلق بعقد القلب.

### ثبات القلوب على الخير

س: وضع أحوال القلوب من حيث الثقل والثبات؟

ج: قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على

دينك» [أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وأحمد في مسنده (٢٦٠٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٨٠١)]. «اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» [أخرجه مسلم (٢٦٥٤)]. وفي حديث آخر: «مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح» [صحيح]: أخرجه أحمد (٢٧٨٥٩)، والرويان في «مسنده» (٥٦٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢)، وصححه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة» برقم (٢٢٧)].

واعلم: أن القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:  
 القلب الأول: قلب عُمِرَ بالتقوى، وزكي بالرياضة، وطهر عن خبائث الأخلاق، فتفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، فيمده الملك بالهدى.  
 القلب الثاني: قلب مخذول، مشحون بالهوى، مندس بالخبائث، ملوث بالأخلاق الذميمة، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه، ويضعف سلطان الإيمان، ويمتلئ القلب بدخان الهوى، فيعدم النور، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان، لا يمكنها النظر، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ.  
 والقلب الثالث: قلب يتبدى فيه خاطر الهوى، فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلى الخير.

مثاله، أن يحمل الشيطان حملة على العقل، ويقوي داعي الهوى ويقول: أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يطلقون أنفسهم في هواها، حتى يعد جماعة من العلماء، فتميل النفس إلى الشيطان، فيحمل الملك حملة على الشيطان، ويقول: هل هلك إلا من نسي العاقبة، فلا تغتر بغفلة الناس، أرايت لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيت بارد، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في حر الشمس، ولا تخالفهم فيما يؤول إلى النار؟ فتميل النفس إلى قول الملك، ويقع التردد بين الجندين، إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به، فمن خلق للخير يسر له، ومن خلق للشر يسر له:  
 ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِمًا مَّا كَأَنَّمَا يُصَمِّعُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الانعام: ١٢٥]. اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه.

## حسن الخلق

س: تحدث عن أهمية حسن الخلق؟

ج: الخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة، تنخرط بصاحبها في سلك الشيطان، وأمراض تفوت جاه الأبد، فينبغي أن تعرف العلل ثم التشمير في معالجتها، ونحن نشير إلى جمل من الأمراض، وكيفية معالجتها في الجملة من غير تفصيل.

واعلم: أن الناس قد تكلموا في حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته، ولم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل منهم ما حضر في ذهنه، وكشف الحقيقة في ذلك أن يقال: كثيرًا ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق، فيقال: فلان حسن بالخلق والخلق. أي حسن الظاهر والباطن، فالمراد بالخلق: الصورة الظاهرة، والمراد بالخلق: الصورة الباطنة، وذلك أن الانسان مركب من جسد ونفس.

فالجسد مدرك بالبصر، والنفس مدركة بالبصيرة، ولكل واحدة منها هيئة وصورة إما جميلة أوقبيحة، والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصرة، ولذلك عظم الله ﷻ أمره فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح منسوب إليه ﷻ، فالخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقًا حسنًا، وإن كانت قبيحة سميت خلقًا سيئًا.

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستقل الرياضة، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهرة.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا

معنى، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس، والكلب يعمل ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصالح، وبعضها مستصعبة.

وأما خيال من اعتقد أن ما في الجبل لا يتغير، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبل، ولوانقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان. أوشهوة الوقاع لانقطع النسل، ولوانعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه. وقد قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار، وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقل: الفاقدين الغيظ.

وكذلك المطلوب في الشهوة الاعتدال دون الشره والتقليل، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الاعراف: ٣١] إلا أن الشيخ المعلم إذا رأى لمن أمامه ميلاً إلى الغضب والشهوة، حسن أن يبالح في ذمها على الإطلاق ليرده إلى التوسط، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً، وهو وسط بين طري التقتير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

واعلم أن هذا الاعتدال. تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق، فكم من صبي يخلق صادقاً سخياً حليماً، وتارة يحصل بالاكْتساب، وذلك بالرياضة، وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب، فمن أراد تحصيل خلق الجود، فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له.

وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثراً في ذلك، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطي فعل

الكتابة، أوفقيهاً تعاطي فعل الفقهاء من التكرار، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه، إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أو ثلاثة، وإنما يؤثر مع الدوام، كما لا يطلب في النمو علو القامة في يومين أو ثلاثة. وللدوام تأثير عظيم.

وكما لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعات، فإن دوامها يؤثر، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب. وكما أن تعاطي أسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغير طبعها، فكذلك مساكنة الكسل أيضاً يصير عادة، فيحرم بسببه كل خير. وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر.

قلت: ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال» [أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد في مسنده (٨٢١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «رياض الصالحين» برقم (٣٧١)].

### الطريق إلى تهذيب الأخلاق

س: وما السبيل إلى تهذيب الأخلاق؟

ج: قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو الصحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فاعلم أن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل بالتربية بالغذاء، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتركية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم.

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة، وإن كان مريضاً، فشأنه جلب الصحة إليه، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخلاق، فينبغي أن يسعى بحفظها وجلب مزيد القوة إليها، وإن كانت عديمة الكمال، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك إليه.

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن إلا بضدها، إن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من البرودة فبالحرارة، فكذلك الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب، علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهي.

وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتبهات لصالح الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال المجاهدة، والصبر على مداواة مرض القلب، بل أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبدًا.

وينبغي للذي يطب النفوس أن لا يهجم عليهم بالرياضة في فن مخصوص، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذ ليس علاج كل مريض واحدًا، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علمه، وإذا رأى متكبرًا حمله على ما يوجب التواضع، أو شديد الغضب ألزمه الحلم.

وأشد حاجة الرائض لنفسه، قوة العزم، فمتى كان مترددًا بعد فلاحه، ومتى أحس من نفسه ضعف العزم وتصبر، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لثلاثا تعاود، كما قال رجل لنفسه: تتكلمين فيما لا يعينك؟ لأعاقبك بصوم سنة؟

### علامات مرض القلب وصحته

س: ما هي علامات مرض القلب؟

ج: اعلم: أن كل عضو خلق لفعل خاص، فعلاية مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد تعذر البطش، ومرض العين تعذر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة، وحب الله تعالى وعبادته، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو أن الإنسان عرف كل شيء ولم يعرف الله سبحانه، كان كأنه لم يعرف شيئاً. وعلامة المعرفة: الحب، فمن عرف الله أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن أثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة التي تؤثر أكل الطين على أكل الخبز - وقد سقطت عنها شهوة الخبز - مريضة. ومرضى القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، لأن دوائه مخالفة الهوى، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، والمرضى قد استولى عليهم، والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، واندرس هذا العلم، وأنكر طب القلوب ومرضاها بالكلية، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات فهذه علامة أصل المرض.

وأما عافيته وعوده إلى الصحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر إلى العلة، فإن كان يعالج داء البخل، فعلاجه بذل المال، ولكنه لا يسرف، ويصير إلى حد التبذير، فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة، فيكون داء أيضاً، بل المطلوب الاعتدال.

وإذا أردت أن تعرف الوسط، فانظر إلى نفسك، فإن كان إمساك المال وجمعه ألد عندك، وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل، فعالج نفسك على البذل، وإن صار البذل للمستحق ألد عندك، وأخف عليك من الإمساك، فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الامساك، ولا تزال تراقب نفسك، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتيسيرها، حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال، فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج، أو بذله لحاجة محتاج، فكل قلب صار كذلك، فقد جاء الله سليماً في هذا المقام.

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق، حتى لا تكون له علاقة بشيء من

الدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها، غير ملتفتة إليها، ولا متشوقة إلى أسبابها، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشعر، وأحد من السيف، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، ولأجل عسر الاستقامة أمر العبد أن يقول في كل يوم مرات: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ومن لم يقدر على الاستقامة، فليجتهد على القرب من الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح.

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد، وليصبر ذوالعزم على مضض هذا الأمر، فإنه سيحلوكما يحلوا لفظام للطفل بعد كراهته له، فلورد إلى الثدي لكرهه، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة. حمل مشقة سفر أيام لتنعم الأبد، فعند الصباح يحمد القوم السرى.

واعلم: أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بَصَّرَهُ بعيوب نفسه، فمن كانت له بصيرة، لم تخف عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه.

س: كيف يعرف الإنسان عيوب نفسه؟

ج: من أراد الوقوف على عيب نفسه، فله في ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده، فمن وقع به، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رحم الله امرءاً أهدي إلينا عيوبنا».

وسأل سلمان رضي الله عنه لما قدم عليه من عيوبه، فقال: «سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين: حلة بالليل، وحلة بالنهار، فقال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هذا فقد كفيتهما».

وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة: «هل أنا من المنافقين؟» وهذا لأن كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه، إلا أنه عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة، لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة، فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا.

وهذا دليل على ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب، ولو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منة، واشتغلنا بقتلها، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوي، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مدهن يخفي عنه عيوبه.

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم، يجتنبه.

## شهوات النفوس

س: ما الحكمة من وجود شهوات النفوس؟

ج: شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة، إذ لولا شهوة الطعام ما حصل تناول الغذاء، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر، فأخذوا يتركون كل ما تشتهي النفس،

وهذا ظلم لها باسقاط حقها، فإن لها حقاً بدليل قوله ﷺ: «إن لنفسك عليك حقاً» [صحيح]: أخرجه البخاري (١٩٦٨)، من حديث أبي حنيفة رضي الله عنه. حتى إن قائلاً منهم يقول: لي كذا وكذا سنة أشتهي كذا، فلا أتناوله، وهذا انحراف عن الحل وخلاف سنة رسول الله ﷺ، فإنه «كان يتناول المشتهي من الحلو والعسل وغيرهما» [صحيح]: أخرجه البخاري (٥٥٩٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها. فلا يلتفت إلى زاهد قل علمه، فحرم نفسه حظها من المشتهي على الاطلاق، فإن إلى الظلم أقرب منه إلى العدل، وإنما يترك الشتهي إذا صعبت الطريق إليه، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه، أو يخاف من تناوله المحلال عزمه، فتقطع النفس في استدامته، أو يحذر من ذلك زيادة شبع، فيشغله عن عبادته، فأما تناوله في بعض الأوقات لتقوية النفس، فذلك كالطب للمريض، يمدح ولا يذم، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك.

### علامات حسن الخلق

س: ما هي علامات حسن الخلق؟

ج: ربما جاهد الإنسان نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هذب خلقه، واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢-٣-٤]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ طَائِعِينَ وَلَا مُنَافِقِينَ إِذَا دَعَا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ لَهُمْ تَقْوَىٰ وَالصَّالِفِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١-١٠]، وقال: ﴿وَعِبَادُ

الرَّحْمَنِ الَّذِيكَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَكَ ﴿﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة، فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجدته وتحصيل ما فقده.

وقد وصف رسول الله عليه وآله وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق.

ففي الصحيحين من حديث ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [صحيح]: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥). وفيهما أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كن يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» [صحيح]: أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

ومن حسن الخلق: احتمال الأذى، ففي «الصحيحين» «أن أعرابياً جذب رداء النبي ﷺ حتى أثرت حاشيته في عاتقه ﷺ، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ، ثم ضحك، ثم أمر له بعتاء» [أخرجه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧)]. وكان إذا آذاه قومه قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» [أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)]. وكان أويس القرني إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول: «يا إخوانه، إن كان ولا بد، فارموني بالصغار لثلاث تدموا ساقي فتمنعوني من الصلاة».

وخرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراري فاستقبله جندي فقال: «أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشججه، فلما أخبر أنه إبراهيم، جعل يقبل يده ورجله، فقال: أنه لما ضرب رأسي، سألت الله له الجنة، لأنني أعلم أني أوجر بضره إياي فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير، ونصيبه مني الشر».

واجتاز بعضهم في سكة، فطرح عليه رماد من السطح، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال: من استحق النار فصولح على الرماد، ينبغي له أن لا يغضب. فهذه نفوس ذلت بالرياضة، فاعتدلت أخلاقهم، ونقيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضى بالقضاء، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التي وجدها هؤلاء، فينبغي أن يداوم الرياضة ليصل، فإنه بعد ما وصل.

### تنشئة الأبناء

س: وما السبيل لتنشئة الأبناء على محاسن الأخلاق؟

ج: الصبي أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة ساذجة، وهي قابلة لكل نقش، فإن عود الخير نشأ عليه، وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه، وإن عود الشر نشأ عليه، وكان الوزر في عنق وليه، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعود التمتع، ولا يجب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر.

بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل في رضاعه وحضائه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء، وذلك علامة النجابة وهي مبشرة بكمال العقل عند البلوغ، فهذا يستعان على تأديبه بجيائه.

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يعلم آداب الأكل، ويعوده على أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم، ويقبح عنده كثرة الأكل، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهايم، ويجب إليه الثياب البيض دون الملونة والأبريسم، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين، ومنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التمتع، ثم يشغله في المكتب بتعليم القرآن والحديث

وأحاديث الأخيار، ليغرس في قلبه حب الصالحين، ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق.

ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازي بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تغوغل عنه ولا يكشف، فإن عاد عوتب سرًا وخوف من اطلاع الناس عليه، ولا يكثر عليه العتاب، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة، وليكن حافظًا هية الكلام معه.

وينبغي للأب أن تخوفه بالأب، وينبغي أن يمنع النوم نهارًا، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع النوم ليلاً، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه.

ويتعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم.

ويعود المشي والحركة والرياضة لثلا يغلب عليه الكسل.

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه، أو بمطعمه أو ملبسه.

ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره، ويمنع أن يأخذ شيئًا من صبي مثله، ويعلم أن الأخذ دناءة، وأن الرفعة في الإعطاء، ويقبح عنده حب الذهب والفضة، ويعود أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتشاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلًا على رجل، ويمنع من كثرة الكلام.

ويعود أن لا يتكلم إلا جوابًا، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه، وأن يقوم لمن هوفوقه ويجلس بين يديه.

ويمنع من فحش الكلام، ومن مخالطة من يفعل ذلك، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء.

ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل، ليستريح به من تعب التأديب، كما قيل: روح القلوب تع الذكر.

وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم، وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة، ولم يسامح في ترك الطهارة ليتعود، ويخوف من الكذب والخيانة، وإذا

قارب البلوغ، ألقيت إليه الأمور.

واعلم: أن الأطعمة أدوية، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى، وأن الدنيا لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وهو منتظر في كل ساعة، وأن العاقل من تزود لآخرته، فإن كان نشوؤه صالحاً ثبت هذا قلبه، كما ثبت النقش في الحجر.

### شهوة البطن

س: وماذا عن شهوة البطن وخطرها؟

ج: شهوة البطن من أعظم المهلكات، وبها أُخْرِجَ آدم ﷺ من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بطن الشبع.

وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» [أخرجه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم]. وفي حديث آخر: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)].

وقال عقبة الراسبي: «دخلت على الحسن وهو يتغذى، فقال: هلم، فقلت: أكلت حتى لا أستطيع، فقال: سبحان الله أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟!» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)]. وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع، وقد بينا عيب ما سلكوا في غير هذا الكتاب، ومقام العدل في الأكل رفع اليدين مع بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام قوله ﷺ: «ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

فالأكل في مقام العدل يصح البدن وينفي المرض، وذلك أن يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام على التقليل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل مطاعمهم حتى قصرُوا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوع، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التي ذكرناها. وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أن من تعود استدامة الشبع، فينبغي له أن يقلل من مطعمه يسيرًا مع الزمان، إلى أن يقف على حد التوسط الذي أشرنا إليه، وخير الأمور أوساطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سببًا لبقاءه القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضًا أخرى.

وليحذر من ترك شيئًا من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء، وقد كان بعضهم يشتري الشهوة ويعلقها في بيته وهوزاهد فيها، يستر بها زهده، وهذا هو الزهد، في الزهد بإظهار ضده، وهو عمل الصديقين، لأنه يجرع نفسه كأس الصبر مرتين، والثانية أمر.

### شهوة الفرج

س: وماذا عن شهوة الفرج، ما أهميتها وما خطارها؟

ج: شهوة الوقاع سلطت على الآدمي لفائدتين:

إحدهما: بقاء النسل، والثانية ليدرك لذة يقبس عليها لذات الآخرة، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق، لا يعظم إليه الشوق، إلا أنه إذا لم ترد هذه الشهوة إلى الاعتدال، جلبت آفات كثيرة، ومحناً، ولولا ذلك ما كان النساء حبايل الشيطان. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «ما تركت في الناس بعدي فتنة أضر على الرجال

من النساء» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)].

وقال بعض الصالحين: لو ائتمني رجل على بيت مال، لظننت أن أودي إليه الأمانة، ولو ائتمني على زنجية أخلو بها ساعة واحدة، ما ائتمنت نفسي عليها. وعن النبي ﷺ قال: «لا يخلو رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان» [صحيح]: أخرجه الترمذي (١١٧١) كتاب الرضاع - باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح جامع الترمذي»].

وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة، حتى تصرف همه الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلى الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلى العشق، وهو أقبح الشهوات، وأجدرها أن تستحي منه، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال، والجاه، واللعب بالترد، والشطرنج، والطنبور، ونحو ذلك، فتستولى هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها.

ويسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الأمور، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا ينجح، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجيهها إلى باب تريد دخوله، فما أهون منعها بصرف عنانها، ومثال من يعالجه بعد استحكامه، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين!!

### آفات اللسان

س: تحدث عن آفات اللسان وخطورها، وما السبيل إلى التوقي منها؟

ج: آفاته كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطورها إلا بالصمت.

س: وما فضيلة الصمت وأهميته؟

ج: اعلم: أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر، وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة». وفي حديث معاذ في آخره: «كف عليك هذا» فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، ألا حصائد ألسنتهم؟» [أخرجه البخاري (٦٤٧٤)]. وقال ابن مسعود: «ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني». وقال أبو الدرداء: «أنصف أذنك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تتكلم به». وقال مخلد بن الحسين: «ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها».

### الكلام فيما لا يعني

س: اذكر ما ورد في ذم الكلام فيما لا يعني؟

ج: واعلم: أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعني، كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مدرة، وهذا خسران العمر. وفي الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وأحمد في مسنده (١٧٣٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٢٨١١)]. وقيل للقمان الحكيم: «ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني». وقد روي: «أنه دخل على دواد عليه السلام وهو يسرد درعاً، فجعل يتعج مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكيمته فأمسك، فلما فرغ داود

ﷺ، قام ولبس الدرع ثم قال: نعم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله».

## الخوض في الباطل

س: فصل القول في آفة الخوض في الباطل؟

ج: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق.

وأنواع الباطل كثيرة. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب» [أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)]. وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلظه وإفحامه، والباعث على ذلك الترفع. فينبغي للإنسان أن ينكر المنكر من القول، ويبين الصواب، فإن قبل منه وإلا ترك الممارسة، هذا إذا كان الأمر معلقاً بالدين، فأما إذا كان الأمر معلقاً بالدين، فأما إذا كان في أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المراء الخصومة، فإنها أمر زائد على المراء.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» [أخرجه البخاري (٧١٨٨)، ومسلم (٢٦٦٨)]. وهذه الخصومة تعني بها الخصومة بالباطل أو بغير علم، فأما من له حق فالأولى أن يصدف عن الخصومة مهما أمكن لأنها، توغر الصدر، وتهيج الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العرض.

## التعمر في الكلام

س: اذكر بعض ما ورد في ذم التعمر في الكلام؟

ج: التعمر في الكلام، وذلك يكون بالتشديق، وتكلف السجع.

وعن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة مساويكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٨٩)، والترمذي (٢٠١٨)، وقال: حديث حسن، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٥٣٥)]. ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير إفراط، ولا إغراب، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب، وتشويقها، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك.

## الفحش والسب

س: اذكر بعض ما ورد في التنفير عن الفحش والسب؟

ج: الفحش والسب والبذاء، ونحو ذلك، فإنه مذموم منهى عنه، ومصدره الخبث واللؤم.

وفي الحديث: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء» [أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٢٩) والترمذي (١٩٧٧)، وقال: حديث حسن،، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٣٨١)]. واعلم: أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكونونها عنها. ومن الآفات: الغناء وقد سبق فيه كلام في غير هذا الموضوع.

## المزاح

س: فصل القول في أحكام المزاح ما يجوز منه وما يحرم؟

ج: المزاح، أما اليسير منه، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً.

فإن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً، فإنه قال لرجل: «يا ذا الأذنين» [أخرجه أحمد في مسنده (١١٧٥٤) أخرجه أبو داود (٥٠٠٢)، والترمذي (١٩٩٢)، وقال: حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٩٠٩)]. وقال لآخر: «إنا حاملوك على ولد الناقة» [أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤٠٥) وأبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١)، وقال: حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧١٢٨)]. وقال للعجوز: «إنه لا يدخل الجنة عجوز، ثم قرأ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً ۖ فَعَمَلُنَّهُنَّ أَبْكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٦]، وقال لأخرى: «زوجك الذي في عينه بياض؟». فقد اتفق في مزاحه ﷺ ثلاثة أشياء:

أحدهما: كونه حقاً.

والثاني: كونه مع النساء والصبيان، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال.  
والثالث: كونه نادراً، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم، ولو أن انساناً داراً مع الحبشة ليلاً ونهاراً ينظر إلى لعبهم واحتج بأن النبي ﷺ وقف لعائشة وأذن لها أن تنظر إلى الحبشة، لكان غلطاً، لندور ذلك، فالإفراط في المزاح والمداومة عليه منهي عنه، لأنه يسقط الوقار، ويوجب الضغائن والأحقاد، وأما اليسير كما تقدم، من نخونوع مزاح النبي ﷺ، فإن فيه انبساطاً وطيب نفس.

## السخرية والاستهزاء

س: ما المقصود بالسخرية والاستهزاء، وما حكمها؟

ج: ومعنى السخرية: الاحتقار والاستهانة، والتنيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكله ممنوع منه في الشرع، ورد النهي عنه في الكتاب والسنة.

## إفشاء السر والكذب

س: فصل القول في أحكام الكذب وما حكم المعارض؟

ج: إفشاء السر، وإخلاف الوعد، والكذب في القول واليمين، وكل ذلك منهي عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته، وفي الحرب، فإن ذلك يباح [صحيح]: أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً، وإن كان المقصود واجباً، فهو واجب، فينبغي أن يحترز عن الكذب مهما أمكن.

وتباح المعارض، لقوله ﷺ: «إن في المعارض مندوحة عن الكذب» [أخرجه هناد بن السري في «الزهد» (١٣٧٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، (٨٨٥)، عن عمران بن الحصين ﷺ موقوفاً، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٨٥٧)]. وإنما تصلح المعارض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تشبه الكذب.

فمن المعارض ما روي بإسناد فيه ضعف عن عبد الله بن رواحة ﷺ أنه أصاب جارية له، فعلمت امرأته، فأخذت شفرة، ثم أتت فوافقتة قد قام عنها، فقالت:

أفعلتها؟ فقال: ما فعلت شيئاً، قالت، لتقرأ القرآن أو لأبعجنتك بها، فقال ﷺ:  
 وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع  
 بيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استقلت بالكافرين المضاجع  
 أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع  
 قالت: آمنت بالله وكذبت بصري.

وكان النخعي إذا طلب قال للجارية: قولي لهم: اطلبوه في المسجد.

### الغيبة

س: اذكر بعض ما ورد في التنفير عن الغيبة؟

ج: الغيبة، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهي عنها، وشبه صاحبها بأكل الميتة.  
 وفي الحديث: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام» [صحيح]: أخرجه  
 البخاري (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة والمخاريب - باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض  
 والأموال، من حديث أبي بكر.

وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه  
 ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع  
 عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»  
 [صحيح]: أخرجه أحمد (١٩٢٢٧)، (١٩٣٠٢) وأبوداود (٤٨٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في  
 «صحيح الجامع» برقم (٧٩٨٤).

وقال علي بن الحسين عليهما السلام: «إياك والغيبة، فإنها إدام كلاب الناس». والأحاديث  
 والآثار في ذلك كثيرة مشهورة.

س: ما معنى الغيبة؟

ج: معنى الغيبة: أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصاً في بدنه، كالعمش، والعمور، والحول، والقرع، والطول، والقصر، ونحو ذلك. أو في نسبه، كقولك: أبوه نبطي، أو هندي، أو فاسق، أو خسيس، ونحو ذلك. أو في خلقه كقولك، هو سيئ الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك. أو في ثوبه، كقولك: هو طويل الذيل، واسع الكم، وسخ الثياب. والدليل على ذلك، أن النبي ﷺ سئل عن الغيبة قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قال: رأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟ قال: «إن كان في أخاك ما تقول فقد اغتبهته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» [أخرجه مسلم (٢٥٨٩)].

واعلم: أن كل ما يفهم منه مقصود الذم، فهو داخل في الغيبة، سواء كان بكلام أو بغيره، كالغمز، والإشارة والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسانين.

س: وما هي أقبح أنواع الغيبة؟

ج: أقبح أنواع الغيبة، غيبة المتزهدين المرئيين، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد له الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أونسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم.

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بلي بأفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يظهر الدعاء ويخفي قصده.

س: وما حكم سماع الغيبة؟

ج: أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف، فبقلبه وإن قدر على القيام، أوقف الكلام بكلام آخر، لزمه ذلك.

ورآى عمر بن عتبة مولاہ مع رجل وهو يقع في آخره، فقال: ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك القائل، إنما نظر إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو ردت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادها كما شقي بها قائلها.

س: وضح الأسباب الباعثة على الغيبة؟

ج: أما الأسباب التي تبعث على الغيبة فكثيرة.

منها: تشفي الغيظ، بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلما هاج غضبه تشفي بغيبة صاحبه.

السبب الثاني: من البواعث على الغيبة: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكّهون في الأعراض، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أوقف كلامهم استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة.

الثالث: إرادة رفع نفسه بتتقيص غيره، فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، ونحو ذلك، غرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه، ويريهم أنه أعلم منه. وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

الرابع: اللعب والهزل، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا.

س: لو فصلت القول في علاج الغيبة؟

ج: ليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة.

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه، ويشغل بإصلاحها،

ويستحي أن يعيب وهو معيب، كما قال بعضهم:  
 فإن عبت قوماً بالذي فيك مثله فكيف يعيب الناس من هو أعور  
 وإن عبت قوماً بالذي ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبر

وإن ظن أنه سليم من العيوب، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، وكما لا يرضي لنفسه بغيبة غيره له، فينبغي أن لا يرضاها لغيره من نفسه.

فمن نظر في السبب الباعث على الغيبة، فليجتهد على قطعة، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها. وقد ذكرنا بعض أسبابها، فيعالج الغضب بما سيأتي في كتاب الغضب، ويعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضي المخلوقين بسخطه، بل ينبغي أن يغضب على رفقاءه، وعلى نحو هذا معالجة البواقي.  
 س: وهل تكون الغيبة بالقلب؟

ج: قد تحصل الغيبة بالقلب، ومن ذلك سوء الظن بالمسلمين، والظن ما تركز إليه النفس ويميل إليه القلب، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً، إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل، فمال قلبك إلى تصديقه، كنت معذوراً، لأنك لو كذبتك كنت قد أسأت الظن بالخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعوله بالخير، فإن ذلك يغبط الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة مسلم، فانصحه في السر.

واعلم: أن من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذلك منهبي عنه، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو

لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم.

س: ما هي الأعذار المرخصة في الغيبة؟

ج: من الأمور المرخصة في الغيبة:

أحدها: الظلم، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفي حقه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء، مثل أن يقول للمفتي: ظلمني فلان، أو أخذ حقي، فكيف

طريقي في الخلاص، فالتعيين مباح، والأولى التعريض، وهو أن يقول: ما تقول في

رجل ظلمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت: «إن أبا سفيان رجل شحيح»

[أخرجه البخاري (٧١٨٠)، ومسلم (١٧١٤)]. ولم ينكر عليها النبي ﷺ.

الأمر الرابع: تحذير المسلمين، مثل أن ترى متفقهًا يتردد إلى مبتدع أو فاسق،

وتحاف أن يتعدى إليه ذلك، فلك أن تكشف له الحال.

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق، فتذكر ذلك للمشتري. وكذلك

المستشار في التزويج وإيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح

للمستشير، لا على قصد الوقعة، إذا علم أنه لا يترجر إلا بالتصريح.

الخامس: أن يكون معروفًا بقلب، كالأعرج، والأعمش، فلا إثم على من يذكره

به، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى.

السادس: أن يكون مجاهرًا بالفسق، ولا يستنكف أن يذكر به.

وقيل للحسن: الفاجر المعلن بفجوره، ذكرى له بما فيه غيبة قال: «لا، ولا

كرامة».

س: وما كفارة الغيبة؟

ج: المغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما: على حق الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم. والجنابة الثانية: على محارم المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل، جاء إليه واستحلها، وأظهر له الندم على فعله.

وقد روي أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه، من مال أو عرض، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقي عليه» [أخرجه البخاري (٢٤٤٩)].

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان استحلاله الاستغفار له، لثلاثي نجبره بما لا يعلمه، فيوغر صدره.

وقال مجاهد: «كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعوله بنجر، وكذلك إن كان قد مات».

### النميمة

س: وما خطر النميمة؟

ج: في الحديث أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قتات» [أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)] وهو النمام.

واعلم: أن النميمة تطلق في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا، بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، حتى لورآه يذفن مالا لنفسه فذكره، فهو نميمة. وكل من نقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: قال فيك فلان كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، ونحو ذلك، فعليه ستة أشياء:

الأول: أن لا يصدق الناقل، لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث: أن يبغضه في الله، فإنه يبغض عند الله.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث، لقوله تعالى: ﴿وَلَا

يَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهي النمام عنه، فلا يحكي غيمته.

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: «بلغني أنك وقعت في، وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلت، فقال سليمان: أن الذي أخبرني صادق، فقال

الرجل: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام».

وقال يحيى بن أبي كثير: «يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر».

وقد حكي أن رجلاً ساوم بعبد، فقال مولاه: «إني أبرأ إليك من النميمة

والكذب، فقال: نعم، أنت بريء منهما، فاشتراه. فجعل يقول لمولاه: إن امرأتك

تبغي وتفعل، وإنما تريد أن تقتلك، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن يتزوج عليك

ويتسرى، فإن أردت أن أعطفه عليك، فلا يتزوج ولا يتسرى، فخذي الموسى

واحلقي شعرة من حلقه إذا نام، وقال للزوج: إنها تريد أن تقتلك إذا نمت. قال:

فذهب فتناوم لها، فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقه، فأخذ بيدها فقتلها، بجاء

أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه».

## ذي اللسانين

س: اذكر بعض ما ورد في ذم ذي اللسانين؟

ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر، ويكلم

كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده أنه ينصره، أو يثني على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر.

وفي الحديث: «إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» [أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)].

واعلم: أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إنا لنكشر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم، ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له».

س: ما آفات المدح؟

ج: للمدح آفات منها: ما يتعلق بالمادح، ومنها: ما يتعلق بالمدوح. فأما آفات المادح، فقد يقول مالا يتحققه، ولا سبيل للاطلاع عليه، مثل أن يقول: إنه ورع وزاهد، وقد يفرض في المدح فينتهي إلى الكذب، وقد يمدح من ينبغي أن يذم. وقال الحسن: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله».

وأما المدوح، فإنه يحدث فيه كبراً أو إعجاباً، وهما مهلكان، ولهذا قال النبي ﷺ لما سمع رجلاً يمدح رجلاً: «ويلك، قطعت عنق صاحبك» [أخرجه البخاري (٦١٦٢)]. الحديث وهو مشهور.

وقد روينا عن الحسن قال: «كان عمر رضي الله عنه قاعدًا ومعه الدرة والناس حوله، إذ أقبل الجارود، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر رضي الله عنه ومن حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة، فقال: مالي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: مالي ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها، فمه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحييت أن أطأطئ منك، ولأن الانسان إذا أثنى عليه بالخير رضي عنه نفسه، وظن أنه قد بلغ المقصود، فيفتر عن العمل، ولهذا قال: قطعت عنق صاحبك».

فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثنى النبي ﷺ وآله وسلم علي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم.

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل، ولا ينجون هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه.

وقد روي: «أن رجلاً من الصالحين أتى عليه، فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني».

الآفة الثانية عشرة: الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة، لم يخل كلامه عن الزلل، لكن يعفو الله عنه لجهله.

مثال ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقُل، ما شاء الله ثم شئت» [أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٨٧٢)، أبو داود (٤٩٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع»]. وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله: «ومن يعصمها فقد غوى» وقال «قل: ومن يعص الله ورسوله» [أخرجه مسلم (٨٧٠)].

وقال ﷺ: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نساءكم إماء الله، ولكن ليقُل، غلامي وجاريتي».

وقال النخعي: «إذا قال الرجل للرجل: يا حمار، يا خنزير، قيل له يوم القيامة: أرايتني خلقتة حماراً، أو أرايتني خلقتة خنزيراً».

فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام، ولا يمكن حصره، ومن تأمل ما أوردناه في آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ: «من صمت نجا» [أخرجه أحمد في مسنده (٦٤٤٥)، والدارمي (٢٧١٣)، والترمذي (٢٥٠١)، وقال: حديث غريب، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٣٦٧)]. لأن هذه الآفات مهالك وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم.

## الغضب

س: وماذا عن الغضب وخطره؟

ج: الغضب شعلة من النار، والانسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلطي والاشتغال، والحركة والاضطراب. ومن نتائج الغضب: الحقد والحسد، ومما يدل على ذم الغضب قول النبي ﷺ للرجل الذي قال له: أوصني قال: «لا تغضب»، فردد عليه مراراً، قال: «لا تغضب» [أخرجه البخاري (٦١١٦)].

وفي المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» [أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)].

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] قال: «السيد الذي يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه غضبه».

وروي: «أن ذا القرنين لقي ملكاً من الملائكة فقال: علمني علماً أزداد به إيماناً و يقيناً، قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرد الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة، وإياك والعجلة، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً».

وروي: «أن إبليس لعنه الله بدا لموسى عليه السلام، فقال يا موسى: إياك والحدة، فإني ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة، وإياك والنساء، فإني لم أنصب فخاً قط أثبت في نفسي من فح أنصبه بامرأة، وإياك والشح، فإني أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة». وكان يقال: اتقوا الغضب، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر

obeykandi.com

ومن آثار الغضب في الظاهر، تغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب، واستحالة الخلق، وتعاطي فعل المجانين، ولو رأى الغضبان صورته في حال غضبه وقبحها لأنف لنفسه من تلك الحال، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم.

س: وما الأسباب المهيجة للغضب؟

ج: من الأسباب المهيجة للغضب: العجب، والمزاح، والمماراة، والمضادة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه.

س: وما علاج الغضب؟

ج: من الأمور التي تعالج الغضب:

أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال، كما جاء في البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه، فأذن له، فقال له: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه، حتى هن أن يوقع به. فقال الحربن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى» [أخرجه البخاري (٤٦٤٢)].

الثاني: أن يخوف نفسه عقاب الله تعالى، وهو أن يقول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الانسان، فلو أمضيت فيه غضبي، لم آمن أن يمضي الله تعالى غضبه علي يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو. وقد قال الله تعالى في بعض الكتب: يا ابن آدم! اذكرني عند الغضب، أذكرك حين أغضب، ولا أحققك فيمن أحق.

والثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وتشمير العدو في هدم أعضائه، والشماته بمصائبه، فإن الانسان لا يخلوعن المصائب، فيخوف نفسه ذلك في الدنيا إن لم يخف من الآخرة، وهذا هو تسليط شهوة على غضب، ولا ثواب عليه، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعينه على الآخرة، فيثاب على ذلك.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب على ما تقدم، وأنه يشبه حيثئذ الكلب الضاري، والسبع العادي، وأنه يكون مجانبًا لأخلاق الأنبياء والعلماء في عاداتهم، لتميل نفسه إلى الاقتداء بهم.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان: إن هذا يحمل منك على العجز، والذلة والمهانة، وصغر النفس، وتصبر حقيرًا في أعين الناس، فليقل لنفسه: تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك، وتحذرين من أنت تصغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله تعالى وعند الملائكة والنبين.

وينبغي أن يكظم غيظه، فذلك يعظمه عند الله تعالى، فماله وللناس؟ أفلا يجب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودي: ليقم من وقع أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا، فهذا وأمثاله ينبغي أن يقرره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وف مراد الله تعالى، لا على وفق مراده، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى، هذا ما يتعلق بالقلب. وأما العمل، فينبغي له السكون، والتعود، وتغيير الحال، وإن كان قائمًا جالس، وإن كان جالسًا اضطجع، وقد أمرنا بالوضوء أيضًا عند الغضب، فهذه الأمور وردت في الأحاديث.

وأما الجلوس والاضطجاع، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض

التي منها خلق، فيذكر أصله فيذل، ويمكن أن يكون ليتواضع بذله.

### كظم الغيظ

س: اذكر فضيلة كظم الغيظ؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَالْكٰظِمِيْنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فذكر ذلك في معرض المدح. وعن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء» [أخرجه أحمد في مسنده (١٥٢١٠)، وأبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤١٨٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٥٢٢)].

### الحلم

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في فضل الحلم؟

ج: روى أبو هريرة ؓ، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتعلم» [أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم»، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٤٢)]. وقال ﷺ لأشج بن قيس: «إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة» [أخرجه مسلم (١٨)].

وشتم رجل ابن عباس ؓ، فلما قضى مقالته، فقال: «يا عكرمة، انظر هل للرجل حاجة فنقضها؟ فنكس الرجل رأسه واستحيي». وأسمع رجل معاوية كلامًا شديدًا، فقيل له: لو عاقبته؟ فقال: «إني لأستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي».

وقسم معاوية: «نطعًا، فبعث منها إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه، فجعل

عليه يمينًا أن يضرب رأس معاوية، فأتى معاوية فأخبره، فقال له معاوية: أوف بندرك وارفق بالشيخ». وجاء غلام لأبي ذر وقد كسر رجل شاة له، فقال له: «من كسر رجل هذه؟ قال: قال: أنا فعلته عمدًا لأغيبك، فتضربني، فتأثم. فقال: لأغيبن من حرصك على غيظي، فأعتقه».

وشتم رجل عدي بن حاتم وهوساكت، فلما فرغ من مقاله قال: «إن كان بقي عندك شيء فقل قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا».

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة، فمر برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه وقال: أجنون أنت؟ فقال عمر: «لا، فهم به الحرس، فقال عمر: مه، إنما سألتني أجنون؟ فقلت: لا».

ولقي رجل علي بن الحسين عليه السلام، فسبه، فثارت إليه العبيد، فقال: «مهلاً، ثم أقبل على أن الرجل فقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحى الرجل، فألقى عليه خيمصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد إنك من أولاد الرسول».

وقال رجل لوهب بن منبه: إن فلانًا شتمك، فقال: «ما وجد الشيطان بريداً غيرك».

## العفو

س: ما هو تعريف العفو؟

ج: معنى العفو أن تستحق حقًا فتسقطه، وتؤدي عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم والكظم، وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في فضل العفو؟

ج: ورد في فضل العفو أحاديث منها: أن النبي ﷺ، قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» [أخرجه مسلم (٢٥٨٨)].

### الرفق

س: اذكر بعض الآثار في فضل الرفق؟

ج: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف» [أخرجه مسلم (٢٥٩٣)].  
وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ﷻ يحب الرفق في الأمر كله» [أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥)].  
وفي حديث آخر «من يحرم الرفق يحرم الخير» [أخرجه مسلم (٢٥٩٢)].

### الحقد والحسد

س: وما هو الحقد؟

ج: الغيظ إذا كظم لعجز عن التشنفي في الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقدًا.

وعلامته دوام بغض الشخص واستتقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

س: لو ذكرت بعض الأحاديث والآثار في ذم الحسد؟

ج: عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «دب إليكم داء الأمم

قبلكم الحسد والبغضاء» [أخرجه أحمد (١٤١٥)، (١٤٣٣) والترمذي (٢٥١٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٣٦١)].

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، كونوا عباد الله إخواناً» [أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٦٤)].

وفي حديث آخر أنه قال: «يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل، فسئل عن عمله، فقال: إني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه».

وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول: «الحاسد عدو نعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي بين عبادي».

وقال ابن سيرين: «ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار».

س: وما الفرق بين الحسد والغبطة؟

ج: إذا أنعم الله تعالى على أخيك نعمة، فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هو الحسد.

والحالة الثانية: أن لا تكره وجودها ولا تحب زوالها، ولكنك تشتهي لنفسك مثلها، فهذا يسمى غبطة.

اعلم: أن النفس قد جبلت على حب الرفة، فهي لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها، شق عليها وكرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوي، وهذا أمر مركوز في الطباع.

س: ما هي أسباب الحسد؟

ج: الحسد له أسباب: أحدها: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة،

وخبث النفس، وبخلها، وأشدّها: العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد.

والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نقمة ساءة ذلك، الحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي أن لا يبغى، وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً فيستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن.

وأما الكبر، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالا أو ولاية، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، وأن يكون من أصاب ذلك دونه، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته.

وكان حسد الكفار لرسول الله ﷺ قريبا من ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَهْتَدُوا لِمَنْ أَتَى عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] وقال في آية أخرى: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] وقال: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمُ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] فعبجوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم.

وأما حب الرياسة والجاه، فمثاله أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به، من أنه أوحد العصر، وفريد الدهر في فنه، إذا سمع بنظير له في أقصى العالم، ساءه ذلك واحب موته، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم، أو شجاعة، أو عبادة، أو صناعة، أو ثروة، أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد.

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبي ﷺ، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم.

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد اله تعالى فيما أنعم عليه به، شق عليه ذلك، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتنغيص

عيشهم، فرح به، فهو أبداً يحب الإديار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عبادة، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه.

وقد قال بعض العلماء: «البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذي يبخل بمال غيره»، فهذا يبخل بنعمة الله على عبادة الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل على إزالته، بل سببه خبث الجبلة، فيعسر إزالته، فهذه أسباب الحسد.

س: وما أسباب كثرة الحسد؟

ج: يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها وهي: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس، وبخلها، ويقع ذلك غالباً بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبني العم، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها، فيثور التنافر والتباغض.

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف، ولا يحسد البزاز إلا أن يكون سبب آخر، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر.

فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين، إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه، فإنه يسحد كل من في العالم ممن يساهم في الخصلة التي يفاخر بها.

ومشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة، فلا تضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبياءه، وملوكوت أرضه وسماؤه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعرف ألف ألف عالم، ويفرح بمعرفته غيره، فلذلك لا

يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق فيما عند الله، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه، وليس فيه ممانعه ولا مزاحمة. ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأانس بكثرتهم، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا.

والفرق بين العلم والمال، أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن يد أخرى، والعلم مستقر في قلب العالم، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، ولا نهاية له، فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكه، صار ذلك عند ألد من كل نعيم، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته، فقد عرفت أنه لا حسد إلا في المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل.

ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء، لأنها واسعة الأقطار، وافية بجميع الابصار، فعليك إن كنت شفيقاً على نفسك أن تطلب نعيمًا لا زحمة فيه، ولذة لا تتكدر، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته، ولا ينال ذلك في المعرفة أيضًا، فإن كنت لا تشاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها، وضعفت فيها رغبتك، فليست برجل، إنما هذا شأن الرجال، لأن الشوق بعد الوضق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشق، ومن لم يشق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي من المحرومين.

س: وما علاج الحسد؟

ج: علاج الحسد، تارة يكون بالرضى بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً، ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته.

فأما من يحسد نبياً على نبوته، فيجب أن لا يكون نبياً، أو عالماً على علمه، فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه، فهذا لا عذر له، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركوه، فإنه لا يأثم بذلك، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهما، فأحب أحدهما أن يستبق. وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله ﷻ القرآن، فهو يقوم به آناء النهار، ورجل آتاه الله ما لآ، فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار» [أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦)].

والحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوي أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولولم تكن تمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة.

وبيان قولنا: أن المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا، لأن ما قدره الله له من نعمة لا بد أن تدوم إلى أجله الذي قدره، ولا ضرر عليه في الآخرة، لأنه لا يأثم هو بذلك، بل ينتفع به، لأنه مظلوم من جهتك. لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل.

وأما منفعتة في الدنيا، فهو أن من أهم أغراض الخلق غرض الأعداء، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد.

فإذا تأملت ما ذكرنا، علمت أنك عدو لنفسك، وهو صديق لعدوك، فما مثلك إلا كمثل من يرمي حجراً عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر على حدقته

اليمني فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظه، فيرميه الثالثة، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه، وعدوه سالم يضحك منه، فهذه الأدوية العلمية، فإذا تفكر الانسان فيها، أخذت نار الحسد من قلبه. وأما العمل النافع فيه، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد، فإذا بعته على الحقد والقدح في المحسود، كلف نفسه المدح له، والثناء عليه، وإن حمله الكبر، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعته على كف الإنعام عنه، ألزم نفسه زيادة في الإنعام. وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم، أهدوا إليه هدية. فهذه أدوية نافعة للحسد جداً، إلا أنها مرة، وربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد، فأرد ما يكون، وهذا هو الدواء الكلي، والله أعلم.

### الدنيا

س: اذكر طرفاً من الآيات والأحاديث الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها؟  
 ج: الآيات الواردة في القرآن العزيز بعبء الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَآبِ ﴿١٦٤﴾ قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ﴿١٦٥﴾ الآية [آل عمران: ١٤-١٥]، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ ﴿٢٠﴾ وَالْزُخْرُفُ وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَالزُّخْرُفُ: ﴿فَأَعْرَضَ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن دِكْرِنَا وَلَوْ بَرُدٌ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿٣٦﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿٣٠-٢٩﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من رواية المسور بن شداد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟» [أخرجه مسلم (٢٨٥٨)].

وفي حديث آخر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» [أخرجه مسلم (٢٩٥٦)] رواه مسلم.

وفي حديث آخر: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء». رواه الترمذي وصححه.

وفي آخر: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها» [أخرجه الدارمي (٣٢٢) والترمذي (٢٣٢٢)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٦٠٩)].

س: لو ذكرت بعض آثار السلف وأقوالهم في التزهيد في الدنيا وذمها وحالهم معها؟

ج: كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه: «أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذرنا يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حثفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة، وكن أسر ما تكون فيها، احذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يجبر عنها خيراً، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله ﷻ عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن، ما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا محمد ﷺ مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، زواها الله عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه

أقر بها؟ ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قدمك به، إلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه». وقال مالك بن دينار: «اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعني الدنيا».

س: اذكر بعض الأمثلة التي ضربها السلف للدنيا؟

ج: من أمثلة الدنيا: قال يونس بن عبيد: «شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه». ومثل هذا قولهم: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به. قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتاء عليها من كل زينة. فقال لها: «كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أوكلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى ﷺ: بؤساً لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر». وروي عن ابن عباس ؓ قال: «يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلق، فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها، فتنادى: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها». وعن أبي العلاء، قال: «رأيت في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة، والناس عكوف عليها متعجبون، ينظرون إليها، فقلت: من أنت وملك؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا، قالت: أنا الدنيا. فقلت: أعوذ بالله من شرك. قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم. وقال بعضهم: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة الخلقه حذباء». مثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاث: حال لم تكن فيها شيئاً، وهي قبل أن توجد. وحال أخرى، وهي من ساعة موتك إلى ما لا

نهاية له في البقاء السرمدي، فإن لنفسك وجودًا بعد خروجها من بدنك، إما في الجنة أو النار، وهو الخلود الدائم. وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهي أيام حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار ذلك، وانسبه إلى الحالتين، تعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا. ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها في ضرر وضيق، أوسع ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة. وقال: «ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب، قال تحت شجرة، ثم راح وتركها» [أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٩٠)]. قال عيسى عليه السلام: «الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها». هذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد هو الركن الثاني على آخر القنطرة. ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحد وهو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور، فمن وقف بينى على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها، فهو في غاية الجهل والحمق. وقيل: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا، ازداد عطشًا حتى يقتله. وكان بعض السلف يقول لأصحابه: «انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إنى رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش في مكانهم، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من حق» [أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣)].

س: وهل كل الدنيا مذمومة؟

ج: قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقًا، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب. وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تآقت منعوها، ظنًا منهم أن هذا هو الزهد المراد، وجهلاً بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلّة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول:

اعلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حظ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله ﷻ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضًا للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة على السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي الوسطى، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقتها.

وقد كان سفيان الثوري: «يأكل في أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه في السفر الفالوج». وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات، ويقول: «إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال». ولينظر في سيرة رسول الله ﷺ وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط

في حقوق النفس. وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم، والزهد فيه يكون.

## المال

س: هل المال مذموم؟

ج: المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الأدمي، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حله، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وفي «سنن الترمذي» عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلتا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» [أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣٥٧)، والترمذي (٢٣٧٦)، والدارمي (٢٧٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٢٠)]. وقد كان السلف يخافون من فتنه المال. وكان عمر ﷺ إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: «ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر لشر أراده الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له». وقال يحيى بن معاذ: «الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضع في حقه. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله».

س: ما الفوائد الدينية والدينيوية للمال الحلال؟

ج: قد بينا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خيراً، وهو قوام الأدمي. قال الله تعالى في أول سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: «لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه». وقال أبو إسحاق السبيعي: «كانوا يرون السعة عوناً على الدين». وقال سفيان: «المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين». وحاصل الأمر؛ أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فترياقه فوائده، وغوائله سمه، فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره. أما فوائده، فتنقسم إلى دنيوية ودينية: أما الدنيوية، فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها. وأما الدينية، فتنحصر في ثلاثة أنواع:

أحدهما: أن ينفقه على نفسه؛ إما في عبادة، كالحج والجهاد، وإما في الاستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرهما من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادة إلى به، فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هذا التنعم والزياد على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام:

أحدهما: الصدقة، وفضائلها كثيرة مشهورة.

القسم الثاني: المروءة، ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافته وهدية وإعانة ونحو ذلك، وهذا من الفوائد الدينية، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجوع الشعراء، وثلب السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهومن الفوائد الدينية، وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة، ويجرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع: ما يعطيه أجرًا على الاستخدام، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الانسان لمهنة أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعدر عليه سلوك

الآخرة بالفكر والذكر للذين هما أعلى مقامات السالك، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذلك غرضك، فإن تشاغلك به غبن؛ لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم، والعمل والذكر والفكر أشد.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلى معين، لكن يحصل به خيرًا عامًا، كبناء المساجد، والقطاير، والوقوف المؤبدة، فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالخطوط العاجلة، من الإخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقير، والعز بين الخلق، والكرامة في القلوب، والوقار.

وأما غوائل المال وآفاته، فتنقسم أيضًا إلى دينية ودنيوية:

أما الدينية فثلاث فئات:

الأولى: أنه يجبر إلى المعاصي غالبًا، لأن من استشعر القدرة على المعصية، انبعث داعيته إليها.

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصي، ومتى يبس الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها. ومن العصمة أن لا تجرد، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يحرك إلى التمتع في المباحات، حتى تصير له عادة وإفًا، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم الشبهات، ويترقى إلى آفات من المداينة والنفاق، لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهمه ماله عن ذكر الله تعالى، وهذا هو الداء العضال، فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى، والتفكير في جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلبًا فارغًا. وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرًا في

خصومة الفلاحين ومحاسبتهم خيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج والإجراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك.

وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكرًا في خيانتة شريكه، وتقصيره في العمل، وتضييعه المال. وكذا سائر أصناف المال، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه. ومن له قوت يوم بيوم فهو في سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف والحزن والهجم والغم والتعب.

فإذا تريباق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات.

### الحرص والطمع

س: تحدث عن ذم الحرص والطمع ومدح القناعة؟

ج: في «صحيح مسلم» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، وورق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه» [أخرجه مسلم (١٠٥٤)].

وقال سليمان بن داود عليه السلام: «قد جربنا العيش كله، لينه من شديده، فوجدناه يكفي منه أدناه».

وقال أبو حازم: «ثلاث من كن فيه كمل عقله، من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله ﷻ». وقرأ بعض الحكماء: «أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة».

أما الحرص، فقد نهى عنه رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس، أجهلوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له» [أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، والحاكم في «المستدرک» (٢١٣٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٣٢٣)].

وقال بعضهم: «لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غايتك؟ قال: الحرمان». وقيل: الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير.

س: وما علاج الحرص والطمع؟

ج: اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور: الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويرد نفسه إلى ما لا بد منه، فيقنع بأي طعام كان، وقليل من الإدام، وثوب واحد، ويوطن نفسه على ذلك، وإن كان له عيال، فيرد كل واحد إلى هذا القدر. وفي الحديث: «ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب» [أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥١٢٢)].

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر. وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا لله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لا يدرك عند الله إلا بطاعته» [أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٩٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٦/١٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٠٨٥)].

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يؤثر عز نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم، ويخبر عقله بين متشابهة أراذل العالمين، أو صفوة الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفاداً منه.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرنا في آفات المال، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا، وإلى من فوقه في الدين، كما جاء في الحديث من رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» [أخرجه مسلم].

عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء.

س: ومتى يستعمل العبد القناعة ومتى يستعمل الإيثار؟

ج: ينبغي لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا، ولمن وجدته أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف، فإن السخاء أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة.

وقال ابن السماك: «عجبت ممن يشتري الممالك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه؟!»

س: لو ذكرت بعض حكايات الأسخياء وأخبارهم؟

ج: قد صح عن النبي ﷺ أنه: «كان أجود بالخير من الريح المرسلة» [أخرجه البخاري (٣٥٥٤)، ومسلم (٢٣٠٨)]. وأنه: «ما سئل شيئاً قط فقال: لا» [أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (١٠١٦)]. «وأن رجلاً سأله، فأعطاه غنماً بين جبلين، فأتى الرجل

قومه، فقال: يا قوم: أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر» [أخرجه مسلم (٢٣١٢)]. وقيل: «كان لعثمان على طلحة رضي الله عنه خمسون ألف درهم، فخرج إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهبأ مالك فاقبضه، فقال: هولك يا أبا محمد معونة على مروءتك».

وجاء أعرابي إلى طلحة، فسأله، وتعرف إليه برحم، فقال: «إن هذه الرحم، ما سألتني بها أحد قبلك، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم».

وقال عروة: «رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفًا، وهي ترقع درعها». وروي: «أنها قسمت في يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس، فلما أمست قال: يا جارية علي فطوري، فجاءتها بخبز وزيت: فقالت لها أم درة: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟! فقالت: لو ذكرتني لفعلت». واشترى عبد الله ابن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: «ما هؤلاء؟ قالوا: سيكون على دارهم، قال: يا غلام: اتتهم، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعًا». وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وصف لي لبن البقر، فابعث لي بقرة أشرب من لبنها. فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها، وقال: «القرية التي كانت ترعى فيها لك».

ودخل علي بن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل يبكي: فقال: «ما شأنك؟ قال: علي دين، قال: كم؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، أو بضعة عشر ألف دينار. قال: فهي علي».

وبلغنا عن معن أن شاعرًا أقام ببابه مدة فلم يتهيا له لقاءه، فقال لبعض خدمه: «إذا دخل الأمير البستان فعرفني، قال: فلما دخل عرفه، فكتب الشاعر بيتًا على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، فلما بصر معن بالخشبة، أخذها، فإذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معنًا بحاجتي      فما لي إلى معن سواك شفيح

فقال من صاحب هذه؟ فدعا الرجل، فقال له: كيف قلت؟ فقال له، فأمر له بعشر بدر، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط، وقرأ ما فيها، ودعا الرجل، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى، فلما أخذها الرجل، خاف أن يعود فيستعيدها منه، فخرج، فلما كان اليوم الثالث، قرأ ما فيها، فدعا الرجل فطلبه فلم يوجد. فقال معن: حق علي أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار».

ومرض قيس بن سعد بن عبادة: فاستبطأ إخوانه، فقبل له، إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: «أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً، ينادي: من كان عليه لقيس حق، فهو منه في حل، قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده».

وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله: فأمر له بمائة ألف درهم، فبكى، فقال: سعيد: «ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى».

## البخل

س: اذكر بعض الأحاديث في ذم البخل؟

ج: قال ﷺ: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً» [أخرجه النسائي (٣١١٠)، (٣١١١)، (٣١١٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٦١٦)]. وفي أفراد مسلم، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل» [أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦)]. وروى جابر بن عبد الله، قال: قال النبي ﷺ لبني سلمة: «إن سيدكم؟ قالوا: جد بن قيس على أننا نبخله، قال: وأي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن

معرور» [أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٣)، والحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» (٤٩٦٥)، (٧٢٩٣)]. وعن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» [أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٤٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٤٥)]. قال الخطابي: الشح في المنع أبلغ من البخل.

س: لو ذكرت بعض الأقوال في ذم البخل؟

ج: قال بعض الحكماء: «من كان بخيلاً ورث ماله عدوه»، ووصف أعرابي رجلاً فقال: «لقد صغر في عيني لعظم الدنيا في عينه». وذم أعرابي قومًا فقال: «يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش».

س: اذكر بعض حكايات البخلاء؟

ج: روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان الحاجب رجلاً من أجل العرب، وكان بخيلاً، وكان لا يوقد نارًا بليل كراهة أن يراها راء فيتتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم إذا بصر بمستضيء بها أطفأها»، وقيل: كان مروان بن أبي حفصه من أبجل الناس، فخرج يريد المهدي، فقالت له امرأته: «ما لي عليك إن رجعت بالجائزة؟»

قال: إن أعطيت مائة ألف درهم، أعطيتك درهمًا، فأعطى ستين ألف درهم فأعطاهم أربعة دوانق».

وقيل: كان بعض البخلاء موسرًا كثيرًا الأموال، وكان ينظر في دقائق الأشياء فاشترى شيئًا من الحوائج، ودعا حملاً وقال: «بكم تحمل هذه الحوائج؟ قال: بجمبة. قال: أبجس. قال ما أقل من حبة؟ لا أدري ما أقول. قال: نشري بالحبة جزراً، فنجلس جميعًا فنأكله».

س: وما هي أرفع درجات السخاء؟

ج: أرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه. وأشد

درجات البخل، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال، ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل. فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يضعها الله ﷻ حيث يشاء. وليس بعد الإيثار درجة في السخاء. وقد أثنى الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٨] وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبي طلحة، لما أثار ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه، وحكايته مشهورة. واستشهد باليرموك عكرمة ابن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه. أتى عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل ابن عمرو ينظر إليه، فقال: «ابدأ بهذا، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم». وأهدي إلى الرجل من الصحابة رضي الله عنهم رأس شاة، فقال: «إن أخي أحوج إليه مني، فبعث به إلى رجل، فبعث به ذلك إلى آخر، حتى تداولته سبع أبيات، فرجع إلى الأول». خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيها، إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب، فدنا من الغلام فرمى إليه قرصاً فأكله، ثم رمى إليه قرصاً آخر فأكله، ثم رمى إليه ثالث فأكله، وعبد الله ينظر فقال: «يا غلام! كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم أثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده، قال: فما أنت صانع؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء وهذا أسخي مني، فاشتري الحائط وما فيه من الآلات، واشتري الغلام وأعتقه ووهبه له».

واجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للأكل، فلما رفع الطعام، إذا

هو بحالة، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه.

س: وما هو الحد الفاصل بين البخل والسخاء؟

ج: تكلم الناس في حد البخل والسخاء، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب، وأن من أدى ما يجب عليه، فليس ببخيل، وهذا غير كاف، فإن من لم يسلم إلى عياله إلا القدر الذي يفرضه الحاكم، ثم يضايقهم في زيادة لقمة أو تمر فإنه معدود من البخلاء، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب في الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل. فأما الواجب بالشرع، فهو الزكاة، ونفقة العيال. وأما اللازم بطريق المروءة، فهو ترك المضايقة، والاستقصاء عن المحقرات، فإن ذلك يستقبح، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يستقبح من الغني ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب، فالبخيل الذي يمنع ما لا ينبغي أن يمنع، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة. ومن قام بواجب الشرع، ولازم المروءة، فقد تبرأ من البخل، لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك.

قال بعضهم: الجواد: هو الذي يعطي بلا من. وقيل: هو الذي يفرح بالإعطاء. فأما علاج البخل، فاعلم أن سبب البخل حب المال. وحب المال سببان: أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل وله ولد، فإنه يقوم مقام طول الأمل.

الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به، ويفضل معه آلاف، ويكون شيخاً لا ولد له، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه، ولا بصدقة تنفعه، ويعلم أنه إذا مات أخذته أعداؤه، أوضاع إن كان مدفوناً، وهذا مرض لا يرجى علاجه. ومثال ذلك مثال رجل أحب شخصاً، فلما جاء رسوله، أحب الرسول ونسي محبوبه واشتغل بالرسول، فإن الدنيا رسول مبلغ إلى الحاجات، فيحب الدنانير لذاتها، وينسى الحاجات، وهذا غاية الضلال.

واعلم: أن علاج كل علة بمضادة سببها؛ فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت. ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن من خلقه خلق معه رزقه، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث. فليحذر أن يترك لولده الخير، ويقدم على الله بشر، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه، وإن فاسقاً فلا يترك ما يستعين به على المعاصي، وليردد على سمعه ما ذكرناه في ذم البخل ومدح السخاء.

واعلم: انه إذ كثرت المحبوبات في الدنيا، كثرت المصائب بفقدائها، فمن عرف آفة المال لم يأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل، والله أعلم.

### الرياء

س: وضح خطر الرياء؟

ج: هذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد، وإنما يبتي بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات، لم تطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابته النفس في ذلك لذة عظيمة، فاحتقرت فيها ترك المعاصي، فأحدهم يظن أنه مخلص لله ﷻ، وقد أثبت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون. ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة، وإذا كان ذلك هو الداء الدفين، الذي هو أعظم شبكة للشياطين.

س: وما الأسباب الباعثة على الرياء؟

ج: اعلم: أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم، والسلامة في الخمول. وأهل الخير لم يقصدوا الشهوة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى، فروا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: «علام تتبعوني؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلاً». وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع. وكان أبو العالية رضي الله عنه: «إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام» [أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٣١٦)، وأحمد بن حنبل في «العلل ومعرفة الرجال» (٢٩٨٤)، وأبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٢١٨/٢)].

وكان خالد بن معدان رضي الله عنه: «إذا عظمت حلقتي، قام وانصرف كراهة الشهوة». وقال الزهري رضي الله عنه: «ما رأينا الزهد في شيء أقل من في الرياسة، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة، حامي عليها وعادي». قال رجل لبشر الحافي رضي الله عنه: أوصني، فقال: «أخمل ذكرك، وطيب مطعمك. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس». وقد روي في «صحيح مسلم» أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو في غنم له خارجاً عن المدينة، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الركب، فلما أتاه قال: يا ابت أنزلت في إيلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ ف ضرب سعد في صدره وقال: اسكت، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي» [أخرجه مسلم (٢٩٦٥)].

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يوصي أصحابه، فيقول: «كونوا يتابع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في السماء، وتخفون على أهل الأرض». فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير

طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه، فأما السابح النحرير، فإن تعلق الغرق به سبب لنجاتهم وخلصهم.

س: لو وضحت العلاقة بين حب الجاه والمال؟

ج: الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها، والتصرف فيها. فالجاه هو قيام المنزلة في قلوب الناس، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال في هذا الشخص إما علم أو عبادة، أو نسب أو قوة، أو حسن صورة، أو غير ذلك مما يعتقد الناس كما لا يفقد ما يعتقدون له من ذلك، تدعن قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته، وتوقيره.

فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع، وأنه أبلغ من حب المال، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات، فاشترك الجاه والمال في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، والجاه في ذلك أرجح من المال. وأعلم: أن من الجاه ما يحمده وما يذمه، لأن من المعلوم أنه لا بد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما، فكذلك لا بد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة إلى سلطان مجرسه، ورفيق يعينه، وخادم يخدمه، فحبه ذلك ليس بمذموم، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض، كالمال.

والتحقيق في هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانها، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغرض صحيح، كقول يوسف عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥] أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لثلا تزول منزلته، كان ذلك مباحاً، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه، كالعلم، والورع، والنسب، فذلك محذور. وكذلك لو حسن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع، فإنه يكون مراثياً بذلك، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير، ولا تملك المال بتلبيس.

س: وما علاج حب الجاه؟

ج: من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغولاً بالتردد إليهم، والمرأة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق، وأصل الفساد، لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو حاله عنه، ويجر ذلك إلى المراءاة بالعبادات واقتحام المحظورات، والتوصل إلى اقتناص القلوب. ولذلك شبه الرسول ﷺ حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئيين ضارين أرسلا في غنم.

فحب الجاه إذاً من المهلكات، يجب علاجه، وعلاجه مركب من علم وعمل، أما الأول، فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه، هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون في آخره الموت، فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه في الدنيا، من تطرق الحسد إليهم، وقصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب. والقلوب أشد تغيراً من القدرة في غلبانها، فلا اشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة، مكدره لحفظ الجاه، فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها، فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث العمل، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك، كما روي أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد، فلما قرب منه، استدعى طعاماً وبقلاً ولبناً، وجعل يأكل بشره، ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه. ولما أريد إبراهيم النخعي على القضاء لبس قميصاً أحمر وقعد في السوق.

واعلم: أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم، فإذا خاف من تلك الفتنة، فليخالطهم على وجه السلامة، وليمش في الأسواق، وليشتر حاجته ويحملها، وليقطع طمعه من دنياهم، وقد تم مراده. وكان بشر الحافي يجلس إلى عطار، وكانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم.

س: وضع خطورة الاهتمام بمدح الناس وذمهم؟

ج: أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس، رجاء المدح، وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فوجبت معالجته. وطريق ذلك أن تنظر إلى الصفة التي مدحت بها، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو: إما أن يكون مما يفرح به كالعلم والورع، أو مما لا يصلح أن يفرح به، كالجاه والمال.

أما الأول، فينبغي أن يحذر من الخاتمة، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس. وأما القسم الثاني، وهو المدح بسبب الجاه والمال، فالفرح بذلك، كالفرح بنبات الأرض الذي يصير عن قريب هشيمًا، ولا يفرح بذلك إلا من قل عقله، وإن كنت خاليًا عن الصفة التي مدحت بها، ففرحك بالمدح غاية الجنون.

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم في كتاب آفات اللسان، فلا ينبغي أن تفرح به، بل تكرهه، كما كان السلف يكرهونه، ويغضبون على فاعله. وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح، فإنه ضده، والقول الوجيز فيه أن من ذمك، إما أن يكون صادقًا فيما قال، قاصدًا للنصح لك، فينبغي أن تتقصد منه، ولا تغضب، فإنه قد أهدى إليك عيوبك، وإن لم يقصد بذلك النصح، فإنه يكون قد جنى هوعلى دينه، وانتفعت بقوله، لأنه عرفك ما لم تكن تعرف، وذكرك من خطاياك ما نسيت، وإن افترى عليك بما أنت منه بريء، فينبغي أن تتفكر في ثلاثة أشياء:

أحدهما: أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخل من أمثاله، فما ستر الله ﷻ عليك من عيوبك أكثر، فاشكره إذ لم يطلعك على عيوبك ودفعه عنك فذكر ما أنت عنه بريء.

الثاني: أن ذلك كفارات لذنوبك.

الثالث: أنه جنى على دينه، وتعرض لغضب الله عليه، فينبغي أن يسأل الله

العفوعته، كما روي أن رجلاً شج إبراهيم بن أدهم، فدعا له بالمغفرة وقال: صرت مأجوراً بسببه، فلا أجعله معاقباً بسببي، وقد تقدمت هذه الحكاية في فضل الحلم.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الرياء؟

ج: قد ورد ذم الرياء في الكتاب والسنة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الماعون: ٤-٦] وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].  
وأما الأحاديث، فقد روي عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» [أخرجه مسلم (٢٩٨٥)]. وفي حديث آخر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: يا رسول الله: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم خيراً» [أخرجه أحمد (٢٣١١٩)، (٢٧٧٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٥٥٥)]. وقال بشر الحافي: «لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إلي من أن أطلبها بالدين». واعلم: أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، فالمرائي يرى الناس ما يطلب به الخطوة عندهم وذلك أقسام.

س: اذكر أقسام الرياء، مع تفصيل القول في كل نوع، وبيان خطره؟

ج: الأول: الرياء في الدين، وهو أنواع:

أحدهما: أن يكون من جهة البدن، بإظهار النحول والصفار، ليريم بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وكذلك يراني بتشعث الشعر، ليظهر أنه مستغرق فيهم الدين، لا يتفرغ لتسريح شعره.

ويقرب من هذا خفض الصوت، وإغارة العينين، وذبول الشفتين، ليدل بذلك

على أنه مواظب على الصوم، ولهذا قال عيسى بن مريم عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويرجل شعره. وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين.

وأما أهل الدنيا، فيراؤون بإظهار السمن، وصفاء اللون، واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن.

النوع الثاني: الرياء من جهة الزي، كالإطراق حالة المشي، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف، وتشمير الثياب كثيرًا، وتقصير الأكمام، وترك الثوب محرقًا غير نظيف. ومنه التفتيح فوق العمامة، لتصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة. وهؤلاء طبقات، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح، بإظهار التزهد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة، ليرائي بذلك، ولو كلف هذا أن يلبس ثوبًا وسطًا نظيفًا مما كان السلف يلبسونه، لكان عنده بمنزلة الذبح، لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد، وقد رجع عن تلك الطريقة. وطبقة أخرى: يطلبون القبول عند أهل الصلاح، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء أهل الصلاح، ولولبسوا المخرقة الدنية لآزدرتهم الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فيطلبون الأثواب الرقيقة، والأكسية الرفيعة والفوط الرفيعة فيلبسونها، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغني، ولونه وهيبته لون ثياب الصالحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين.

وهؤلاء لو كلفوا لبس خشن أو وسخ، لكان عندهم كالذبح، خوفًا من السقوط في أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك، لعظم ذلك عليهم، خوفًا من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح، وكل مرآة بزى مخصوص ثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفًا من المذمة. وأما أهل الدنيا، فمرآتهم بالثياب النفيسة، والمراكب الحسنة، وأنواع التجميل في الملابس والمسكن

وأثاث البيت، وهم في بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة، ويشتد عليهم أن يروا بتلك المنزلة.

النوع الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار، لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاحح في الكلام ونحو ذلك.

النوع الرابع: الرياء، كمرأة المصلي بطول القيام، وتطويل الركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك.

وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم، بالتبخر، والاختيال، وتحريك اليدين، وتقريب الخطي، والأخذ بأطراف الذيل، وإمالة العطفين، ليدلوا بذلك على الخشمة.

النوع الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً، ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، وإن أهل الدين يترددون إليه، ويتبركون به، وكذلك من يرئى بكثرة الشيوخ، ليقال: لقي شيوخاً كثيرة، واستفاد منهم، فيباهي بذلك، فهذه مجامع ما يرئى به المراؤون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

ومنهم من يطلب مجرد الجاه، وكم من عابد اعتزل في جبل، وراهب انزوى إلى دير، مع قطع طمعهم من مال الناس، لكنه يجب مجرد الجاه.

ومنهم من يكون قصده المال، ومنهم من قصده الشناء وانتشار الصيت. فإن قيل:

هل الرياء حرام، أم مكروه، أم مباح؟

فالجواب: أن فيه تفصيلاً، وهو إما أن يكون بالعبادات، أو غيرها، فإن كان الرياء بالعبادات، فهو حرام، فإن المرأي بصلاته وصدقته وحجته، ونحو ذلك، عاص آثم، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده، فالمرأي بذلك في سخط الله.

وأما إن كان بغير العبادات، فهو كطلب المال على ما تقدم، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتليسات وأسباب محظورة، فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليها الإنسان محمود، فكذلك الجاه، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام في قوله: ﴿إِنِّي خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٥٥] ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثرت، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحو ما ذكرنا في المال. وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه، ومن غير اغتمام بزواله وإن زال، فلا ضرر فيه، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وعلماء الدين بعده، ولكن انصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان في الدين، ولا يوصف بالتحريم. وتحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس، إنما هو ليراه الناس، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال: إنه منهى عنه.

وقد تختلف المقاصد بذلك، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص في حال. وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: غن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنة، ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» [أخرجه مسلم (٩١)]. ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه، وقد أمر رسول الله ﷺ بذلك.

س: وما هي أبواب الرياء، وما هي درجاته؟

واعلم: أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض، لأنه درجات.

أشدّها وأغلظها: أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين

الناس، ولو انفرد لم يصل.

الدرجة الثانية: أن يقصد الثواب مع الرياء قصدًا ضعيفًا بحيث لو كان خاليًا لم يفعله، فهو قريب من القسم الأول في كونها ممقوتين عند الله تعالى.

الثالثة: أن يكون قصد الرياء، وقصد الثواب متساويين، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يعثه على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، ولا يسلم من الإثم.

الرابعة: أن يكون اطلاع الناس عليه مقويًا لنشاطه، ولولم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة، فهذا يثاب على قصده الصحيح، ويعاقب على قصده الفاسد، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذي يصلي وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن ذلك فهذا أيضًا من الرياء المحذور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات.

س: ما هو الرياء الخفي وما خطورته؟

ج: اعلم أن الرياء جلي وخفي. فالجلي: هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه. وأخفى منه قليلاً رياء لا يبعث على العمل بمجرد، لكن يخفف العمل الذي أريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه. وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل، لكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومتى لم يؤثر الدعاء في العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أنه يسر بإطلاع الناس على طاعته، فرب عبد مخلص يخلص العمل، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويتم العمل على ذلك، لكن هذا أطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة، فهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح، ولولا الالتفات إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فيعلم أن الرياء كان مستكنًا في القلب استكنان النار في الحجر، فأظه منه اطلاع الناس أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذلك

بكرهه، بل قد يتحرك حركة خفيفة، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح.

وقد يخفي، فلا يدعوا إلى الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً، ولكن بالشمائل كإظهار النحول، والصفار، وخفض الصوت، ويس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يخفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر في ذلك مقصر، ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها.

ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر، ولا يسلم منه إلا الصديقون.

وقد روينا عن وهب بن منبه، أن رجلاً من العباد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وأنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن ألدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحب أن تقضي لمكان دينه: وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكبه، فإذا السهل والجليل قد امتلأ من الناس، فقال العابد: ما هذا؟ قيل: هذا الملك، فقال لصاحبه: اتني بطعام. فأتاه ببقل وزبيب وقلوب الشجر، فجعل يحشو شذقيه ويأكل أكلاً عنيفاً، فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، فقال: كيف أنت؟ قال: كالناس، فقال الملك: ما عند هذا خير، وانصرف عنه، فقال: الحمد لله الذي صرفه عني وهولي لاثم.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة الناس عن

أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته أولاً يطلع، ففيه شعبة من الرياء، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر ومفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قيل: فما ترى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته، فهل جميع ذلك مذموم؟

فالجواب: أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم:

فالمحمود: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيسر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به، حيث كان يستر الطاعة والمعصية، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة، وستر عليه المعصية، ولا لطف أعظم من ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فرحة بذلك، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، أو يستدل بإظهار الله الجميل، وستر القبيح عليه في الدنيا، أنه كذلك يفعل به في الآخرة، فإنه قد جاء معنى ذلك في الحديث [أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨)].

فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه، فهذا مكروه ومذموم.

فإن قيل: فما وجه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطلع عليه، أعجبه، فقال: «له أجران: أجر السر، وأجر العلانية» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٤)، وابن ماجه (٤٢٢٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» برقم (٤٧٨٧)، وقال «ضعيف»].

فالجواب: أن هذا الحديث ضعيف، وقد رواه الترمذي، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه: أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير، لقوله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض» [أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)]. وقد روي في أفراد مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» [أخرجه مسلم (٢٦٤٢)].

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرمونه عليه، فهذا رياء.

س: لو أمكن بيان ما يحبطه الرياء من العمل؟

ج: إذا ورد على العبد وارد الرياء، فلا يخلو: إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه، فهذا لا يحبط العمل، لأنه قد تم على نعت الاخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهار والتحدث به، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره، فهذا مخوف، والغالب عليه أنه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء، فإن سلم من الرياء نقص أجره، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة.

وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة، كالصلاة التي عقدها على إخلاص فإن كان مجرد سرور، لم يؤثر في العمل، وإن كان رياء باعثاً على العمل، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه، فهذا يحبط الأجر.

وأما ما يقارن العبادة، مثل أن يتدبى الصلاة على قصد الرياء، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها، وإن ندم فيها على فعله، فالذي ينبغي له أن يتدبىها، والله أعلم.

س: وما هو دواء الرياء، وكيف السبيل إلى علاجه والتخلص منه؟

ج: قد عرفت أن الرياء محبط للأعمال، وسبب لمقت الله تعالى، وأنه من المهلكات، ومن هذا حاله، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته.

وفي معالجته مقامان:

أحدهما: في قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: في دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فصل، رجع غلى ثلاثة أصول.

وهي حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس. ويشهد لذلك ما في «الصحيحين» من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاقل حمية، ويقاقل رياء، فأبي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله» [أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)].

فمعنى قوله: «يقاقل شجاعة» أي: ليذكر ويحمد، ومعنى قوله: «يقاقل حمية» أي: يأنف أن يقهر أو يذم، ومعنى: «يقاقل رياء» أي: ليرى مكانه، وهذا هولذة الجاه والمنزلة في القلوب.

وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولكنه يحذر من الذم، كالجبان بين الشجعان، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم. وقد يفتي الإنسان بغير علم حذرًا من الذم بالجهل، فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك إلى الرياء.

وعلاجه أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع، إما في الحال أو المآل، فإن علم أنه لذيد في الحال ضار في المآل، سهل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة، كمن يعلم أن العسل لذيد، ولكن إذا بأن أن فيه سمًا، أعرض عنه، فكذلك طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرة، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، ومن المنزلة في الآخرة، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزي، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة

قلوب الخلق، فإن رضي الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضي به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله، سخط الله عليه وأسخطهم عليه. ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم؟ ولا يزيد مدحهم رزقًا ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته. وكذلك ذمهم لم يحذرمنه؟ ولا يضره ذمهم شيئاً ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، فإن العباد كلهم عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإذا قرر هذا في نفسه، فترت رغبته في الرياء، وأقبل على الله تعالى بقلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقتل نفعه. وأما الطمع فيما في أيدي الناس، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنه لا رازق سواه، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد، لم يخل من المنة والمهانة، فكيف بترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد.

ومن الدواء النافع أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونهما، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال، وذلك يشق في بداية المجاهدة، فإذا صبر عليه مدة بالتكليف، سقط عنه ثقله، وأمدته الله بالعون، فعلى العبد المجاهدة، ومن الله التوفيق.

المقام الثاني: في دفع العارض من الرياء أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه من أعين الناس، واحتقار مدحهم وذمهم، فإن الشيطان لا يتركه في أثناء العبادة، بل يعارضه بمخاطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته وإطلاعهم عليها، دفع ذلك بأن يقول: مالك وللخلق علموا أولم يعلموا، والله عالم بمالك، فأني فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد، ذكرها آفات الرياء والتعرض للمقت، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت، فإن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة، ومعرفة آفة

الرياء تثير كراهة.

س: ما هو تقسيم الأعمال من حيث الجهر بها والإسرار؟

ج: فاعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس في الخير.

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد.

والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي، بل ينوي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به، فهلكوا وهلك معهم.

فأما من قوي وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، فلا بأس بالإظهار له، لأن الترغيب في الخير خير.

وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقنتدي بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: لا تبكوا علي، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت.

وقال أبو بكر بن عياش رضي الله عنه لابنه: «إياك أن تعصي الله تعالى في هذه الغرفة، فإني ختمت فيها اثني عشرة ألف ختمة».

ونحو ذلك كثير من كلامهم، والله أعلم.

وأما الرخصة في كتمان الذنوب، [فربما ظن ظان أن كتمان الخطايا رياء، وليس كذلك فإن الصادق] الذي لا يرأي إذا وقعت منه معصية، كان له سترها، لأن الله يكره ظهور المعاصي ويجب سترها.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات، فليستر بستر الله ﷻ» [أخرجه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» (٧٦١٥)، (٨١٥٨)، والبيهقي في «السنن

الكبرى» (٣٣٠/٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٤٩).  
فهذا وإن عصي بالذنب، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ﷻ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان.

وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضًا، فهذا أثر الصدق فيه.  
ومن ذلك أن يكره ذم الناس له، من حيث أن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم، وبهذه العلة أيضًا ينبغي أن يركه المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى، ويستغرق قلبه، ويصرفه عن الذكر، فإن هذه أيضًا من قوة الإيمان.

س: ما حكم ترك الطاعات خوفًا من الرياء؟

ج: ترك الطاعات خوفًا من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك، لأنه معصية لا طاعة فيه.  
وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصًا، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين.

وكذلك إذا ترك العمل خوفًا من أن يقال: إنه مرء، فلا ينبغي ذلك، لأنه من مكائد الشيطان. قال إبراهيم النخعي: «إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال: إنك مرء، فزدها طولًا». وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفًا من الرياء. كما روي عن إبراهيم النخعي أن إنسانًا دخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة، وقال: لا يراني هذا أي أقرأ كل ساعة، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا.

س: وماذا لو نشط الإنسان في العمل والعبادة إذا كان بصحبة الناس هل هذا من الرياء؟

ج: قد يبيت الرجل مع المتجهدين، فيصلون أكثر الليل، وعادته قيام ساعة،

فيوافقهم، أويصومون فيصوم، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط. فربما ظن ظان أن هذا رياء، وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفصيل، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى، ولكن تعوقه العوائق، وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة واندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء ومع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب، اندفعت هذه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث على الخير، منها مشاهدة العابدين.

وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم، بخلاف غيره، ففي مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرئياً، فلا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما ينبغي أن ينظر إلى قصده الباطن، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان.

ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء، وقس على هذا. فهذه جملة آفات الرياء، فكن بحاثاً عنها، وتفقد نيتك، فإن الرياء أخفى من ديبب النملة. وينبغي لطالب الآخرة أن يلزم قلبه القناعة بعلم الله في جميع طاعته، وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه، ولا ينبغي أن يؤيس نفسه من الإخلاص بأن يقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، وأنا مع المخلطين، فيترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أحوج.

قال إبراهيم بن أدهم: «تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت على صومعته فقلت له: منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: ما طعامك؟ قال: كل ليلة حمصة، قلت: فما الذي يبيح من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الذين بجذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظموني بذلك، فكلما تناقلت نفسي عن العبادة، ذكرت عذ تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوفر في قلبي المعرفة، فقال: أزيدك؟ قلت: نعم،

قال: انزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى إلي ركوة فيها عشرين حمصة، ثم قال لي: أدخل الدير، فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير، اجتمعت النصارى فقالوا: يا حنفي، ما الذي أدلى الشيخ؟ قلت: شيئاً من قوته. قالوا: وما تصنع به؟ نحن أحق به، ساوم به. قلت: عشرون ديناراً، فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعت إلى الراهب، فقال: أخطأت، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك، هذا عز من لا يعبد، فانظر كيف يكون عز من يعبد، يا حنفي أقبل على عبادة ربك».

فقد بان بهذا أن استشعار النفوس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً إلى الخلوة، فهذه آفة عظيمة، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهايم بمثابة واحدة، ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردها الله، والله تعالى أعلم.

## الكبر

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الكبر؟

ج: قال الله تعالى: ﴿سَاءَ صِرْفُ عَنِ النَّبِيِّ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]. وفي الحديث الصحيح من أفراد مسلم، ان رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» [أخرجه مسلم (٩١)].

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ قال: «قالت النار: أوثرت بالمتكبرين» [أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)]. وعنه ﷺ أنه قال: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر، يطوهم الناس لهوانهم على الله ﷻ». وقال سفيان بن عيينة رحمة الله: «من كانت معصيته في شهوة، فارج له التوبة، فإن آدم ﷺ عصى مشتهياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخش عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن».

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن أحد شقي إزاري ليسترخي، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «لست ممن يصنعه خيلاء» [أخرجه البخاري (٥٧٨٤)، ومسلم (٢٠٨٥)].

واعلم: أن الكبر خلق باطن تصدر عن أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعني نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرًا.

وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجبًا، ولا يتصور أن يكون متكبرًا، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حقر من دونه وازدراه، وصفة هذا المتكبر، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالًا واستحقارًا.

وأفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء. وكيف لا تعظم آفته، وقد أخبر النبي ﷺ: أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. وإنما صار حجابًا دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يجب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه. ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له. وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [ابراهيم: ١٠] وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله.

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضًا يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم ﷺ أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود.

وقد شرح رسول الله ﷺ الكبر فقال: «الكبر: بطر الحق وغمط الناس». ومعنى غمط الناس: الازدراء بهم، واستحقارهم. ويروى: غمص الناس، بمعنى غمط الناس.

س: ما هي درجات وأقسام الناس في الكبر؟

ج: اعلم: أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقرًا في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها. الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصغر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعباد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلاً ما أدب الله به نبيه ﷺ، حين قال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوي والمفاخر، وتركية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً.

قال ابن عباس: «يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى». قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم.

والتكبر بالجمال أكثر ما يجري بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب.

وأما التكبر بالاتباع والأنصار، فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً، فإن لم يكن في نفسه كمالاً، أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور، لظنه أن ذلك كمال.

س: وما أمارات الكبر وعلاماته؟

ج: التكبر يظهر في شمائل الإنسان، كصعر وجهه، ونظرة شزرًا، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومتكئًا، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضًا في مشيه وتبخره، وقيامه وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

س: لو ذكرت بعض خصال المتكبرين؟

ج: من خصال المتكبر: أن يجب قيام الناس له.  
والقيام على ضربين:

قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهي عنه، قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار» [أخرجه الترمذي (٢٧٥٥)، وأبو داود (٥٢٢٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٩٥٧)]. وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

الثاني: قيام عند مجيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

قال أنس: «لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك».

وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين والإمام العادل، وفضلاء الناس، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه، لم يأمن أن ينسبه إلى إهانتة، والتقصير في حقه، فيوجب ذلك حقدًا.

واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك، ويرى أنه ليس بأهل لذلك. ومن خصال المتكبر: أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه.

ومنها أن لا يزور أحدًا تكبرًا على الناس.

ومنها أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.

وقال ابن وهب: «جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد، وإن فخذي لتمس فخذه فتحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرتني إليه وقال: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف منكم رجلًا شرًا متى؟!»

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ. ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته،: «وقد اشترى رسول الله ﷺ شيئًا وحمله»، وكان أبو بكر ﷺ: «يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها». «واشترى عمر ﷺ لحمًا فعلقه بيده وحمله إلى بيته». واشترى علي ﷺ تمرًا فحمله في ملحفة، فقال له قائل: أحمل عنك؟ قال: «لا، أبو العيال أحق أن يحمل».

وأقبل أبو هريرة ﷺ يومًا من السوق وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة مروان، فقال لرجل: «أوسع الطريق للأمير».

ومن أراد أن ينفي الكبر، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله ﷺ، وقد سبقت الإشارة إليها في كتاب «آداب المعيشة».

س: وما السبيل إلى علاج الكبر ومداواته؟

ج: اعلم: أن الكبر من المهلكات، ومداواته فرض عين، ولك في معالجته مقامان:

الأول: في استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من علقه، ثم من مضغة، فقد صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان جمادًا لا يسمع ولا يبصر، ولا

يحس ولا يتحرك، فقد ابتداءً بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه. وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقْتُمْ ۖ (١٨) مِنْ نَفْثَةٍ خَلَقْتُمْ فَقَدَرْتُمْ﴾ [عبس: ١٨، ١٩] ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُرُ﴾ [عبس: ٢٠]، وبقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الذمر: ٢] فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهده وقواه. فمن هذا بدايته، فأى وجه لكبره وفخره؟ على أنه لودام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة، والأمراض الهائلة، بينما بنياته قد تم، إذ هو قد وهى وتهدم، لا يملك الشيء لنفسه ضرًا ولا نفعًا، بينما هو يذكر الشيء فينساه، ويستلذ الشيء فيرديه، ويروم الشيء فلا يناله، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة.

هذا أوسط حاله، وذاك أول أمره، وأما آخر أمره، فالموت الذي يعده جمادًا كما كان، ثم يلقي في التراب فيصير جيفة منتنة، وتبلى أعضاؤه، وتنخر عظامه، ويأكل الدود أجزاءه، ويعود ترابًا يعمل منه الكيزان، ويعمر منه البنيان، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاءه المتفرقة، ويحضر عرضه القيامة، فيرى أرضًا مبدلة، وجبالًا مسيرة، وسماء منشقة، ونجومًا منكدره، وشمسًا مكورة، وأحوالًا مظلمة، وجحيمًا تزفر، وصحائف تنشر، ويقال له: ﴿أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

فيقول: وما كتابي؟ فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل، من قليل وكثير، وقيام وقعود، وأكل وشرب، وقد نسيت ذلك، وأحصاه الله تعالى، فهلم إلى الحساب عليه، وأعد جوابًا له، وإلا فأنت تساق إلى النار، فما لمن هذه حاله التكبر؟ فإن صار إلى النار، فالبهائم أحسن حالًا منه، لأنها تعود إلى التراب، ومن هذا حاله وهو على شك من العفوعن أخطائه، كيف يتكبر؟! ومن الذي يسلم من ذنب يستحق به العقوبة، وما مثله إلا كمثل رجل جنى على ملك جناية استحق أن يضرب لأجلها ألف سوط، فحبس في السجن ليخرج ليعاقب، وهو منتظر أن يدعي به لذلك. أفتراه يتكبر على أهل

السجن؟ وهل الدنيا إلا سجن، وهل المعاصي إلا موجبة للعقاب؟  
وأما معرفة ربه، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته، فتلوح له  
العظمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر.  
ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده، وذلك بالمواظبة على  
استعمال خلق المتواضعين، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله ﷺ، وما كان  
عليه من التواضع والأخلاق الجميلة.

المقام الثاني: فيما بعرض من التكبر بالأنساب، فمن اعتراه الكبر من جهة  
النسب، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة  
قذرة، وأباه البعيد تراب، ومن اعتراه الكبر بالجمال، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء،  
ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومن اعتراه من جهة القوة، فليعلم أنه لو آله عرق،  
عاد أعجز من كل عاجز، وإن همي يوم تحلحل من قوته ما لا يعود في مدة، وأن  
شوكة لودخلت في رجله لأعجزته، وبقة لودخلت في أذنه لأقلقتة.

ومن تكبر بسبب الغنى، فإذا تأمل خلقًا من اليهود، وجدهم أغنى منه، فأف  
لشرف تسبق به اليهود، ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً. ومن تكبر  
بسبب العلم، فليعلم أن حجة الله على العالم أكد من الجاهل، ولتفكر في الخطر  
العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من  
قدر غيره. وليعلم أيضًا أن الكبر لا يليق بالله سبحانه، وأنه إذا تكبر صار ممقوتًا  
عند الله تعالى بغيضًا عنده. وقد أحب الله منه أن يتواضع، وكذلك كل سبب يعالجه  
بنقيضه ويستعمل التواضع.

واعلم: أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط:  
فطرفه الذي يميل إلى الزيادة تكبرًا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى نخاسًا  
ومذلة.

والوسط يسمى تواضعًا، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مذلة، فخير

الأمور أو ساطها، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن تأخر عنهم، فهو متواضع، لأنه قد وضع شيئاً من قدره، فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أو نحوه، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب، فقد تحاسس وتذلل، فذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال واللين في الكلام، وإجابة الدعوة، والسعي في الحاجة، ولا يحقره، ولا يستصغره، والله أعلم.

### العجب

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في ذم العجب؟

ج: روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» [أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨)].

وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوي متبع، وإعجاب المرء بنفسه» [أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٤٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٤٥)].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «الهلاك في شيئين: العجب، والقنوط، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى».

قال مطرف رضي الله عنه: «لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً».

واعلم: أن العجب يدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعات

نتيجة استعظامها، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتا المفسدة لها.

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها. والعجب إنما يكون يوصف كمال من علم أو عمل، فإن إنصاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله إدلالاً، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به، والإدلال يوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده.

واعلم: أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك، فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعمله، ولا جميل بجماله، ولا غني بغناه إذ كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه، وكونه محلاً له نعمة أخرى.

فإن قلت: إن العمل حصل بقدرتك، ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك، فمن أين قدرتك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله تعالى، وما لم تعط المفتاح لا يمكنك العمل، كما لو قعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها غلا أن تعطى مفتاحها.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أنا يتغمدني الله برحمته وفضل» [أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦)].

س: وما أسباب العجب وما علاجه؟

ج: اعلم: أن العجب يكون بالأسباب التي بها يقع الكبر، وقد سبق ذكرها وعلاجها. ومن ذلك العجب بالنسب، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آبائه، وظن أنه ملحق بهم، فقد جهل. وإن اقتدى بهم، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم، بل الخوف والإزراء على النفس.

وإنما شرفوا بالطاعة المحمودة، لا بنفس النسب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَعَكُمْ ﴿[الحجرات: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «يا فاطمة، لا أغني عنك من الله شيئاً».

فإن قلت: إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذو قرابته.

فالجواب: أن كل المسلمين يرجون الشفاعة، وقد يشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار، وقد يقوي الذنب فلا تنجي الشفاعة.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثنني. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك» [أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١)]. ومثل المنهمك في الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة، كمثّل المريض المنهمك في الشهوات، اعتماداً على طبيبه الحاذق المشفق، وذلك جهل، فإن اجتهاد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها. ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة، فكيف يتكل من ليس في مثل مراتبهم؟!.

ومن ذلك العجب بالرأي الخطأ، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. وعلاج هذا أشد من علاج غيره، فإن هذا متى كان معجباً برأيه لم يصغ إلى نصح ناصح، وكيف يترك ما يعتقدُه نجاة؟! وإنما علاجه في الجملة أن يكون متهماً لرأيه ابداً، لا يعتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة.

والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر في العلم أن لا يخوض في المذاهب، ولكن يقف عند اعتقاد الجمل، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿، وأن رسوله صادق فيما جاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير، ويصرف زمنه في التقوى، وأداء الطاعات، فمضى خاض في المذاهب ورام ما لا يصل إلى معرفته، هلك.

## الغرور

س: وماذا عن الغرور وخطره؟

ج: من الناس من غرته الدنيا، فقال: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد، والآخرة نسيئة، وهذا محل التليس، فإن النقد لا يكون خيرًا من النسيئة، إلا إذا كان مثل النسيئة. ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخر ليس بجزء من ألف جزء إلى أن ينقطع النفس، وإنما أراد من قال: النقد خير من النسيئة، إذا كانت النسيئة مثل النقد، وهذا غرور الكفار.

فأما ملابسو المعاصي مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد.

ومن العصاة من يغتر، فيقول: إن الله كريم، وإنما نتكل على عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم. وقد قال العلماء: من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهو مغرور.

وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يضره كفرهم، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عبادة في الدنيا، وهوسبحانه قادر على إزالتها، ثم خوفنا من عقابه، فكيف لا تخاف؟! فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور. يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي.

والعجب أن أصحاب القرن الأول عملوا وخافوا، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون. ولو كان هذا الأمر يدرك بالمتى، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم؟! وهل ذم أهل

الكتاب بقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، إلا لمثل هذا الحال؟!

وأما من اغتر بصلاح آبائه، فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام مع ابنه، وإبراهيم عليه السلام مع أبيه، ومحمد مع أمه عليها السلام وعلى سائر النبيين.

ويقرب من هذا الغرور، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصي، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يظنون أن حسناتهم ترجح، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغضب أضعاف ذلك، ولعل الذي تصدق به من المغصوب، ويتكل على تلك الصدقة، وما هو إلا كمن وضع درهماً في كفه وألفاً في أخرى، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف.

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه على سيئاته، ولا يتفقد ذنوبه، كالذي يستغفر الله ويسبحه مائة مرة في اليوم ثم يظل طول نهاره يفتاب المسلمين، ويتكلم بما لا يرضي، فهو ينظر في فضائل التسييح والاستغفار، ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه.

س: لو ذكرت أكثر أصناف الناس التي يقع فيها الغرور؟

ج: يقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف:

العلماء، والعباد، والمتصوفة، والأغنياء.

الصنف الأول: العلماء:

فأما أهل العلم، فالمغتترون منهم فرق:

منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغترتوا بعلمهم، وظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل، ولولا العمل لم يكن له قدر. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّهَا﴾ [الشمس: ٩] ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في

العالم الفاجر، كقوله تعالى: ﴿فَتَلَّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، و: ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ [الجمعة: ٥].  
ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة منها، كالكبر والحسد والرياء، وطلب العلو، وطلب الشهرة، فهؤلاء زينوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [أخرجه مسلم (٢٥٦٤)].  
فتعاهدوا الأعمال، ولم يتعاهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، هذا لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعا، فنبت ونبت معه حشيش يفسده، فأمر بقلعه، فأخذ يجر رؤوسه وأطرافه ويترك أصوله، فلم تزل أصوله تقوى.  
وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة، إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يتليهم بذلك، وإنما يتلي بذلك العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم، فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة. قال أحدهم: ما هذا بكبر، وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، وإرغام المبتدعين، فإني لولبت الدون من الثيايين وجلست في الدون من المجالس، شمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلي، وفي ذلي ذل الإسلام، ونسى الغرور، وأن إبليس هو الذي سول له هذا بدليل أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقير والمسكنة.

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعنا عظيما عند أهل الأرض، فصك في صدره وقال: «أوه لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة. إنكم كنتم أذل وأحقر الناس، فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلکم الله. وفي رواية عنه: لما قدم الشام، استقبله الناس وهو على بعيره. فقيل

له: لوركبت برذوناً تلقى به عظماء الناس ووجوههم؟ فقال عمر رضي الله عنه: لا أراكم ها هنا، إنما الأمر من ها هنا -وأشار بيده إلى السماء- خلوا سبيل جملي».

ثم العجب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة، والخيول الفارحة ونحو ذلك، وإذا خطر له خاطر الرياء قال: إنما غرضي بهذا إظهار العلم والعمل، لاقتداء الناس بي ليهتدوا إلى الدين، ولو كان هذا قصده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، لأن من كان قصده صلاح الخلق يفرح بصلاحهم على يد من كان، وكذلك من يدخل منهم على سلطان، ويتودد إليه، ويثني عليه، ويتواضع له ويقول: إنما غرضي بهذا أن أشفع في مسلم أو أدفع عنه الضرر، والله يعلم أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثقل عليه ذلك.

وقد ينتهي غرور بعضهم إلى أنه يأخذ من مالهم الحرام ويقول: هذا مال لا مالك له، وهو لصالح المسلمين، وأنت إمام من أئمتهم، فيغير بهذا التلبيس من جهة نظره إلى نفسه، وربما كان دجالاً من الدجالين من جهة قوله: هذا مال لا مالك له. وغاية الأمر وقوع الاختلاط في الأموال، وذلك لا يمنع كونها حراماً، وقد يكون عالماً بمن أخذ منه المال. وفرقة أخرى أحكموا العلم، وطهروا جوارحهم وزينوها بالطاعات، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك، ولكن بقيت في زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفتنوا لها وأهملوها، فترى أحدهم يسهر ليلة وينصب نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها.

ويرى أن باعته على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت، ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء على نفسه، إما صريحاً بالدعاوي الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن في غيره ليبين في طعنه في غيره أنه أفضل من ذلك الغير، وأعظم منه علماً. فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التي لا يفتن لها إلا الأكياس الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويحرص على صلاحها. ومن سرته حسنته

وساءته سيئته، فهو مرجو أمره، بخلاف من يزكي نفسه ويظن أنه من خيار الخلق. فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم. فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات. وتفصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصالح المعاش، وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصي من الغيبة والنظر إلى ما لا يحل، والمشى إلى ما لا يجوز، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات، فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخرين من حيث العلم.

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام وهو مشرف على الهلاك، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وجعل يكرر ذلك، وذلك غاية الغرور. وسبب غروره ما سمع في النقل من تعظيم الفقه، ولم يدر أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة، ليستشعر القلب الخوف ويلتزم التقوى.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَسْأَلُوا فِي آلِيهِنَّ﴾ الآية [التوبة: ١٣٢]. والذي يحصل له الانذار غير هذا العلم، فإن مقصد هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال، ودفع القتل والجراحات. والمال في طريق الله تعالى آله، والبدن مركب. وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي من الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى.

ومثال من اقتصر على ذلك، كمثل من اقتصر في سلوك الحج على علم خرز الراوية والخف، ولا شك أنه لا بد من ذلك: ولكن ليس من الحج في شيء. ومن هؤلاء من اقتصر على علم الخلاف، ولم يهمله إلا طريق المجادلة، والإلزام، والإفحام، ودفع الحق لأجل الغلبة، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم، وجميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف. وأما أدلة الأحكام، فيشتمل عليها علم المذهب، وهي

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وأما حيل الجدل، من الكسر، والقلب، وفساد الوضع والتركيب، والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام. وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين. ثم هؤلاء طائفتان: ضالة، ومحقة، فالضالة التي تدعو إلى غير السنة، والمحقة التي تدعو إلى السنة، والغرور شامل لجميعهم. أما الضالة، فاغترارها ظاهر، وأما المحقة فاغترارها من حيث أنها ظننت أن الجدال أهم الأمور، وأفضل القربات في دين الله تعالى، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل، فليس بكامل الإيمان، فهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلم الجدل والبحث عن المقالات، وعميت بصائرهم، لم يلتفتوا إلى القرن الأول، وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال، فإن رأوه مصراً على بدعته هجروه من غير ممارسة ولا جدل.

وقد روي في الحديث: «ما ضل قوم بعد هدي إلا أوتوا الجدل» [أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٣٣)]. وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها، فهؤلاء يدعون إلى الله وهم هاربون منه، فهم أعظم الناس غرة. ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ إلى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للأغراب. ومنهم من يستشهد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن يكثر الصياح مجالسهم والتواجد، ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الانس. ومنهم فرقة استغرقوا أوقاتهم في سماع الحديث، وجمع رواياته، وأسانيده الغربية والعالية، فهم أحدهم أن يدور البلاد، ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان، ولقيت فلاناً،

ولي من الإسناد ما ليس لغيري. ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر، وزعموا أنهم علماء الأمة، وأذهبوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة، ولوعقلوا لعلمو أن مضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع عمره في معرفة لغة الترك، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفي من اللغة علم الغربيين: غريب القرآن، والحديث، ومن النحو ما يقوم به اللسان. فأما التعمق إلى درجات لا تنتهي، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم. ومثال التعمق في ذلك، مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، مقتصرًا على ذلك، وذلك غرور، لأن المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى شرب السكنجيين لإزالة الصفراء، فضيع عمره في تحسين القدح الذي يشرب فيه، فهو مغرور، والسعيد من أخذ من كل شيء من هذا حاجته المهمة لا غير، وتجاوز إلى العمل، واجتهد فيها وفي تصفيته من الشوائب، فهذا هو المقصود. وفرقة أخرى عظم غرورهم، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق، وظنوا أن ذلك ينفعهم، بل ذلك غرور، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تبرأه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى. وكذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول لزوجه، واتهابه مالها لإسقاط الزكاة، ونحو ذلك من أنواع الحيل.

الصنف الثاني: أرباب التبعيد والعمل وهم فرق:

فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل، وربما تعمقوا في استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة في الوضوء، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعًا، بل يقدر له الاحتمالات البعيدة في التنجس، ولا يقدر ذلك في مطعمه، فلوانقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم، لكان أشبه بسر السلف، فإن عمر رضي الله عنه توضع من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أنواعًا من الحلال خوفًا من الوقوع في الحرام. وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم: «توضع من مزادة مشرقة» [أخرجه البخاري (٣٤٤)] ثم منهم من يخرج إلى الإسراف في الماء، ويطول به الأمر، حتى تضع الصلاة ويخرج وقتها. ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في

تكبير الإحرام في الصلاة، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام. ومنهم من يتوسوس في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات، والفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة، ونحو ذلك، بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه، ويذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإن الخلق لم يتكلفوا من تحقيق مخارج الحروف في تلاوة القرآن إلا ما جرت به العادة في الكلام. ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى سلطان، فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنق في مخارج الحروف وتكراره، وهو غافل عن مقصود الرسالة مراعاة حرمة المجلس، فما أحرأه بالطرده والتأديب.

وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن، فهم يهدونه هذا، وربما ختموا في اليوم مرتين، فلسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأمان، ولا يتفكر في معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه، ولا يقف عند أوامره ونواهيها، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط. ومثال ذلك، مثال عبد كتب إليه مولاه كتاباً يأمره فيه وينهاه، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، بل اقتصر على حفظه وتكراره، ظاناً أن ذلك هو المراد منه، مع مخالفته أمر مولاه ونهيه.

ومنهم من يلتذ بصوته بالقرآن، معرضاً عن معانيه، فنيغي أن يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم، أو بالصوت، أو بالمعاني. وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول، ولا بطونهم من الحرام عند الإفطار، ولا خواطرهم عن الرياء. ومنهم من اغتر بالحج، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم، وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج، ويضيعون في الطريق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ولا يحترزون من الرفث والخصام، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون.

وفرقة أخرى أخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونسوا أنفسهم.

ومنهم من يؤم في مسجد، ولو تقدم عليه أروع منه وأعلم، ثقل عليه ومنهم من يؤذن ويظن أن ذلك لله، ولو أذن غيره في غيبته، أشد عليه ذلك وقال: قد زاحمني في مرتبتي. ومنهم من يجاور بمكة أو بالمدينة وقلبه متعلق ببلاده، وقول الناس: فلان يجاور بمكة أو بالمدينة، ثم إنه يجاور ويطمع في أوساخ الناس، وقد يجمع ذلك ويشح به ويجمع له جملة من المهلكات. وما من عمل إلا وفيه آفات، فمن لم يعرفها وقع فيها، ومن أراد أن يعرفها، فلينظر في كتابنا هذا، فينظر في آفات الرياء الحاصل في العبادات من الصوم والصلاة وفي جميع القربات في الأبواب المرتبة في هذا الكتاب، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق.

وفرقة أخرى زهدت في المال، وقنعت بالدون من اللباس والطعام، وقنعت من المسكن بالمساجد، فظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع هذا شديد والرغبة في الرياسة والجاه، فقد تركوا أهون الأمرين وباؤوا بأعظم المهلكين. وفرقة أخرى حرصت على النوافل، ولم تعتن بالفرائض، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لذة. ولا يحرص على المبادرة إليها في أول الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه» [أخرجه البخاري (٦٥٠٢)].

الصف الثالث: المتصوفة. والمغرورون منهم فرق:

فرقة منهم اغتروا بالزني والنطق والهيئة، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة، ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا في غرض، وهؤلاء غرورهم ظاهر. ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم في الديوان، ويقطع كل واحد منهم قطراً من أقطار الأرض، فاشتاقت نفسها إلى ذلك، فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً، وتعلمت من رجز الأبطال ألياناً، وتعلمت زيهم وجمع شمائلهم، ثم توجهت إلى العسكر، فكتب

اسمها في ديوان الشجعان، فلما حضرت في ديوان العرض، أمرت بتجريد المغفر والدرع لنظر ما تحته وتمتنحن بالمبارزة، فلما جردت إذا هي عجوز ضعيفة زمنة، فقيل لها: جئت تستهزئين بالملك وأهل حضرته، خذوها وألقوها بين أيدي الفيل، فألقيت إليه. فهكذا يكون حال المدعين التصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء، وعرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر إلى القلب لا إلى المرقعات والزي.

وفرقه أخرى ادعت المعرفة، ومشاهدة الحق، ومجاورة المقامات والأحوال، والوصول إلى القرب، ولا يعرفون من تلك الأمور إلى الأسماء، فتري أحدهم يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلا عن العوام، حتى إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة، ويرددها كأنه يتكلم عن الوحي، ويحتقر في ذلك جميع العلماء والعباد، ويقول، إنهم محجوبون عن الله، وإنه هو الواصل إلى الحق، وإنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يحكم علماً ولم يهذب خلقاً، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وحفظ الهديان.

وفرقه منهم طووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام، وبعضهم يقول: إن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي؟

وبعضهم يقول. لا قدر للأعمال بالجوارح، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله تعالى، وواصلت إلى معرفته، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربانية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها، ويرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء، لأن الأنبياء ﷺ كانوا يبكون على خطيئة واحدة سنين. وأصناف غرور أهل الإباحة لا تحصى، وكل ذلك أغاليط ووساوس، خدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به.

ومنهم فرقة أخرى جاوزوا هذه الطريق، واشتغلوا بالمجاهدة، وابتدؤوا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة، فلما استشقوا مبادئ ربح المعرفة، تعجبوا منها، وفرحوا بها وأعجبهم غريبها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكير فيها، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم، وكل ذلك غرور، لأن عجائب طريق الله ﷻ ليس لها نهاية. ولو وقف مع كل أعجوبة وتقيدها، قصر خطاه وجره الوصول إلى القصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً، فرأى على بابه روضة فيها أزهار لم يكن رأى مثلها، فوقف ينظر إليها حتى فاتته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

الصف الرابع: أرباب الأموال.

وهم فرق: ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر ما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، ولو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه في الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله، لما شق عليه ذلك، فإن الله يطلع عليه، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه. وبعضهم يصرف المال في زخرفة المسجد، وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغله للمصلين، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين.

فأما إن كان المال الذي صرفه في ذلك حراماً، كان أشد في الغرور. قال مالك بن دينار رحمته الله: أتى رجل مسجداً، فوقف على الباب وقال: «مثلي لا يدخل بيت الله، فكتب في مكانه صديقاً». فبهذا ينبغي أن تعظم المساجد، وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جنابة على المسجد، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام، أو يزخرف الدنيا منه على الله تعالى، فغرور هذا من حيث أنه يرى المنكر معروفاً.

وفرقة أخرى يحفظن الأموال ويمسكونها بخلاً، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج إلى نفقة المال، كالصيام والصلاة وختم القرآن، وهم مغرور لأن البخل مهلك، وقد استولى على قلوبهم، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب عليهم. ومثاله مثال من دخلت في ثوبه حية، فاشتغل عنها

بطبخ السكنجيين لتسكن به الصفراء. ومنهم من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط، فيخرج الرديء من المال، أو يعطي من الفقراء من يخدمه، ويتردد في حاجاته، أو من يحتاج إليه في المستقبل أو من له فيه غرض.

ومنهم من يسلم من ذلك إلى بعض الأكابر ليفرقه، لينال بذلك عنده منزلة ويقوم بجوائجه، وكل ذلك مفسد للنية وصاحبه مغرور، لأنه يطلب بعبادة الله تعالى عوضاً عن غيره.

وفرقه أخرى من أرباب الأموال وغيرهم، اغتروا بحضور مجالس الذكر، وظنوا أن نفس الحضور يغنيهم عن العمل والاعتاظ، وليس كذلك، لأن مجلس الذكر إنما فضل لكونه مرغباً في الخير، وكل ما يراد لغيره إذا لم يوصل إلى ذلك الغير فلا وقع له، وربما سمع أحدهم التخويف، فلا يزيد على قوله: يا سلام سلم، أو أعود بالله، ويظن أنه قد أتى المقصود.

ومثال هذا كمثّل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة، ثم ينصرف فلا يغني ذلك عنه. فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها، فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها أفعالك، فهو حجة عليك. فإن قيل: فما ذكرته من مداخل الغرور لا يكاد يخلص منه.

فالجواب: أن مدار أمر الآخرة على معنى واحد، وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته، فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لناها. وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان. ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء.

العقل: وهو النور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء.

والمعرفة: التي يعرف بها الإنسان نفسه وربّه ودنياه وآخרתه. وفي كتاب المحبة، وشرح عجائب القلب، والتفكير، وكتاب الشكر أشارت إلى وصف النفس، ووصف جلال الله سبحانه. ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في كتاب «الدنيا» وكتاب «الموت»، فإذا حصلت هذه المعارف، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب

الله، وبمعرفة الآخرة حب شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها، فيصير أهم أموره إليه ما يوصله إلى الله تعالى، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلب، صحت نيته في الأمور كلها، واندفع عنه كل غرور. فإذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه، واحتاج إلى الأمر الثالث وهو العلم: ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله تعالى وآفاتها، والعلم بما يقربه منه ويهديه. فيعرف من العبادات والعبادات ما هو محتاج إليه، وما هو مستغن عنه، ويتأدب بأدب الشرع. ويعرف من المهلكات جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالى، وهي الصفات المذمومة في الخلق. ويعرف من المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد أن توضع خلفاً من المذمومة بعد محوها، فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، والله أعلم. وإذا فعل جميع ذلك ينبغي أن يكون خائفاً أن يخدعه الشيطان، ويدعوه إلى الرياسة ويخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله تعالى.

وقال الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للشيطان حين قال له عند الموت: «فتني». فقل لا بعد. فلا ينبغي أن يفارق الخوف قلوب الأولياء أبداً». نسأل الله تعالى السلامة من الغرور، وحسن الخاتمة، إنه قريب مجيب.

### التوبة

س: تحدث عن التوبة ومنزلتها وأهميتها؟

ج: اعلم: أن الذنوب حجاب عن المحبوب، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب. وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم على الذنوب، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع. وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيَّهَ

الْمُؤْمِنُونَ لَكُمْ نُفْلِحُوكُمْ ﴿ [النور: ٣١] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ الآية [التحریم: ٨]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة» [أخرجه مسلم (٢٧٠٢)].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته» [أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٦٧٥)].

والأحاديث في هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى، فيجب الهرب منها على الفور. والتوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بد منه. ولهذا قال النبي ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة» [أخرجه مسلم (٢٧٠٢)]. ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فأما غيره فكيف يكون حاله؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [أخرجه أحمد في مسنده (٦١٢٥)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم

(١٩٠٣). والأحاديث في ذلك كثيرة.

س: ما هي أقسام الذنوب باعتبار ما يشرها؟

ج: اعلم: أن للانسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة، لكن تنحصر مشارات الذنوب في أربع صفات:

أحدها: صفات ربوبية، ومنها يحدث الكبر والفخر، وحب المدح والثناء، والعز وطلب الاستعلاء، ونحو ذلك، وهذه ذنوب مهلكات، وبعض الناس يغفل عنها، فلا يعدها ذنوباً.

الثانية: صفات شيطانية، ومنها يتشعب الحسد، والبغي والحيل والخداع والمكر، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك.

الثالثة: الصفات البهيمية: ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، فيتشعب من ذلك الزنى واللواط والسرقة، وأخذ الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفات السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهجم على الناس بالقتل والضرب، وأخذ الأموال، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة.

فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، فإذا اجتمعت هاتان، استعملتا العقل في الصفات الشيطانية، من المكر والخداع والحيل، ثم تغلب الصفات الربوبية.

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح، فبعضها في القلب، كالفكر، والبدعة، والنفاق، وإضرار السوء، وبعضها في العين، وبعضها في السمع، وبعضها في اللسان، وبعضها في البطن والفرج، وبعضها في اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك، فإنه واضح. ثم الذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين، وإلى ما بين العبد وبين ربه.

فما يتعلق بحقوق العباد، فالأمر فيه أغلظ، والذي بين العبد وبين ربه، فالعفوية أرجى وأقرب، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله، فذلك الذي لا يغفر.

س: ما هي أقسام الذنوب باعتبار الصغائر والكبائر؟

ج: اعلم: أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر الاختلاف فيها، واختلفت الأحاديث في عدد الكبائر. والأحاديث الصحاح في ذكرها خمسة.

الأول: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» [أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩)].

الثاني: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، سئل أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك» [أخرجه البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦)].

الثالث: حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وعلى وآله وسلم قال: «الكبائر: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين» [أخرجه البخاري (٦٦٧٥)].

الرابع: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قول الزور - أو قال - شهادة الزور» [أخرجه البخاري (٥٩٧٧)].

الخامس: حديث أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت عنده الكبائر قال: «الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وقد اختلف العلماء فيها على أقوال كثيرة، والأحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها، ولعل الشارع قصد الإيهام ليكون الناس على وجل من الذنوب، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر، ويعرف أيضاً أكبر الكبائر.

فأما أصغر الصغائر، فلا سبيل إلى معرفته، وقد تكلم العلماء في عدد الكبائر، فروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: هي أربع:

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: هي سبع.  
وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر: إنها سبع، قال: هي إلى سبعين  
أقرب منها إلى سبع.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: «هي ما أوجب الحد في الدنيا».

وعن ابن مسعود: «أن الكبائر من فاتحة النساء إلى قوله: ﴿إِنْ تَجَنَّبَيْتُمَا كِبَائِرَ مَا  
نُتَهَوْنَ عَنْهُ﴾» [النساء: ٣١].

وقال سعيد بن جبير وغيره: «هي كل ذنب أوعده الله عليه النار».  
وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار. أربعة في  
القلب: الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر  
الله تعالى. وأربعة في اللسان: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس،  
والسحر.

وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا.

واثنتان في الفرج: الزنى واللواط.

واثنتان في اليدين: القتل والسرقة.

وواحدة في الرجلين: الفرار من الزحف.

واحدة في جميع البدن: وهي عقوق الوالدين.

وهذا يمكن أن يزداد عليه، وينقص منه، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل  
ماله، والله أعلم.

س: كيف توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا؟

ج: الناس يتفاوتون في الآخرة، كما يتفاوتون في الدنيا، وينقسمون إلى أربعة

أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين.

ومثال ذلك أن يستولي ملك من الملوك على إقليم، فيقتل بعض أهله، ويعذب

بعضهم ولا يقتلهم، يخلي بعضهم، فهم الناجون، ويخلع على بعضهم وهم الفائزون. وإذا كان الملك عادلاً، فلا يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، ولا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك، معانداً له في أصل الولاية، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف له بالملك، ولا يخلي إلا معترفاً له بالملك، ولم يقصر، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون في النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم، ويشهد لذلك ما ورد في الحديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف، ومنهم من يبقى في النار سبعة آلاف سنة، وبين اللحظة والسبعة آلاف سنة تفاوت كثير.

وأما اختلاف العذاب بالشدة، فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب، ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط أو يعذب غيرها من أنواع العذاب. وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك في النعيم، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل نور المعرفة. فأما من جهة التفصيل، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان، واجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصير عليها، فيشبه أن يعفي عنه، فقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر. وهذا إما أن يلتحق بالمقربين، أو بأصحاب اليمين، وذلك بحسب إيمانه ويقينه، فإن قلَّ أو ضَعُفَ، دنت منزلته، وإن كثر وقوي، علت منزلته.

ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى، ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر، لأن بحر المعرفة لا ساحل له، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم، فأعلى درجات أصحاب اليمين، أدنى درجات المقربين، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض.

فأما من ارتكب كبيرة، أو أهمل أركان الإسلام، فإنه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل، التحق بمن لم يرتكب، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له،

والثوب المغسول كالذي لم يتسخ أصلاً.

فأما إن مات قبل التوبة، فأمره خطر، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه، فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدياً فإنه قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، والعارف الموقن أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة، ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار، ثم ينزل البلة المقلدون الجنة، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين، وما ذكرناه من مراتب العباد في المعاد حكم ظاهر الأسباب، يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة، ولا يقبل إصلاح العلاج، وعلى مريض آخر بأن عراضه خفيف، وعلاجه هين، فإن ذلك ظن يصيب غالباً، وقد تثوب إلى الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك لأسرار الله تعالى الخفية، وفي أرواح الأحياء غموض للأسباب التي رتبها المسبب، وليس في قوة البشر الوقوف على كنهها.

وكذلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، وكذلك يجوز العفوعن العاصي وغن كثر سيئاته، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد على التقوى، والتقوى في القلب، وأحوال القلب قد تخفي على صاحبه، فكيف على غيره؟

وأما الناجون، ونعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين، وأولاد الكفار، والذين لم تبلغهم الدعوة، فلم يكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، ويصلح أن يكونوا على الأعراف.

وأما الفائزون، فهم العارفون، وهم المقربون والسابقون، وهؤلاء الذين لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، وليس حرصهم على الجنة، بل على لقاء اله ﷻ والنظر إليه.

ومثالهم مثال الحب، فإنه في تلك الحال غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في

بدنه، ولا هم له سوى محبوبه، فهؤلاء الواصلون إلى قرة أعين، ولا تخطر على قلب بشر، فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات.

س: ما هي الأمور التي تعظم بها الصغائر؟

ج: الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة.

وفي الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار» [قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/٤٩٠)]: «أخرجه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس رفعه وكذا العسكري عنه في الأمثال بسند ضعيف وأخرجه ابن المنذر في تفسيره عن ابن عباس من قوله والبيهقي عن ابن عباس موقوفاً، وصحح الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف في «تبييض الصحيفة» (١٤١/١ - ١٤٥)، وقفه على ابن عباس».

واعلم: أن العفوعن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها، أرجي من العفوعن صغيرة يواظب عليها العبد.

ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصبت عليه لم تؤثر، ولهذا قال رضي الله عنه: «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل».

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد، صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد، كبر عند الله تعالى، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا» [أخرجه مسلم (٧٨٢)]. أخرجاه في «الصحيحين».

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى، رأى الصغيرة كبيرة.

وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعلمون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات» [أخرجه البخاري (٦٤٩٢)].

وقال بلال بن سعد رضي الله عنه: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت».

ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرض فلان، وذكرت مساويه حتى خجلته، أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنده وإمهاله إياه ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً. ومنها أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضره من غير، وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل أمي معافي إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله عليه، ويصبح يكشف ستر الله عنه» [أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠)].

ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدي به، فإذا علم منه الذنب، كبر ذنبه، كلبسه الحرير، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم، فطوبى لمن إذا مات مات معه ذنوبه. وفي الحديث: «ومن سن في الإسلام سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» [أخرجه مسلم (١٠١٧)].

فعلى العالم وظيفتان:

إحداهما: ترك الذنب.

والثانية: إخفاؤه إذا أتاه. وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتبعوا على الذنوب، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتبعوا على الخير. وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلى الثقل أميل، فإن الناس ينظرون إليه. وينبغي له الاحتراز مما يقتدي به فيه، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام، فاقتدى به

غيره، كان الاثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته .  
وقد روينا أن ملكًا كان يكره الناس على أكل لحم الخنزير، فجيء برجل عالم،  
فقال له حاجب الملك: قد ذبحت لك جديًا فكل منه، فلما دخل قرب إليها فلم  
يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك إنه جدي، فقال: «ومن أين يعلم  
حالي من يقتدي بي».

س: ما هي شروط التوبة؟

ج: التوبة عبارة عند ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم يورث العلم بأن  
تكون المعاصي حائلًا بين الإنسان وبين محبوبه.

والندم هو توجع القلب عنده شعور بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن  
والبكاء، فكن ممن استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعز عليه، طال بكاؤه،  
واشتدت مصيبته، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي  
سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي نخب أصدق من رسول الله؟ ولو  
أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لأشد في الحال حزنه، وليس ولده بأعز من  
نفسه، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض  
أدل على الموت من المعاصي على سخط الله، والتعرض بها للنار.

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة، أو بغير شرطها؟ مثل أن يكون  
صلاها في ثوب نجس، أو بنية غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضيها كلها. وكذلك  
إن كان عليه صوم، أو زكاة، أو حج، أو غير ذلك من الواجبات، يقضيها كلها،  
ويفتش على ذلك ويتداركه. وأما المعاصي، فينبغي أن يفتش من أو بلوغه عن معصية  
صدرت منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى، فالتوبة منه  
والاستغفار. ثم ينظر إلى مقادير ذنوه، فيطلب لك معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي  
من الحسنات بمقدار تلك السيئات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾  
[هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» [أخرجه الترمذي (١٩٨٧)،

والدارمي (٢٧٩١)، وأحمد في مسنده (٢٠٨٤٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٩٧). مثال ما ذكرنا: أن يكفر سماع الملاحى بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفًا ويقفه فليفعل، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال، وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضًا معصية الله تعالى، لأنه نهي عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكب نيه تعالى، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين، ويكفر قتل النفوس بالعتق.

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى، فإذا فعل ذلك، لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد. ومظالمهم إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب. أما الأول: فإنه إذا قتل خطأ أو أوصل الدية إلى مستحقها، إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمدًا، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم، إن شاء قتلته، وإن شاء عفا عنه ولا يجوز له إخفاء أمره، بخلاف ما لو زنى، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رفع أمره إلى الولي حتى اقام عليه الحد، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل قصة ماعز والغامدية. وكذلك حد القذف، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه.

**الثاني:** المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتليس في المعاملات، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه.

وليكتب إلى أصحاب المظالم، وليؤد إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا

الاستكثار من الحسنات، لتؤخذ منه في القصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته. هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكة ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله، وليعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه، كمن زنى بجارته، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهمًا، ولا بد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضًا يوم القيامة، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات.

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على ألا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزمًا مؤكدًا.

مثال ذلك: المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضر في مرضه، فيعزم عزمًا جزمًا أن لا يتناول شيئًا من الفاكهة ما دام في مرضه ذلك، فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون نائبًا ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة، والصمت وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوت حلال، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات. قال بعضهم: من صدق في ترك الشهوة، وجاهد نفسه فيها سبع مرات، لم يبتل بها، وقال: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين، لم يعد إليه أبدًا.

س: ما هي أقسام العباد من حيث الدوام على التوبة؟

ج: الناس في التوبة أربع طبقات:

**الطبقة الأولى:** تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التوبة. وصاحبها هو السابق بالخيرات. وتسمى هذه التوبة: النصح، وتسمى هذه النفس: المطمئنة! وهؤلاء يختلفون، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهو مليء بمجاهدتها.

**الطبقة الثانية:** تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يبطل بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئًا منها لام نفسه. وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضًا، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمي، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يثقل ميزانه، فترجح حسناته، فأما أن تخلو كفة السيئات، فبعيد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه، إذ قال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعْمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

**الطبقة الثالثة:** أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان، وهو يود لو أقدره الله على قمعها، وكفاه شرها، فإذا انتهت ندم، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب، فهذه النفس تسمى المسؤولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيها: ﴿وَأَخْرَجُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾

فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكرهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] وعاقبته مخطرة من حيث تأخيرها وتسويفه، فربما يختطف قبل التوبة، فغن الأعمال بالخطايم، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت، فتكون الخاتمة، فليراقب الأنفاس، وليحذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من المصرين، وهذه النفس هي الأمانة بالسوء، ويخاف على هذا سوء الخاتمة.

فإن مات هذا على التوحيد، فإنه يرجى له الخلاص من النار، ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفوبسبب خفي لا يطلع عليه، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالى كريم، وخزائنه واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار في طلب الدينار، فلوقيل له: فإذا كان الحق كريماً، فاجلس في بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا وقال: إنما الأرزاق بالكسب، فيقال له: هكذا النجاة بالتقوى.

س: ما هي الأمور التي ينبغي على التائب فعلها؟

ج: قد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتي بحسنات تضاد ما عمل من السيئات، لتمحوها وتكفرها، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل، وأما اللسان، الاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: رب ظلمت نفسي فاغفر لي. روي في الحديث، أن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله ﷻ، إلا غفر له» [حسن: أخرجه أبو داود (١٥٢١)، وابن ماجه (١٣٩٥) وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»].

وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات.

س: ما هو دواء الإصرار على المعصية؟

ج: اعلم: أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلا بضده، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة. والغفلة رأس الخطايا، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، كما يجمع في السكنجين حلاوة السكر وحموضة الخل، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء.

والأطباء لهذا المرض هم العلماء، لأنه مرض القلوب ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان، وإنما صار مرضها أكثر لأمور:  
أحدهما: أن المريض لا يدري أنه مريض.

الثاني: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض الأبدان، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه، وما بعد الموت غير مشاهد، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج البدن من غير اتكال.

الأمر الثالث: وهو الداء العضال فقد الطيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء، فلم يقدرُوا على تحذير الخلق استنكافاً من أن يقال لهم: فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء.

س: ما الذي ينبغي للوعاظ أن يسلكوه مع الخلق؟

ج: الجواب: أن ذلك يطول، لكننا نشير إلى الأعمال النافعة في ذلك، وهي أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر ما في القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين، وما ورد في

الأخبار والآثار من ذلك، وممزج ذلك بمدح التائبين.

**النوع الثاني:** حكايات الأنبياء ﷺ، والسلف الصالح، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحال آدم ﷺ، وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة، وما جرى لداود وسليمان ﷺ، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار. وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ولأن عذاب الآخرة أشد، فينبغي أن يكثر من هذا على أسماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

**النوع الثالث:** أن يقرر عندهم، أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهو سبب جنائياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله. والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها. وقال الفضيل بن عياض: «إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي».

وقال أبو سليمان الداراني: «الاحتلام عقوبة، ولا يفوت أحدًا صلاة إلا بذنب يذنبه».

وقال الحسن رضي الله عنه: «الحسنة نور في القلب، وقوة في البدن، والسيئة ظلمة في القلب، ووهن في البدن».

**النوع الرابع:** ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب، كشرب الخمر، والزنى، والقتل، والكبر، والحسد، والغيبة.

وينبغي أن يكون طبيبًا يعلم الداء، ويدري كيف يصنع الدواء.

وهذا الذي ذكرنا هو علاج الغفلة، فيبقى علاج الشهوة، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا في كتاب «رياضة النفس» ولا بد من الصبر، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشباب مثلاً إذا غلبته الشهوة، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعي وراء الشهوة، فينبغي أن

يستحضر المخوفات التي جاءت في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة.

والذي يهيج الشهوة من خارج، هو حضور المشتهي، والنظر إليها، وعلاجه: الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة، فأول الأمر حضور مجالس الذكر، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل، ثم التفكير فيما قيل، فينبعث الخوف، ويسهل الصبر، وتيسر الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله.

فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟

فمن ذلك أجوبة. منها: أن العقاب الموعود ليس يحاضر. ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يعزم على التوبة، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب. ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر في نفسه أن كل ما هوأت قريب، وأنه لا يأمن هجوم الموت، ويعالج التسويف بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، والمسوف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لم يقدر على الترك غدًا كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غدًا؟ بل يتأكد بالاعتیاد، ومن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرأها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أواخرها سنة ثم أعود إليها، وهولا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهوكلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت.

وأما انتظار عفو الله تعالى، فحفوا الله سبحانه ممكن، ألا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك غلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله

فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحقق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

## الصبر

س: ما فضل الصبر وما حقيقته؟

ج: قد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعًا، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْتَدُونَ يَا مَرْيَمُ لِمَا صَبَرْتِ﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به» [أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)]. وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: ﴿مِن رَّبِّهِمْ رَحْمَةً وَأُزْلِفَتْ لَهُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأحاديث، ففي «الصحاحين» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر» [أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)]. وقال الحسن: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله صلى الله عليه وسلم إلا لعبد كريم عنده. وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يجرها كل ساعة فيطالعها، وفيها: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

واعلم: أن الصبر من خاصية الإنسان، ولا يتصور في البهائم لنقصاتها، وغلبة

الشهوات عليها من غير شيء يقابلها، ولا يتصور الصبر أيضًا في الملائكة لكمالها، فإن الملائكة جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصدها عن حضرة الجلال. وأما الإنسان فإنه يخلق في ابتداء الصبا ناقصًا مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، وليس له قوة الصبر، فإذا تحرك العقل وقوي، ظهرت مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز، وينمو على التدرج إلى سن البلوغ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها إلى مصالح الآخرة، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه، إلا أن الطبع يقتضي ما يجب، وباعث الشرع والعقل يمنع، والحرب بينهما قائمة، ومعركة هذا القتال قلب العبد، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحقق بالصابرين، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها، التحق بأتباع الشياطين، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى، فهذه المقاومة من خاصة الآدميين.

س: ما هي أقسام الصبر؟

ج: اعلم أن الصبر على ضربين. أحدهما: بدني، كتحمل المشاق بالبدن، وكتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها.

الضرب الآخر: هو الصبر النفساني عن مشتريات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا الضرب إن كان صبرًا عن شهوة البطن والفرج، سمي عفة، وإن كان الصبر في قتال، سمي شجاعة، وإن كان كظم غيظ، سمي حلمًا، وإن كان في نائبة مضجرة، سمي سعة صدر، وإن كان في إخفاء أمر، سمي كتمان سر، وإن كان في فضول عيش، سمي زهدًا، وإن كان صبرًا على قدر يسير من الحظوظ، سمي قناعة.

وأما المصيبة، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق

الإيمان داخلته في الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات. ثم اعلم أن العبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال، وذلك أن جميع ما يلقي العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين:

النوع الأول: ما يوافق هواه من الصحة، والسلامة والمال، والجاه، وكثرة العشيبة، والأتباع، وجميع ملاذ الدنيا، فالعبد محتاج إلى الصبر في جميع هذه الأمور، فلا يركن إليها، ولا ينهمك في التلذذ بها، ويراعي حق الله تعالى في ماله بالإنفاق، وفي بدنه بالمعونة للحق.

ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك في الملاذ والركون إليها، أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان، حتى قال بعض العارفين: المؤمن يصبر على البلاء، ولا يصبر على العافية إلا صديق. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر. ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، وهذا الصبر متصل بالشكر، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر، وإنما كان الصبر على السراء شديدًا، لأنه مقرون بالقدرة، والجاه عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ.

النوع الثاني المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية.

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل، كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعًا، كالحج والجهاد. ويحتاج المسلم إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

حال قبل العبادة، وهي تصحيح النية، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء.

وحال في نفس العبادة، وهي أن لا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن، فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ من العمل. الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل: وهي الصبر عن إفشائه، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطها.

القسم الثاني: الصبر عن المعاصي، وما أحوج العبد إلى ذلك. ثم إن كان الفعل مما تسر فعله، كمعاصي اللسان من الغيبة، والكذب والمراء ونحوه، كان الصبر عليه أثقل. فترى الإنسان إذا لبس حريراً، استنكر ذلك ويغتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذلك، ومن لم يملك لسانه في المحاورات، ولم يقدر على الصبر، لم ينجح إلا العزلة.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت الاختبار، كالمصائب، مثل موت الأحبة، وهلاك الأموال، وعمي العين، وزوال الصحة، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات، لأن سنده اليقين.

وقد قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصيب به» [أخرجه البخاري (٥٦٤٥)]. وقريب من هذا القسم، الصبر على أذى الناس، كالذي يؤذي بقول أو فعل أو جناية على نفسه أو ماله، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت. والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ نَصَبُوا وَتَقَوُا فإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنْكَ يَصْبِقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] وقال: ﴿بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

والأحاديث في فضائل الصبر كثيرة، منها: ما أخرجاه في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عنه، حتى الشوكة يشاكها» [أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢)].

وفي حديث آخر: «ما يصيب المسلم من نصب ولا هم ولا حزن ولا

أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها» [أخرجه البخاري (٥٦٤١)، (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)].

وفي حديث آخر: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، في جسده وفي ماله وفي ولده، حتى يلقي الله وما عليه خطيئة» [أخرجه أحمد في مسنده (٧٧٩٩)، والترمذي (٢٣٩٩)، وقال: حديث حسن صحيح، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (١٥٦٧)].

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة» [أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٩٩٢)].

س: ما هي آداب الصبر؟

ج: من آداب الصبر استعماله في أول صدمة، لقوله ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» [أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦)].

ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة، لحديث أم سلمة رضي الله عنها [أخرجه مسلم (٩١٨)]، ومن الآداب سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز.

قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفئات، ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب، كما فعلت أم سليم امرأة أبي طلحة لما مات ابنها، وحديثها مشهور في «صحيح مسلم» [أخرجه مسلم (٢١٤٤)].

وقال ثابت البناني: «مات عبد الله بن مطرف، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد ادهن، فغضبوا، وقالوا: يموت عبد الله، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهناً؟ قال: أفاستكين لها، وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا وما فيها».

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ .  
وقال مطرف: ما من شيء أعطي به في الآخرة قدر كوز من ماء، إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا.

وكان صلة بن أشيم في مغزى له ومعه ابنه، فقال: «أي بني! تقدم فقاتل حتى أحسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية، فقالت: مرحبًا إن كنتن جئتن تهنتني، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعين». وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم الله ﷻ الخفية.  
وقال علي ﷺ: «من اجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك».

وقال الأحنف: «لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد».  
وقال رجل للإمام أحمد: كيف تجددك يا أبا عبد الله؟ قال: «بخبير في عافية». فقال له: حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك، لا تخرجني إلى ما أكره». وقال شقيق البلخي: «من شكك مصيبة به إلى غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا».

وقال بعض الحكماء: من كنوز البر كتمان المصائب، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظرًا إلى ثوابها، وحكاياتهم مشهورة في ذلك.

منها: ما روي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر، وسوى عليه ثم أستوى قائمًا، فأحاط به الناس، فقال: «رحمك الله يا بني! قد كنت برًا بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لي مسرورًا بك، ولا والله ما كنت قط أشد بك سرورًا، ولا أرجى بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيرك الله إليه».

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب، فلا قدرة للآدمي على

ذلك، وإن كان الفرح بوجودها كما حكيتكم، فهو أبعد.  
والجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب، وهو انزعاج الباطن، وإنما ينهي عن المكتسب، كشق الجيوب، ولطم الخدود، والقول باللسان، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم، فذلك فرح شرعي لا طبعي، إذ الطبع لا بد له من كراهة المصائب.

ومثال هذا مثال رجل مريض له شربة لمرضه، فسعى في طلب حوائجها، وأنفق عليها مالا، فلما تمت، فرح بتمامها وتناولها لما يرجوها من العافية، فأما طبعه، فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً. ولو أن ملكاً قال لرجل فقير: كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار، لأحب كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجو من عاقبته، وإن أنكاه الضرب، فكذلك السلف تلمحوا الثواب، فهان عليهم البلاء.

س: ما هي الأمور المعينة على الصبر؟

ج: اعلم: أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعده بالشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فمنهما تركيب الأدوية للأمراض القلوب كلها، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به، فإن العلة إذا اختلفت اختلف العلاج، إذا معنى العلاج: مضادة العلة.

ونضرب لك مثالا، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء:  
أحدها: مواظبة الصوم، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة، فإنه إنما يهيج بالنظر، والنظر بالقلب، والقلب يحرك الشهوة، ودواء هذا العزلة، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب.  
الثالث: تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهي، وذلك بالنكاح، وكل ما يشتهي

الطبع من الحرام، ففي المباحات غنية عنه، وهذا هو العلاج الأرفع في حق أكثر الناس، لأن قطع الغذاء يضعف، ولا يجمع الشهوة بخلاف هذا.

وينبغي للإنسان أن يعود نفسه للمجاهدة، فإن من عود نفسه مخالفة الهوى، غلبها متى أراد.

واعلم: أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة، كف الباطن من حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل، فإن الوسواس لا تزال تجاذبه، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق، وجعل الهم هماً واحداً، وصرف الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى، وجميع أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه، دفع اشتغاله مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة، من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، فإن الفكر الباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، فهذا الذي يمكن أن ينال بالاكْتساب والجهد.

فأما مقادير ما ينكشف، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال والأعمال، فذلك يجري مجرى الصيد، وهو بحسب الرزق، فقد يقل الجهد، ويكثر الصيد، وقد يطول الجهد ويقل الصيد، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ﷻ، فإنها توازي أعمال الثقلين، وليس ذلك إلى اختيار العبد، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين، لا يجذب إلى أعلى عليين، وكل منهوم بالدنيا هو منجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة.

فالذي علينا تفرغ المحل، والانتظار لنزول الرحمة، كالذي يصلح الأرض ويتقيها من الحشيش، ويضع فيها البذر، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر، ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلي سنة عن مطر، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات.

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب من حشيش الشهوات، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص، وعرضه لمهاب ربح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم، وكذلك انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب، كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي رمضان. والهمم والأنفاس أسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره.

## الشكر

س: وضع فضل الشكر ومنزلته في الشرع؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣] وقطع بالمزيد مع الشكر فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُعْزِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١] وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥]. ولما عرف إبليس قدر الشكر قال في الطعن على بني آدم: ﴿وَلَا تَحِدُوا أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وروي أن النبي ﷺ قام حتى تفتطرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شاكرًا» [أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠)].

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني أحبك فقل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» [أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣) من الدعاء، وأحمد في مسنده (٢١٦١٤)، وهو صحيح].

س: هل الشكر يكون باللسان فقط، فصل القول في ذلك؟

ج: الشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

أما بالقلب، فهو أن يقصد الخير، ويضمرة للخلق كافة.

وأما باللسان، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد.

وأما بالجوارح، فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته، فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، فهذا يدخل في جملة شكر هذه الأعضاء.

والشكر باللسان: إظهار الرضى عن الله تعالى، وهو أمور به. قال رسول الله

ﷺ: «التحدث بالنعم شكر، وتركها كفر» [أخرجه أحمد (١٧٩٨١)، (١٧٩٨٢)، (١٨٨٦٣)،

(٢٧٦٨٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠١٤)].

وروي أن رجلين من الأنصار التقيا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحت؟

فقال: الحمد لله. فقال النبي ﷺ: «قولوا هكذا».

وروي أن رجلاً سلم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرد عليه، ثم قال له عمر:

«كيف أصبحت؟ قال: أحمد الله، فقال عمر: ذلك الذي أردت».

وقد كان السلف يتساءلون، ومرادهم استخراج الشكر لله، فيكون الشاكر

مطيئاً، والمستنطق مطيئاً.

وقال أبو عبد الرحمن الحلي: «إن الرجل إذا سلم على الرجل، وسأله كيف

أصبحت؟ فقال له الآخر: أحمد الله إليك، قال: يقول الملك الذي عن يساره للذي

عن يمينه: كيف تكتبها؟ قال: أكتبه من الحامدين. فكان أبو عبد الرحمن إذا سئل:

كيف أصبحت؟ يقول: أحمد الله إليك وإلى جميع خلقه».

س: بماذا يتم الشكر؟

ج: اعلم: أن فعل الشكر وترك الكفران، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى،

إذ معنى الشكر استعمال نعمه في محابه، ومعنى الكفران نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال، أو استعماله فيما يكرهه.

ولتمييز ما يحبه الله فيما يكرهه مدركان:

أحدهما: السمع، ومستنده الآيات.

والثاني: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير عزيز، ولذلك أرسل الله تعالى الرسل، وسهل بهم الطرق على الخلق، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

وأما الثاني: وهو النظر بعين الاعتبار، فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه: إذ ما خلق الله تعالى شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب. وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية.

أما الجلية، فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً، والليل سباتاً، فتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس، لا كل الحكمة فيها، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار.

وأما الحكمة في خلق الكواكب، فخفية لا يطلع عليها كل الخلق، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم، نحو كونها زينة للسماء، وجميع أجزاء العالم لا تخلومنه ذرة عن كمة، وكذلك أعضاء الحيوان، منها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً، كالعلم بأن العين للأبصار، واليد للبطش، والرجل للمشي. فأما الأعضاء الباطنة، كالمرارة، والكلية والكبد، وآحاد العروق، والأعصاب وما فيها من التجايف والرقعة والغلظة، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدرًا يسيرًا بالنسبة إلى علم الله تعالى، فكل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذي أريد به، فقد كفر نعمة الله تعالى فيه، فمن

ضرب غيره بيده بغير حق، فقد كفر نعمة الله تعالى في اليد؛ لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويتناول ما ينفعه، لا ليؤذي بها غيره، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم، فقد كفر نعمتها، ونعمة الشمس أيضًا، إذ الإبصار يتم بها؛ فالعين والشمس خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويبقى بهما ما يضره فيهما.

واعلم: أن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها، أن يستعين بها الخلق على الوصول إلى الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بمحبته، والأنس به في الدنيا، والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة، وكل ذلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فكل من استعمل شيئًا في غير طاعة الله، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها، لأقدامه على تلك المعصية. ولنذكر مثالًا واحدًا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء، حتى يعتبر بها، ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم، فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير اللذين بهما قوام الدنيا، وهما حجران لا منفعة في أعينهما، ولكن يضطر الخلق إليهما، من حيث كل إنسان يحتاج إلى أعيان كثيرة، في مطعمه، ومشربه، وملبسه، مركبه، وسائر حاجاته.

وقد يعجز عما يحتاج إليه، ويملك ما يستغني عنه، كمن يملك قدرًا من الزعفران مثلًا وهو يحتاج إليه، ويملك ما يستغني عنه، كمن يملك قدرًا من الزعفران مثلًا وهو يحتاج إلى جمل يركبه، وآخر يملك الجمل، وربما استغني عنه، ويحتاج إلى الزعفران، فلا بد بينهما من معاوضة، ولا بد في مقدار العوض من تقدير، إذ لا يبذل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل، حتى يعطي

مثله في الوزن والصورة. وكذا من يشتري داراً بثياب، أو عبداً بخنف، أو دقيقتاً بجمار، فهذه الأشياء لا تناسب بينهما، فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير، حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال، حتى تقدر بهما، فيقال: هذا الجمل يساوي مائة، وهذا القدر من الزعفران يساوي مائة، فحصل التساوي بينهما حينئذ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنقدين، هذا لغرض في أعيانهما، فإنه لو كان في أعيانهما غرض لم ينتظم الأمر، فلخلقهما الله لتداولهما الأيدي، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل، وجعلهما عزيزين في أنفسهما، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة، فمن ملكهما، فكأنه ملك كل شيء.

إذا عرفت حكمتهما، فكل من عمل فيهما عملاص يخالف المقصود منهما، ولا يليق بحكمتهما، فقد كفر نعمة الله فيهما، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس الحاكم بين المسلمين في سجن يمتنع من الحكم بسببه، لأنه ضيعهما ومنع الأيدي من تداولهما. ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الألهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا يدرك بعين البصر، بل بعين البصيرة، أخبرهم الله تعالى بكلام سمعوه بواسطة رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية، فقد كفر نعمة الله فيهما، لأنه أسوأ حالاً من كنزهما.

ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد في الحياكة والكنس والأعمال التي يقوم بها أخس الناس، وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة في حفظ المائعات، ولا تكفي تلك الأعيان عنهما، ولا يقوم مقامهما فيما أريد بهما من كونهما قيم الأشياء، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلهية قيل له: «من شرب في إناء ذهب أو فضة، فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم» [أخرجه مسلم

(٢٠٦٥). وكذلك كل من عامل بالربا في الدراهم والدنانير، فقد أخرجها عن مقصودهما، فهذا مثال لحكمة خفية من حكم التقدين.

فينبغي أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال في غيره من جميع أمورك، في حركتك، سكونك، ونطقك، وسكوتك في كل فصل صادر منك، إما شكرًا أو عكسه، وهو الكفر، وبعض ذلك تصفه بالكراهة، وبعضه بالحظر، ومن ذلك أن الله تعالى خلق لك يدين، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فاستحقت بمزيد القوة رجحانًا وشرقًا على الأخرى، وقد أحوجك من أعطال اليدين إلى أعمال، بعضها شريفة، كأخذ المصحف، وبعضها خسيصة، كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار، وأزلت النجاسة باليمين، فقد عكست المقصود، وخصصت الشريف بما هو خسيس، فظلمته.

وكذلك في الرجلين، إذا ابتدأت باليسرى في لبس الخف، فقد ظلمت اليمين، لأن الخف وقاية الرجل، وقس على ذلك.

وكذلك نقول: من كسر غصنًا من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح، فقد خالف الحكمة في خلق الأشجار، لأنها خلقت للمنفعة بها، فإن كان كسره لغرض صحيح، فلا بأس، وإن فعل ذلك في ملك غيره، فهو ظالم، وإن كان محتاجًا، إلا أن يأذن صاحبه.

س: وضح تعريف النعمة وأقسامها؟

ج: اعلم: أن كل مطلوب يسمى نعمة، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما عداها نعمة تجوز، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام:

أحدهما: ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعًا، كالعلم، وحسن الخلق، وهو النعمة الحقيقية.

الثاني: ما هو ضار فيهما جميعًا، وهو البلاء حقيقة.

القسم الثالث: ما ينفع في الحال، ويضر في المآل، كالتلذذ، واتباع الشهوات، فهوبلاء عند ذوي الأبصار، والجاهل يظنه نعمة.

ومثاله: الجائع إذا وجد عسلًا فيه سم، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلاً، فإذا علم ذلك عده بلاء.

القسم الرابع: الضار في الحال، النافع في المآل، وهو نعمة عند ذوي الأبواب، بلاء عند الجهال.

ومثاله: الدواء الشنيع مذاقه في الحال، الشافي في المآل من الأسقام، فالصبي الجاهل، إذا كلف شربه ظنه بلاء، والعاقل يعده نعمة، وكذلك إذا احتاج الصبي إلى الحجامة، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك، فالصبي يتقلد منة أمه بجهله، ويأنس إليها دون أبيه، ويقدر أباه عدوًا، ولو عقل لعلم أن الأم هي العدو الباطن في صورة صديق، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض أشد من ألم الحجامة، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل، وكل إنسان صديق نفسه، ولكن النفس صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو.

س: ما هي أقسام النعم من حيث كونها مطلوبة لذاتها أو لغيرها؟

ج: اعلم: أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية.

أما الغاية فهي سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر بعده، وهي السعادة الحقيقية.

وأما القسم الثاني: فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة، وهي أربعة أقسام:

أعلاها: فضائل البدن، من القوة والصحة ونحوهما.

الثالث: النعم المطيفة بالبدن، من المال والجاه ونحوهما.

الرابع: الأسباب التي جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل، من الهداية والإرشاد،

والتسديد، والتأييد، وكل هذه نعم عظيمة.  
فإن قيل: ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما؟

قلنا: هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح، والآلة المستعملة للمقصود.  
أما المال، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية، كان كساع إلى الهيجاء بغير سلاح، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات في طلب القوت، فيشغله عن تحصيل العلم، وعن الذكر، والفكر، ونحو ذلك.

وأما الجاه فيه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضميم، ولا يتفك عن عدو يؤذيه، وظالم يهوش عليه، فيشغل قلبه، وقلبه رأس ماله. وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه.  
وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها، فهي نعم، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك.

وقد قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ»  
[أخرجه البخاري (٦٤١٢)].

ولما سئل: من خير الناس؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٤٥) والترمذي (٢٣٢٩)، والدارمي (٢٧٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٢٩٦)].

وأما المال والجاه، وإن كانا نعمتين، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم، وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق.  
وأما الهداية والرشد والتسديد والتأييد، فلا خفاء في كونها من أعظم النعم، فلا يستغني أحد عن الحاجة إلى التوفيق، ولذلك قيل:  
إذا لم يكن عون الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

س: اذكر بعض الأسباب التي تتم بها نعمة الأكل؟

ج: اعلم: أنا قد ذكرنا جملة من النعم، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من

النعم الواقعة في الرتبة الثانية، فلو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة، لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التي يتم بها الأكل على سبيل التلويح، لا على سبيل الاستقصاء، فنقول: من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في الحواس الخمس، التي هي آلة للإدراك.

فأولهما: حاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة، فافتقرت إلى حسن تدرك به ما بُعد عنك، فخلق لك الشم لتدرك به الرائحة من بعد، وأنت لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذي شممت رائحته، وربما لم تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفي ذلك، لو لم يكن لك حسن الذوق، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك، بخلاف الشجرة، فإنه يصيب في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى، هي أشرف من الكل، وهو العقل، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتها، وما يضر في المأل، وبه تدرك طبع الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أدنى فوائد العقل، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة، فهي بعض الإدراكات. ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك، فإن البصر واحد من الحواس، والعين آلة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة: بعضها رطوبات، وبعضها أغشية مختلفة، لك واحدة من الطبقات العشر، صفة، وصورة، وشكل، وهيئة، وتديير، وتركيب، لو اختلفت

طبقة واحدة منها أو صفة واحدة، لاختل البصر، وعجز عنه الأطباء كلهم، فهذا في حس واحد، وقس حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يستوفي ذلك في مجلدات، فكيف ظنك بجميع البدن؟!

ثم انظر بعد ذلك في خلق الإرادة والقدرة، وآلات الحركة من أصناف النعم، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام، ولم يخلق لك في الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة، كان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك، كالمقاضي الذي يضطرك إلى تناوله الغذاء.

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام، لأسرفت وأهلكت نفسك، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، وكذلك القول في شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل.

ثم خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء وغيره، منها اليدان، وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات وتمتد وتنثني، ولا تكون كخشبة منصوبة.

ثم جعل رأس اليد عريضاً، وهو الكف، وقسمه خمسة أقسام، وهي الأصابع وجعلها مختلفة في الطول والقصر، ووضعها في صفين، بحيث يكون الإبهام في جانب، ويدور على الأصابع البواقي، ولو كانت مجتمعمة متراكمة، لم يحصل تمام الغرض، ثم خلق لها أظافر، وأسند إليها رؤوس الأصابع، لتقوى بها، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك، فجعل لك الفم واللحيين، خلقهما من عظمين، وركب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام، فبعضها قواطع كالرباعيات، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضرس. وجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك، فانظر

إلى عجيب صنع الله تعالى. وإن كل رحي صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى، إلا هذه الرحي التي هي صنع الله ﷻ، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى، إذ لودار الأعلى بالأعضاء الشريفة التي يحتوي عليها.

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة، كالجرفة التي ترد الطعام إلى الرحي، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق.

ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزل إلى الحلق بنوع رطوبة.

فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينًا يفيض منها اللعاب، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام.

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهو في الفم، فإنه لا يمكن إيصاله باليد، فهياً الله تعالى المريء والحنجرة، وجعل رأسها طبقات يفتح لأخذ الطعام، ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام، فهو في دهليز المريء إلى المعدة، فإذا ورد الطعام إلى المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة، فلا يصلح أن يصير لحمًا وعظمًا ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخًا تامًا، فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام، فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، وينضج بالحرارة التي تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة، وهي الكبد من جانبها الأيمن، والطحال من جانبها الأيسر، والترب من أمامها، ولحم الصلب من خلفها، فينضج الطعام ويصير مائعًا متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر. ثم يتفرق في الأعضاء ويبقى منه ثقل ثم يندفع.

وفي الأدمي من العضلات والعروق ما لا يحصى، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة، وكل ذلك من الله سبحانه، ولوسكن من جملتها عرق متحرك، أو تحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين. فانظر إلى نعم الله

تعالى عليك، لتقوى على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل، وهي أحسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والبهيمة أيضًا تعرف أنها تجوع وتأكل، وتتعب فتنام، وتستهي فتجتمع، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار، فكيف تقوم بشكر الله تعالى؟! وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالى، فقس على ذلك.

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه، أقل من قطرة في بحر. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٧].

س: اذكر بعض نعم الله في الأطعمة والأغذية وعجائب ذلك؟

ج: اعلم: أن الأطعمة كثيرة مختلفة، ولله تعالى في خلقها عجائب لا تحصى. وهي تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيره:

فنتكلم عن بعض الأغذية، فنقول: غذا كان عندك شيء من الحنطة، فلوأكلتها لفنبت وبقيت جائعًا، فما أحوجك إلى عمل ينمي به حب الحنطة ويتضاعف، حتى يفي بتمام حاجتك، وهو زرعها، وهو أن تجعلها في أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينًا، ثم لا يكفي الماء والتراب، إذ لو تركت في الأرض ندية صلبة، لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فيحتاج إلى ربح تحرك الهواء، وتصرفه بقهر على الأرض، حتى ينفذ ثم كل ذلك لا يغني، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف، فإنه لو كان في البرد المفرط لم ينبت.

ثم انظر إلى الماء الذي تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى؟ فجر العيون وأجرى منها الأنهار، ولما كان بعض الأرض مرتفعًا لا يناله الماء، أرسل إليها الغيوم، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم، وهي سحب ثقال، ثم يرسله على الأرض مدرارًا في وقت الحاجة.

وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء، تنفجر منها العيون تدريجاً، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره.

وانظر كيف سخر الشمس وخلقها، مع بُعدها عن الأرض، مسخنة لها في وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إليه، والحر عند الحاجة إليه.

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب، كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير، وكل كوكب خلق في السماء، فهو مسخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس والقمر. ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، وكذلك الشمس والقمر. فيهما حكم آخر غير ما ذكرنا لا تحصى.

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد في كل مكان، سخر الله تعالى التجار، وسلط عليهم الحرص على جمع المال، مع أنه لا يغنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون الأموال، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق، أو يموتون في بعض البلاد، فتأخذها السلاطين. وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا. فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة، حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح في ركوب البحار، وركوب الأخطار، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك.

س: ما السبب في تقصير الخلق في شكر النعمة؟

ج: اعلم: أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه: الحمد لله، والشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله تعالى.

س: ما هي أسباب الغفلة عن نعم الله ﷻ؟

ج: أما الغفلة عن النعم فلها أسباب: أحدها: أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكروا على جملة مما ذكرناه، من النعم، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى واحد منهم اختصاصًا به، فلا يعده نعمة، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمخنتهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في حمام أو بئر ماتوا غمًا، فإن ابتلي أحدهم بشيء من ذلك ثم نجى، قدر ذلك نعمة يشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفًا على أن تسلب عنهم النعمة، ثم ترد إليهم في بعض الأحوال، فالنعم في جميع الأحوال أولى بالشكر، فلا ترى البصير يشكر صحة البصير إلا أن يعمي، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها حينئذ وعدها نعمة، وهو مثل عبد السوء يضرب دائمًا، فإذا ترك ضربه ساعة، شكر وتقلد ذلك منه، وإن ترك ضربه أصلًا، غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا على المآل الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلّة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم.

كما روي أن بعضهم شكوا فقره إلى بعض أرباب البصيرة، وأظهر شدة اغتمامه بذلك، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك أحرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفًا؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف؟ قال: لا، قال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بمخمسين ألفًا.

وحكي عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعًا، فرأى في المنام كأن قائلًا يقول له: أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار؟ قال: لا. قال: فسورة هود؟ قال: لا، قال: فسورة يوسف؟ قال: لا، قال: فمعك قيمة مائة ألف

دينار وأنت تشكو؟ فأصبح وقد سري عنه .

ودخل ابن السماك على الرشيد في عظة، فبكى ثم دعا بماء في قدح فقال: «يا أمير المؤمنين! لو منعت هذه الشربة إلا بنصف الدنيا وما فيها، اكنت تفديها بها؟ قال: نعم. قال: فاشرب ربيًا، بارك الله فيك. فلما شرب. قال له: يا أمير المؤمنين: أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدي ذلك؟ قال: نعم. قال: فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه!»

وهذا يبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم، وهذه إشارة وجيز إلى النعم الخاصة.

اعلم: أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى من نعم الله نعمًا كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس، بل قد يشاركه في ذلك كثير منهم، من ذلك العقل، فما من عبد إلا وهوراضٍ عن الله سبحانه في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلما يسأل الله العقل، وإذا كان ذلك اعتقاده، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك. ومن ذلك الخلق، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبًا يكرهها، وأخلاقًا يذمها، ويرى نفسه بريئًا منها، فينبغي أن يشكر الله تعالى على ذلك، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره.

ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه أحد من الخلق لا فتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه، حيث أظهر الجميل وستر القبيح، ولتنزل إلى طبقة أعم من هذا القبيل، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته، أو أخلاقه أو صفاته، أو أهله، أو ولده، أو مسكنه أو بلده، أو رفيقه، أو أقاربه، أو جاهه، أو سائر مجابه، أمورًا، لو سلب ذلك وأعطي ما خصص به من ذلك غيره، لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمنًا لا كافرًا،

وحياً لا جهاداً، وإنساناً لا بهيمة، وذكرًا لا أنثى، وصحيحًا لا مريضًا، وسليماً لا معيبًا، فإن كل هذه خصائص.

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره، مثل أن لا يعرف شخصًا يرتضى لنفسه حاله بدلًا عن حال نفسهن إما على الجملة، أو في أمر خاص، فإن لله عليه نعمًا ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض، فليتنظر إلى عدد المغبوطين عنده، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممن فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ولا ينظر إلى من دونه؟! ولا ينظر إلى من دونه؟!!

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فليتنظر من هو أسفل منه ممن فضل عليه» [صحيح]: أخرجه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣). وقد رواه الترمذي بلفظ آخر: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزددوا نعمة الله عليكم» [أخرجه الترمذي (٢٥١٣)، وأصله عند مسلم (٢٩٦٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح جامع الترمذي»].

فإن من اعتبر حال نفسه، وفتش على ما خص به، وجد لله تعالى عليه نعمًا كثيرة، لا سيما من خص الإيمان، والقرآن، والعلم، والسنة، ثم الفراغ، والصحة والأمن وغير ذلك.

وفي حديث آخر: «من أصبح آمنًا في سربه، معافي في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» [أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤١٤١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٤٢)].

وقال بعضهم:

إذا ما القوت يأتي لـ ك في الصحة والأمن  
وأصبحت أخا حزن فلا فارقت الحزن

س: ما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى؟

ج: الجواب: أما القلوب المبصرة، فتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله ﷻ، وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء، فسييل صاحبها أن ينظر أبداً إلى من دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء، فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم، ثم يتأمل صحته وسلامته، ويشاهد الجناة الذين يقتلون، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات، ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموق أن يردوا إلى الدنيا، ليتدارك من عصا عصيانه، وليزيد في الطاعة من أطاع، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فإذا شاهد المقابر، وعلم أحب الأشياء إليهم، فليصرف بقية عمره في طاعة الله تعالى وشكره في الإمهال، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله، وهو التزود للآخرة. ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت.

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول: عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

س: قد ذكرت أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر، وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البلاء؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر؟! فإن الصبر يستدعي الماء، والشكر يستدعي فرحاً، وهما متضادان؟

ج: اعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه، مثل الكفر، فإنه بلاء، ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعاصي، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته، والمعاصي يعرف عصيانه، فعليه ترك المعصية، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا

يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه، لم يؤمر بالصبر على ذلك، بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذا رجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجهه، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان، حتى يقصد قتله بسبب ماله، والصحة أيضاً كذلك، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء، وقد يكون على العبد في بعض الأمور بلاء وفيه نعمة.

مثال ذلك، جهل الإنسان بأجله، فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش، وطال بذلك غمه، وكذلك جهله بما يضره بعض الناس له، إذ لو اطلع عليه، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره، إذ لو عرف منه ذلك، أبغضه وآذاه، فكان ذلك وبالاً عليه.

ومن ذلك إبهام القيامة، وليلة القدر، وساعة الجمعة، وكل ذلك نعمة، لأن الجهل يوفر الدواعي على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل، فكيف في العلم!؟

وقد قلنا: إن لله سبحانه في كل موجود نعمة، حتى إن الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم، وقد تكون نعمة في حق غيره، كآلم الكفار في النار في الآخرة، فإنه نعمة في حق أهل الجنة، إذ لو لم يعذب قوم، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبدولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء، وهي أحسن من كل نبت، لأنها عامة، فلذلك لم يشعروا بها، ولم يفرحوا بسببها، فإذا صح قولنا: إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة، إما على جميع العباد، أو على بعضهم، ففي خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً، إما على المبتلى، أو على غيره، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر في كل حالة لا توصف

بأنها بلاء مطلق، ولا نعمة مطلقة، فإن الإنسان قد يفرح بالشيء الواحد من وجه، ويغتم به من وجه، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح. س: ما هي الأمور الموجودة في البلاء التي ينبغي للعاقل أن يفرح بها ويشكر عليها؟

ج: اعلم: أن في كل فقر، ومرض، وخوف، وبلاء في الدنيا، خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها، ويشكر عليها: أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها، لأن مقدرات الله تعالى لا تتناهى، فلوأضعفها الله ﷻ على العبد، فما كان يمنعه؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم. الثاني: أن المصيبة لم تكن في الدين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرم الرضى به، وإذ أرجو الثواب عليه».

قال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي، فقال: «أشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط، فاقصر على عشرة، فهو مستحق للشكر».

الثالث: أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلل عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم، فلا سبيل إلى تخفيفها، ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانيًا، كذلك ورد في الحديث عن النبي ﷺ.

وفي «صحيح مسلم»: «إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها» [أخرجه مسلم (٢٥٧٤)].

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، ولم يكن بد من وصولها

إليها، فقد وصلت واستراح منها، فهي نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي، فإنه لو خلى واللعب، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب، فكان يخسر طول عمره، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء، قد تكون سبباً لهلاكه، فالملحدون غداً يتمنون أن لو كانوا مجانين وصيياناً، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد، إلا ويتصور أن يكون له في ذلك خيرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله ﷻ، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله تعالى عليه، فإن حكمة الله تعالى واسعة، وهو أعلم بمصالح العباد منهم، وغداً يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه، كما يشكر الصبي بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذ رأى ثمرة ما استفاد من التأديب.

والبلاء تأديب من الله تعالى، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد. وفي الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له» [أخرجه أحمد (١١٧٥٠)، (١٢٤٩٥)، (١٩٧٧٢)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله»، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٩٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٩٨٥)].

وأيضاً، فاعلم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والأنس بها، فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها، فصارت سجناً له، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن. وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك بمن يجمك أو يسقيك دواء نافعاً بلا أجر فإنك تتألم وتفرح، فتصبر على الألم، وتشكر على سبب الفرح، فمن عرف هذا، تصور منه أن يشكر على البلاء، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة.

وقد روي أن أعرابياً عزي ابن عباس رضي الله عنه بأبيه فقال:

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الراس  
خير من العباس صبرك بعده والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي». وقد سبق ذكر أنواع البلاء، وثواب الصبر عليها.

س: الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم، فهل لنا أن نسأل الله تعالى البلاء؟

ج: الجواب؛ أنه لا وجه لذلك، فإن في الحديث من رواية أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه، فهلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» [أخرجه مسلم (٢٦٨٨)].

وفي «الصحيحين» أنه صلى الله عليه وسلم قال: «تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء» [أخرجه البخاري (٦٦١٦)، ومسلم (٢٧٠٧)].  
وقال مطرف: «لأن أعافى فأشكر، أحب إلي من أن ابتلى فأصبر».

س: أيهما أفضل الصبر أم الشكر؟

ج: اختلف الناس: هل الصبر أفضل من الشكر، أو بالعكس؟ وفي ذلك كلام طويل، تلخيص القول فيه: أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات. فأقل درجات الصبر، ترك الشكوى مع الكراهة، ووراءها الرضى، وهو مقام وراء الصبر، ووراء ذلك الشكر على البلاء، وهو وراء الرضى.

ودرجات الشكر كثيرة، فإن حياء العبد من تابع نعم الله عليه شكر، ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر، والاعتراف بأن

النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر، وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر، لقوله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» [أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٦٠١)]. وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغیرها شكر، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر؟

لكن نقول: إذا أضيف إلى الشكر الذي هو صرف المال إلى الطاعة، فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضًا، وفيه فرح بنعمة الله ﷻ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التمتع المباح، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار. أما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية، بل يصرفه إلى التمتع المباح، فالصبر هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له في المباحات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى، وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء على الشكر، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص، لأن السابق إلى افهام الناس، من نعمة الأموال، والغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله.

فإذن الصبر الذي يعتمده العامة أفضل من هذا الشكر الذي يفهمونه. ومتى لحظت المعنى الذي ذكرناه، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهًا في بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غني شاكركما ذكر، ورب غني شاكركما ذكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير الذي لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة، ويصرف الباقي في الخيرات، أو يمسكه على اعتقاده أن خازن للمحتاجين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منة، فهذا أفضل من الفقير الصابر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

## الرجاء

س: تحدث عن فضل الرجاء وأهميته؟

ج: الرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المتوقع لا بد له من سبب حاصل، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء، سمي تمنيًا، لأنه انتظار من غير سبب. ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، فأما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولكن يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبدور فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار ومساقى الماء إليها.

وإن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر. ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضًا طيبة، وألقى فيها بذرًا جيدًا غير مسوس ولا عفن، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهذا يسمع انتظاره رجاء.

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يتعاهدها أصلًا، ثم انتظر الحصاد، فهذا يسمى انتظاره حمقًا وغرورًا، لا رجاء.

وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، سمي انتظاره تمنياً لا رجاء.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاء محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حمقاً وغروراً. قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْيِهِمْ خَلْفٌ وَرُوِيَ الْكِنْبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٩٦]. ودم القائل: ﴿قَائِمَةٌ وَلَيْنَ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقال معروف الكرخي رحمته الله: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

المعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك.

واعلم: أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى، والتنعم بمناجاته،

والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لا بد أن تظهر على كل من يرجو ملكًا من الملوك، أو شخصًا من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله ﷻ؟ فمتى لم يظهر، استدل به على حرمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مرادًا بالخير من غير هذه العلامات، فهو مغرور.

س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الرجاء؟

ج: روي في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ انه قال: «قال الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي» وفي رواية أخرى «فليظن بي ما شاء». وفي حديث آخر من رواية مسلم: أن النبي ﷺ قال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» [أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)]. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «أحبني، وأحب من يحبني، وحبيني إلى خلقي». قال: يا رب: كيف أحبيك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني».

وعن مجاهد رضي الله عنه قال: «يؤمر بالعباد يوم القيامة إلى النار، فيقول: ما كان هذا ظني فيقول: ما كان ظنك: أن تغفر لي، فيقول: خلوا سبيله».

س: من من الناس تشتد حاجته لدواء الرجاء؟

ج: دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان: إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله. فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تقلب في حقه سمومًا، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرود، مضر لمن غلبت عليه الحرارة. ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس ملتطفًا، ناظرًا إلى مواضع العلل، معالجًا كل علة بما يليق بها، وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء،

بل المبالغة في التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه، لإصلاح المرضى.

وقد قال علي رضي الله عنه: «إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم مكر الله».

س: تحدث عن أسباب الرجاء وطرقها؟

ج: اعلم أن من أسباب الرجاء، ما هو من طريق الاعتبار، ومنها ما هو من طريق الأخبار، أم الاعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم في كتاب الشكر، فإذا علم لطائف الله تعالى بعباده في الدنيا، وعجائب حكمته التي راعاها في فطرة الانسان، وأن لطفه الإلهي لم يقصر عن عباده في دقائق مصالحهم في الدنيا، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات في الرتبة، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد؟! فإن من لطف في الدنيا يلطف في الآخرة، لأن مدبر الدارين واحد.

وأما استقراء الآيات والأخبار، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤].

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه، وإنما خوف بها أوليائه، فقال: ﴿لَمَّا مَن قَوْمِهِمْ ظَلَلُوا مِنَ النَّارِ وَمِن مَّحَنِهِمْ ظَلَلُوا ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْقُضُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقال: ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْتَظَى﴾ [٧] لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿٨﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤-١٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تذبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم» [أخرجه مسلم (٢٧٤٩)] رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» من حيث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا

وأبشروا، فإنه لن يدخل أحدًا الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته» [أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦)].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم: قم فابعث بعث النار فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك. يا رب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ يشيب المولود، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. فشق ذلك على الناس، حتى تغيرت وجوههم، قالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ فقال ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد» فقال الناس: الله أكبر. فقال النبي ﷺ: «والله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبر الناس، فقال: «ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض» [أخرجه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢)].

فانظر كيف جاء بالتحويق، فلما أزعج جاء باللطف، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى، فينبغي أن تزعج فإذا اشتد قلقها، يبغي أن تسكن ليعتدل الأمر. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ليغفرن الله ﷻ يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر». وروي أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يصفه وقال: «إن أسلمت، أضفتك، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسع إبراهيم عليه السلام خلفه، فرده وأخبره في الحال، فتعجب من لطف الله تعالى. فأسلم». فهذه الأسباب التي تجلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين. فأما الحمقى المغرورون، فلا يبغي أن يسمعوا شيئاً من ذلك من، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك، كعبد السوء الذي لا يستقيم إلا بالعصا.

## الخوف

س: ما تعريف الخوف وما حقيقته؟

ج: اعلم: أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

مثال ذلك، من جنى على ملك جناية، ثم وقع في يده، فهو يخاف القتل، ويجوز العفو، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتل، وتفاحش جنائته، وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سبب جنائية، بل عن صفة الخوف وعظمته وجلاله، إذ قد علم أن الله سبحانه، لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه، وبجلال الله تعالى واستغناؤه، وأنه لا يسأل عما يفعل، يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه ويربه، ولذلك قال النبي ﷺ: «أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية» [أخرجه البخاري (٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦)]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وإذا كملت المعرفة، أثرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد يفضي إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل.

وأما ظهوره أثره على الجوارح، فبكفها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل.

قال بعضهم: من خاف أدلج. وقال آخر: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه.

س: اذكر بعض ثمرات الخوف؟

ج: من ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي

المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيهِ إذا علم أن فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذه النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في خالب سبع ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمي ورعاً، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

س: ما هي أحوال الناس مع الخوف؟

ج: الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

والخوف، له إفراط، وله اعتدال، وله قصور. والمحمود من ذلك الاعتدال، وهو بمنزلة السوط للبهيمة، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، وليس المبالغة في الضرب محمودة، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محمود، وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية، أو سبب هائل، فيورث البكاء، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهو خوف قاصر قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي يضرب دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغلب على الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعني العلماء بالله وبآياته، وقد عز وجودهم. وأما المرتسمون برسوم

العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف.

وأما القسم الأول، وهو الخوف المفرط، فهو كالذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، فهو أيضًا مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج المرض والوله والموت، وليس ذلك محمودًا، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه، فهو مذموم، وفائدة الخوف الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة والفكر، والذكر، والتعبد وسائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في ذلك شيء، كان مذمومًا.

فإن قيل: فما تقول فيمن مات من الخوف؟ فالجواب: أنه ينال موته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لومات من غير خوف، إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة، كان أفضل، فإن أفضل السعادة طول العمر في طاعة الله تعالى، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران.

س: ما هي أقسام الخوف؟

ج: مقامات الخائفين تختلف، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة. وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة، ويضع من يشاء من غير وسيلة، لا يسأل عما يفعل.

وقد قال: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي» [أخرجه أحمد (١٧٢٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٨٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٧٥٨)].

ومن أقسام الخائفين، من يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، والخوف من المناقشة، والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله ﷻ، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدین.

س: ما العلاقة بين الرجاء والخوف؟

ج: الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود، ولا بد من بيان حقيقتهما وفضلتهما وسيهما، وما يتعلق بذلك

س: أيهما ينبغي للإنسان أن يغلبه الخوف أم الرجاء؟

ج: فضيلة كل شيء بقدر إعانتة على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» [أخرجه الترمذي (١٦٣٩)، وقال:

حديث حسن، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٣٣٢٢)].

واعلم: أن قول القائل: أيما أفضل الخوف، أو الرجاء؟ كقوله: أيما أفضل الخبز

أو الماء؟

وجوابه: أن يقال الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، نظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان، والخوف والرجاء دواءان يداوي بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من

مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل، ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السكنجين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجين يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثره، فالحاجة إلى الخبز أكثر، فهو أفضل بهذا الاعتبار، لأن المعاصي والاعتزاز من الخلق أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل، لأن الرجاء يستقى من بحر الرحمة، والخوف يستقى من بحر الغضب.

وأما المتقي، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لاعتدلا.

قال بعض السلف: لو نودي: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولو نودي: ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل. وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقي.

س: كيف يحصل اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى؟ فينبغي أن يكون رجاؤه أقوى؟

ج: أن المؤمن غير متيقن صحة عمله، فمثله من بذر بذراً ولم يجرب جنسه في أرض غريبة، والبذر الإيمان، وشروط صحته دققة، والأرض القلب، وخفايا خبثه وصفائه من النفاق، وخبايا الأخلاق غامضة، والصواعق أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكل هذا يوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن؟ وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة رضي الله عنه: «هل أنا من المنافقين؟» وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه، ويستتر عيبه عنه، فالخوف المحمود هو الذي يبعث على العمل، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للإنسان الرجاء، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل، وليس ثمة عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه،

والرجاء في هذه الحال يقوي قلبه، ويجب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى، محباً للقائه، حسن الظن به.

وقد قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره: «حدثني بالرخص، لعلي ألقى الله وأن أحسن الظن به».

س: كيف يستجلب الخوف؟

ج: حصول الخوف يحصل بطريقتين: أحدهما أعلى من الآخر: مثاله أن الصبي إذا كان في بيت، فدخل عليه سبع، أو حية، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبي، وخاف موافقة لأبيه، فخوف الأب عن معرفة، وخوف الولد من غير معرفة، بل هو تقليل لأبيه.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان، أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالتذكر، والتفكير في عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفين. قال الله

تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمُ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب.

قال ذوالنون: «خوف النار عند خوف الفراق، كقطرة في بحر»، ولعامة الناس

حظ من هذا الخوف، ولكن بمجرد التقليد، فهو يضاهي خوف الصبي من الحية، تقليداً لأبيه، فلذلك يضعف، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات،

واجتناب المعاصي، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى، خافه بالضرورة، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه، بل يخاف بالضرورة. ومن قصر، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يدرك الشر ولم يعمله، قال: «أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله ﷻ خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم» [أخرجه مسلم (٢٦٦٢)].

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢] ثم ذكر بعدها أربعة شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰهَا وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع في التحيل، فأما ما حق في القدم، فلا يمكن تداركه، فليس إلا التسليم، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه، وروح قلوبهم بالرجاء، لا احترقت من نار الخوف.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه». ولما حضرت سفيان الثوري الوفاة، جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله: أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض وقال: «والله لذنوبي أهون عندي من

هذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت».

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: «المسلم يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر».

ويروى: «أن نبياً من الأنبياء، شكا إلى الله تعالى الجوع والعري، فأوحى الله ﷻ إليه: عبدي، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرني حتى تسألني الدنيا؟! فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى قد رضيت، فاعصمني من الكفر».

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء!؟

س: ما هي أسباب سوء الخاتمة أعاذنا الله منها؟

ج: لسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل البدعة، والنفاق، والكبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أني بريء من النفاق، كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، غمنا أرادوا نفاق الأعمال، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» [أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)].

س: ما هي مراتب سوء الخاتمة؟

ج: سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم، وهي أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله، فيقتضي ذلك العذاب الدائم. والثانية دونها، وهي أن يخط الأقدار، ويتكلم بالاعتراض، أو يجور في وصيته، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب.

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

وقد روي عن النبي ﷺ، أنه كان يدعو: «اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت» [أخرجه أحمد في مسنده (١٥٠٩٨) وأبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٢٨٢)].

قال الخطابي: وذلك أن يستولى على الإنسان حينئذ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج من مظلمة، أو يؤيسه من رحمة الله ويكره إليه الموت، فلا يرضى بقضاء الله ﷻ.

والأسباب التي تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك. أما الختم على الشك والجهود، فسيبه البدعة، ومعناها أن يعتقد في ذات الله تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليدًا، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بأن له بطلان ما اعتقده، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له.

ومن اعتقد في الله سبحانه وصفاته اعتقادًا مجملًا على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى.

وأما الختم على المعاصي، فسيبه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك يورث الانهماك في المعاصي، والمعاصي مطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفًا، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة، وهو حب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد في قلبه حب الله تعالى، أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، وكل من مات على محبة الله تعالى، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلًا عما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح في حال، خطر بباله فيها لإنكار على الله سبحانه في فعله، أو كان مصرًا على مخالفته، قدم على الله قدوم من قدم به قهراً، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، ترحح عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.

وقد ورد في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه لمن أهل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار» [أخرجه البخاري (٦٦٠٧)، ومسلم (١١٢)].

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسوية بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك، لأنه يمكن أن تحطف فيه روحك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه:

واعلم: أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تقنع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر في اشتداد خوفهم، لعلك تستعد لنفسك.

س: اذكر بعض الأخبار حول خوف ملائكة الرحمن؟

ج: قال الله تعالى في صفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. وعن يزيد الرقاشي قال: «إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب ﷻ: يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يا رب! لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً، ولا انبسطوا في فرشهم، وخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر». وقال محمد بن المنكدر: «لما خلقت النار، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق آدم عادت». وروري أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر، طفق جبريل، وميكائيل

بيكيان، فأوحى الله تعالى إليهما: «ما هذا البكاء؟ قالوا: يارب! ما نأمن من مكرك. فقال: هكذا فكونا».

س: اذكر بعض الأخبار حول خوف الأنبياء؟

ج: قال وهيب بن الورد: «لما عاتب الله تعالى نوحًا ﷺ في ابنه فقال: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء».

وقال ابوالدرداء ﷺ: «كان يسمع لصدر إبراهيم ﷺ إذا قام إلى الصلاة أزيز من بعد خوفًا من الله ﷻ».

وقال مجاهد: «لما أصاب داود ﷺ الخطيئة، خر لله ساجدًا أربعين يومًا حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه، ثم نادى يا رب: قرح الجبين، وجدت العين، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء، فنودي: أجاجع أنت فتطعم؟ أم مريض فتشفى؟ أم مظلوم فتنصر، فنحب نحبًا حاج كل شيء نبت، فعند ذلك غفر له».

وقيل: كان داود ﷺ: «يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله ﷻ».

وكان عيسى ﷺ: «إذا ذكر الموت يقطر جلده دمًا».

وبكى يحيى بن زكريا ﷺ: «حتى بدت أضراسه، فاتخذت أمه قطعتين من لبود فألصقتهما بخديه».

س: اذكر بعض أخبار خوف نبينا محمد ﷺ؟

ج: عن عائشة ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعًا ضاحكًا، حتى أرى لهواته إنما كان يتسم، وكان إذا رأى غيمًا وريحًا عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك! فقال: «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد

عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا [أخرجه مسلم (٨٩٩)].

وكان ﷺ يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

س: اذكر بعض صور خوف أصحاب النبي ﷺ وﷺ؟

ج: عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه كان يمسك لسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد. وقال: يل ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل». وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبوذر ﷺ.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يسمع آية فيمرض فيعاد أيامًا. وأخذ يومًا تبنه من الأرض فقال: «يا ليتني كنت هذه التبنه، يا ليتني لم أك شيئًا مذكورًا، يا ليت أمي لم تلدني. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء».

وقال عثمان ﷺ: «وددت أني إذا مت لا أبعث».

وقال أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: «وددت أني كنت كبشًا فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحسوا مرقي».

وقال عمران بن حصين: «يا ليتني كنت رمادًا تذرؤه الرياح».

وقال حذيفة ﷺ: «وددت أن لي إنسانًا يكون في مالي، ثم أغلق علي بابي، فلا يدخل علي أحد حتى ألحق بالله ﷻ». «وكان مجرى الدمع في خد ابن عباس ﷺ كالشراك البالي».

وقالت عائشة ﷺ: «يا ليتني كنت نسيًا منسيًا».

وقال علي ﷺ: «والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم. لقد كانوا يصبحون شعنًا غبرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله تعالى، يراوحن بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا لله ﷻ، مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى

تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين».

س: اذكر بعض أخبار خوف التابعين؟

ج: قال هرم بن حيان: «وددت والله أني شجرة أكلتني ناقة، ثم قذفتني بعراً، ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إني أخاف الداهية الكبرى».

وكان علي بن الحسين إذا توضع أصفر وتغير، فيقال: مالك؟ فيقول: «أندرون بين يدي من أريد أن أقوم؟» وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يفتر». وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض الطير، ويبكي حتى تجري دموعه على لحيته. وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: «ذكرت منصور القوم من بين يدي الله تعالى، فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغشي عليه».

ولما أراد المنصور بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له: «أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر. فقال: بات ليلة على سطح غرفتي هذه وهو من رخام، فإذا انا بماء يقطر من الميزاب، فصعدت فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب».

وقد روينا عن: «عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلية أنهما بكيا الدم».

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكري: «دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس، وتفرغ لنفسه، فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة، وذكر الموت. قال: فجعل يشهق حتى خرجت نفسه».

وقال مسمع: «شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ، فمات يومئذ في ذلك المجلس أربعة أنفس».

وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيراً ويقول: «والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام، لكان حقي أن لا أفتر من البكاء، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في النار إن عصيته؟!»

وقال السري السقطي: «إني لأنظر كل يوم إلى أنفي مخافة أن يكون قد اسود وجهي».

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء وكمال المعرفة، وإنما أمانة لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ. قال بعض السلف: قلت لراهب: أوصني، فقال: إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسنه، أو يسهو فينهشنه، فهو مذعور فافعل. قلت: زدني. فقال: الظمان يجزيه من الماء أيسره. وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام، فهو حقيقة في حق المؤمن، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته، رآه مشحوناً بالسباع والهوام، كالغضب، والحقد، والحسد، والكبر، والعجب، والرياء، وغير ذلك، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء ووضع في القبر، عاينها متمثلة حيات وعقارب عن يلدغنه، وإنما هي صفاته الحاضرة الآن، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام.

### الفقر

س: اذكر فضل بغض الدنيا؟

ج: حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبغضها أسباب كل طاعة، وقد سبق ذكر دم الدنيا، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها، فإنه رأس المنجيات ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك زهداً، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات، وحظ في

الإعانة على الفوز والنجاة، ونحن نذكر الفقر، والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وما يتعلق بهما.

س: من هو الفقير؟

ج: الفقير إلى الشيء هو المحتاج إليه، وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود، وذلك مستفاد من فضل الله تعالى. وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يحصر، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال.

س: ما هي أحوال العبد عند فقره؟

ج: يتصور أن يكون للعبد خمسة أحوال عند فقره:

الأولى: أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به، وهرب من أخذ بغضاً له، واحتراراً من شره وشغله، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً.

الحالة الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بمحصله، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به. وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً.

الرابعة: أن يكون تركه للطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه، لو وجد سبيلاً إلى طلبه بالتعب لطلبه، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص.

الخامسة: أن يكون مضطراً إلى ما قصد من المال، كالجائع، والعارى الفاقد للمأكل والملبوس. ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً، كيفما كانت رغبته في الطلب ضعيفة أو قوية. وأعلى هذه الخامسة: الحالة الأولى، وهي: الزهد، ووراءها حالة أخرى أعلى منها، وهي أن يستوي عنده وجود المال وعدمه، فإن وجه لم يفرح

به، ولم يتأذ إن فقدته، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها جاءت مال في غرارتين، ففرقته في يومها، فقالت لها جاريتها: أما استطعت أن تشتري لنا مما قسمت لحمًا بدرهم نفطر عليه؟ فقالت: «لوذكرتيني لفعلت».

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بجذافيرها في يده لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى، لا في يد نفسه.

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعًا، ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يرغب في وجودها، ولا عدمها، فهو في غاية الكمال.

قال أحمد بن أبي الخوارى لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: «أذهب إلى البيت فخذ الزكاة التي أهديتها لي، فإن الشيطان يوسوس لي أن اللص قد أخذها، فقال أبو سليمان: هذا من ضعف الزهد، هو قد زهد في الدنيا ما عليه من أخذها». فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال، فأما في حق الأنبياء والأقوياء، فسواء عليهم وجوده وعدمه. وقد يظهر القوي النفار من المال ليقنتدي به الضعفاء في الترك، والله أعلم.

س: اذكر بعض الآيات والأخبار في فضيلة الفقر على الغنى؟

ج: أما الآيات فقد قال الله تعالى في معرض المدح في حق الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٣]. وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ ... الآية [الحشر: ٨].

وأما الأخبار فكثيرة، منها: قوله ﷺ: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجذع محبسون» [أخرجه البخاري (٦٥٤٧)، ومسلم (٢٧٣٦)]. وذكر تمام الحديث. وهو في «الصحيحين». وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا» [أخرجه البخاري (٦٤٦٠)،

ومسلم (١٠٥٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض» [أخرجه البخاري (٥٤١٦)]. وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلاً يملأ بطنه» [أخرجه مسلم (٢٩٧٨)]. وروى أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام» [أخرجه الترمذي (٢٣٥١)، وابن ماجه (٤١٢٣) كتاب الزهد - باب منزلة الفقراء، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٨٠٧٦)]. وقال الترمذي: حديث صحيح. وقيل لموسى عليه السلام: «إذا رأيت الفقر مقبلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغني مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته». وقال أبو الدرداء: «حساب ذي الدرهمين أشد حساباً من ذي الدرهم». وكان الفقراء يتقدمون في مجلس سفيان الثوري على الأغنياء. وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها، وقال: «تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء؟! لا أفعل».

وقال النبي ﷺ: «طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً، وقنع بما آتاه الله ﷻ» [أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٤٢٦)، والترمذي (٢٣٤٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٩٣١)].

س: أيهما أفضل الغني أم الفقير؟

ج: أما التفضيل بين الغني والفقير، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير، ولكن لا بد من تفصيل، فنقول: إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غني شاكِر ينفق ماله في الخيرات، أو فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص، فإن كان متمتعاً بالمال في المباحثات، فالفقير القنوع أفضل منه. وكشف الغطاء في هذا أن ما يراد لغيره، ولا يراد لعينه، ينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها

عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، والفقر ليس مطلوباً لعينه، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى، وعدم التشاغل عنه.

وكم من غني لا يشغله ماله عن الله تعالى، كسليمان عليه السلام، وكذلك عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما. وكم من فقير شغله فقره عن المقصود، وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به، وإنما الشاغل له حب الدنيا، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى، فإن المحب للشيء مشغول به، سواء كان في فراقه، أو في وصاله، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر. والدنيا معشوقة الغافلين، فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر، فالفقير عن الخطر أبعد، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا تجد، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم، جاء الشرع يذم الغني وفضل الفقير. وقد تقدم ما يدل على فضله.

واعلم: أن فراق المحبوب شديد، فإذا أحبيت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوباً كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به، فينبغي أن تحب من لا يفارقك، وهو الله تعالى، ولا تحب الدنيا التي تفارقك.

س: اذكر بعض آداب الفقير في فقره؟

ج: ينبغي له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر، وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً، ويكون متوكلاً على الله سبحانه، واثقاً به ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكو إلى الله تعالى، كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتجمل. قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته، وينبغي

له أيضًا أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بذل ما فضل عنه، فإن ذلك جهد المقل.

س: ما هي آداب الفقير في قبول العطاء؟

ج: إذا جاءه بغير سؤال ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

الأول: أما في نفس المال، فينبغي أن يكون خاليًا عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه. وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، وما يجب اجتنابه، وما يستحب. وأما غرض المعطي، فلا يخلو، إما أن يكون طلبًا للمحبة، وهو الهدية، فلا أس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة.

الثاني: أن يكون غرض المعطي الثواب، وهو الزكاة والصدقة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه، هل هو مستحق أم لا؟ فإن اشبهه عليه فهو محل شبهة، وإن كان صدقة، فكان المعطي إنما يعطيه لدينه، فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارنًا لمعصية في السر، يعلم أن المعطي لو علم بذلك، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقة عليه، لم يأخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن.

الثالث: أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه، لأنه إذا قبله يكون معينًا له على قصده الفاسد. وأما غرضه في الأخذ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه؟ فإن مستغنيًا لم يأخذه، وإن كان محتاجًا إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما روي عن عمر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذ، وما لا فلا تتبعه نفسك» [أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥)]. أخرجاه في «الصححين».

وفي حديث آخر: «من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة، فليقبله ولا يرده، فإنما هورزق ساقه الله إليه».

س: ما حكم السؤال لغير ضرورة؟

ج: اعلم: أنه قد ورد في السؤال أحاديث في النهي عنه، وفي الترخيص فيه. أما الترخيص: فكقوله ﷺ: «ردوا السائل ولو بظلف محرق» [أخرجه أحمد (١٧٤٧٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٥٤)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٠٥)]. ولو كان السؤال حرامًا، لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه، والإعطاء إعانة. وأما أحاديث النهي عن السؤال: فروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله ﷻ وليس في وجهه مزعة لحم» [أخرجه البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠)]. أخرجاه في «الصحيحين».

وفيهما أيضًا: أنه ﷺ ذكر التعفف عن المسألة فقال: «اليد العليا خير من اليد السفلى» [أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣)]. واليد العليا المعطية، والسفلى السائلة.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أنه ﷺ قال: «من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشًا أو كدوشًا في وجهه» [أخرجه أحمد (٣٦٦٦)، (٤٤١٩٥)، (٤٤٢٦)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٩٩)]. إلى آخره، وفي المعنى أحاديث كثيرة. وكشف الغطاء في هذا أن نقول: السؤال في الأصل حرام، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور:

أحدها: الشكوى.

والثاني: إذلال نفسه، وما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه.

والثالث: إيذاء المسؤل غالبًا.

وإنما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة. أما المضطر، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتًا أو مرضًا، وكسؤال العاري الذي ليس له ما يواريه. وأما المحتاج حاجة مهمة فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها في

الشتاء، فهو يتأذى بالبرد تأذيًا لا ينتهي إلى حد الضرورة، فكذلك من يقدر على المشي لكن بمشقة، يجوز له أن يسأل أجره يكتري بها للركوب، وتركه أولى. ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم، فله أن يسأل مع الكراهة، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الرحلة. وينبغي في مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله تعالى، ولا يسأل سؤال محتاج، بل يقول: أنا مستغن بما أملكه، وإنما النفس تطالبي، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى.

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه، أو السخي الذي أعد ماله للمكارم، فيخرج بذلك من الذل. وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياء، لم يجوز له الأخذ، ويجب رده إلى صاحبه. ولا يجوز للفقير أن يسأل غلا مقدار ما يحتاج إليه، من بيت يكنه، وثوب يستره، وطعام يقيمه. ويراعي في هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير تنوق في شيء من ذلك، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم، لم يجوز له أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته، وإن خاف أن لا يجد من يعطيه، أو خاف أن يعجز عن السؤال، أبيع له السؤال أكثر من ذلك. ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لستته، وعلى هذا يتنزل الحديث المروي في تقدير الغني بمخمسين درهماً، فإنها تكفي المنفرد المقتصد لسنة، فأما ذو العائلة فلا.

س: اذكر أحوال السائلين للعطاء؟

ج: كان بشر الحافي يقول: «الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فهذا من الروحانيين. وفقير لا يسأل، وإن أعطي أخذ، فذاك من أهل حظيرة القدس.

وفقير إذا احتاج سأل، فكفارة مسألته صدقة في السؤال».

قال الشيخ جمال الدين رحمته الله: قلت: وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال، لم يجوز له أن يسأل، فإن كان يندفع على مضض، نظرت، فإن

كان مثله لا يحتمل، ولا يخاف منه التلف، فالسؤال مباح وتركه فضيلة، وإن كان مثله لا يحتمل، وجب عليه أن يسأل.

قال سفيان الثوري رحمته الله: «من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار».

## الزهد

س: وضح مقام الزهد وفضله؟

ج: الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه، لم يسم زاهداً، ما ترك التراب لا يسمى زاهداً.

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول.

واعلم: أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة، واستمالة القلوب، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدر يبقى، قويت رغبته في بيع هذه بهذه. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧] وقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار في فضل الزهد؟

ج: من فضيلة الزهد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهَا﴾ [طه: ١٣١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه

ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة» [أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٩٢٥)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، والترمذي (٢٤٦٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٦٥١٠)].

وقال الحسن: «يحشر أناس عراة ما خلا أهل الزهد، وقال: إن أقوامًا أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها».

وقال الفضيل: «جعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا».

وكان بعض السلف يقول: «الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن».

س: ما هي درجات الزهد؟

ج: من الناس من يزهد في الدنيا وهولها مشته، لكنه يجاهد نفسه، وهذا يسمى: المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

الدرجة الثانية: أن يزهد فيها طوعًا لا يكلف نفسه ذلك، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يعجب بنفسه، ويرى أنه قد ترك شيئًا له قدر لما هو أعظم قدرًا منه، كما يترك درهمًا لأخذ درهمين، وهذا أيضًا نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعًا، ويزد في زهده، فلا يرى أنه ترك شيئًا، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء، فيكون كمن ترك خرقة، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أحسن من خرقة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد.

واعلم: أن مثل من ترك الدنيا، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فقرب من الملك، أفتراه يرى لنفسه يداً

عند الملك بلقمة ألقاها على كلبه في مقابلة ما قد ناله؟

فالشيطان كلب في باب الله ﷻ، وممنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة، فمن تركها لينال عز الملك، فكيف يلتفت إليها؟ ثم إن نسبتها، أعني ما سلم لكل شخص منها ولوعمر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، لأن الفاني لا نسبة له إلى الباقي، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدره؟

س: ما هي أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه؟

ج: أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه، على ثلاث درجات:

أحدها: الزهد للنجاة من العذاب، والحساب، والأهوال التي بين يدي الآدمي، وهذا زهد الخائفين.

الدرجة الثانية: الزهد للرجوة في الثواب، والنعيم الموعود به، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيمًا لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهي العليا. وهو أن لا يزهد في الدنيا للتخلص من الآلام، ولا للرجوة في نيل الذات، بل لطلب لقاء الله تعالى، وهذا زهد المحسنين العارفين، فإن لذة النظر إلى الله ﷻ بالإضافة إلى لذات الجنة، كلذة ملك الدنيا، والاستيلاء عليها، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به.

س: ما حكم الزهد في ضروريات الحياة وكيف يكون ذلك؟

ج: الضروريات المهمات سبعة أشياء: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه.

فأما الأول - وهو المطع - فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ.

وفي الحديث: «إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» [أخرجه أحمد (٢١٦٠٠)، (٢١٦١٣)]. وفي

«الزهد» (ص ٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٧٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٦٦٨). وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة: «كان يمر بنا هلال، وهلال، وهلال، ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. قال: قلت: يا خالة: فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء والتمر»، والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وقد كان كثير من الزهاد يخشون الطعام، وكان فيهم من لا يطيق ذلك. فكان الثوري حسن الطعام، وربما حمل في سفرته اللحم المشوي والفالودج. وفي الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه، ولا يزيد في التمتع، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحمل التخشن.

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال يتقوته، فلا يخرج ذلك من الزهد، فقد كان السبتي يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته.

وورث داود الطائي عشرين دينارًا، فأنفقها في عشرين سنة.

الثاني: الملبس، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرود، ويستر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل، لئلا يخرج التشف إلى الشهرة. وكان أكثر لباس السلف خشنًا، فصار لبس الخشن شهرة.

وقد روي عن أبي بردة قال: «أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساء ملبدًا، وإزارًا غليظًا، وقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين» [أخرجه البخاري (٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠)].

وعن الحسن قال: «خطب عمر رضي الله عنه وهو خليفة، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة».

الثالث: المسكن، فللزاهد فيه ثلاث درجات:

أعلاها: أن لا يطلب موضعًا خاصًا لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصفة.

وأوسطها: أن يطلب موضعًا خاصًا لنفسه، مثل كوخ من سعف، أو خص وما أشبه ذلك.

وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية. ومتى طلب السعة وعلو السقف، فقد جاوز حد الزهد في المسكن. وقد توفي رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة.

قال الحسن: «كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ، نلت السقف». وفي الحديث: «إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب» [أخرجه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٢٦٨١)، من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه]. وقال إبراهيم النخعي رضي الله عنه: «إذا كان البنيان كفافًا، فلا أجر ولا وزر». وفي الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد.

الرابع: أثاث البيت، فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف، ويستعمل الإناء الواحد في مقاصده، فيأكل في القصعة، ويشرب فيها، ومن خرج إلى كثرة العدد في الآلة، أو في نفاسة الجنس، خرج عن الزهد.

ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ. ففي «صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعر، نحو الصاع» [أخرجه مسلم (١٤٧٩)]. وفي رواية البخاري: «فوالله ما رأيت شيئًا يرد البصر» [أخرجه البخاري (٥١٩١)]. والحديث مشهور في «صحيح مسلم».

وقال علي رضي الله عنه: «تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش إلا جلد، كنا ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي خادم غيرها، ولقد كانت تعجن، وإن قصتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها».

ودخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه، فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر! ما أرى في بيتك متاعًا، ولا أثاثًا. فقال: «إن لنا بيتًا نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ها هنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه».

الخامس: المنكح، لا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته. قال سهل بن عبد الله: «حب إلى رسول الله ﷺ النساء». وكان علي رضي الله عنه من أزهد الصحابة، وكان له أربع نسوة، وبضع عشرة سرية. وكان أبو سليمان الداراني يقول: «كل ما شغلك عن الله، من أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم».

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول: من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه، تعين عليه النكاح، فأما من لا يخاف، فهل النكاح في حقه أفضل أو التبعذ؟ فيه اختلاف بين العلماء. يختلفون فيه، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل وبمكته الكسب الحلال للعائلة، فلا يقدح ذلك في دينه، ولا يتشتت قلبه، بل يجمع النكاح همه، ويكف بصره، ويرد فكره، فهذا غاية في الفضيلة، وعليه يحمل حال رسول الله ﷺ، وحال علي رضي الله عنه، ومن جرى مجراهما، ولا التفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود. وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل، والنفقة عليها أقل، والاهتمام بأمرها يسير، بخلاف المستحسنة، فإنها تشتت القلب، وتشغله، وتريد زيادة في النفقة، وربما لم يكن. وقد قال مالك بن دينار: «يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي فتقول: أريد مرطاً فتمرط دينه».

السادس: المال: وهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يتشغل بالتجارة ويقصد بها العفاف. «وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين، قام».

وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت، وخلف أربعمائة دينار، وقال: «إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني».

السابع: الجاه، ولا بد للإنسان من جاه حتى في قلب خادمه، واشتغال الزاهد بالزهد يمهّد له الجاه في القلب، فينبغي أن يتحرز من شر ذلك.

وفي الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا.

س: ما هي علامات الزهد؟

ج: قد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن ترك المال، وإظهار التخشن، سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من راهب قد لازم الدير، وقلل المطعم، وقواه على ذلك حب المحمدة، كما سبق ذكره في كتاب الرياء. ولا بد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعاً، حتى يكمل الزهد في حفظ النفس، فأول معرفة الزهد مشكل.

وقد قال ابن المبارك: «أفضل الزهد إخفاء الزهد»، وينبغي أن يعول في هذا على ثلاث علامات.

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. وهذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامه ومادحهن وهذه علامة الزهد في الجاه. الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة. فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فهما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان. قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟: إلى الأُنس بالله.

قال يحيى بن معاذ: «الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ماشطتها، والزاهد يسخم وجهها، وينتف شعرها، ويحرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها». فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه. وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

## التوكل

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة التوكل؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]. وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].  
وفي الحديث: أن النبي ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قال: «هم الذين لا يكتون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون» [أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خاصاً وتروح بطاناً».

س: ما هي طبقات التوحيد التي ينبني عليها التوكل؟

ج: التوكل يبتني على التوحيد، والتوحيد طبقات: منها أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فيصدق بهذا اللفظ، لكن من غير معرفة دليل، فهو اعتقاد العامة.

الثانية: أن يرى الأشياء المختلفة، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقربين.

الثالثة: أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله، لم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه في الحقيقة هو الفاعل وحده، فسبحانه والكل مسخرون له، فلا يعتمد على المطر في خروج الزرع، ولا على الغيم في نزول المطر، ولا على الريح في سير السفينة، فإن الاعتماد

على ذلك جهل بحقائق الأمور. ومن انكشفت له الحقائق، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها، ولا بد لها من محرك. فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتضرب عنقه، فوقع له الملك بالعفوعنه، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاتب والقلم لا من محرك القلم، وهذا غاية الجهل. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه، شكر الكاتب دون القلم، وكل مخلوقات في قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم في يد الكاتب، فسبحان مسبب الفعال لما يريد.

س: ما هو حد التوكل وتعريفه؟

ج: التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلى فلان، أي فوض أمره إليه، واعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة، والقوة، والهداية. فإذا عرفت هذا، فقس عليه التوكل على الله سبحانه، وإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فسيبه أحد أمرين:

إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال، وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين، فإنه من كان يتناول عسلًا، فشبّه بين يديه بالعذرة، ربما نفر طبعه منه، وتعذر عليه تناوله. ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقنًا كونه ميتًا جامدًا في الحال، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف قلما يخلوا الإنسان منه، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضًا، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعاً، فإذا انكشف لك معنى التوكل، وعلمت الحالة التي تسمى توكلًا، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى الثقة بكفالاته وعنايته، كحاله في الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهي أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه، وأول سابق إلى لسانه: يا أماء. فمن كان تأله إلى الله، ونظره إليه، واعتمادًا عليه، كلف به كما يكلف الصبي بأمه، فيكون متوكلًا حقًا. والفرق بين هذا وبين الأول، أن هذا متوكل قد فني في توكله عن توكله، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه، ولا مجال في قلبه لغيره.

وأما الأول، فهو متوكل بالتكليف والكسب، وليس فانيًا عن توكله، بل له التفات إليه، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده.

الدرجة الثالثة: وهي أعلى منهما، أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغامل، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتًا، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها.

وهذه الأحوال توجد في الخلق، إلا أن الدوام يبعد، ولا سيما المقام الثالث.

س: كيف تكون أعمال المتوكلين؟

ج: قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك بالتدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة، وكلحم على وضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع.

والشرع قد أثنى على المتوكلين، وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه إلى مقاصده، وسعي العبد إما أن يكون لطلب نفع مفقود كالكسب، أو حفظ موجود

كالادخار، وإما لدفع ضرر لم ينزل، كدفع الصائل، أو لإزالة ضرر قد نزل، كالتداوي من المرض، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة.

الفن الأول: في جلب المنافع، فنقول: الأسباب التي بها تجلب المنافع على ثلاث درجات.

أحدها: سبب مقطوع به كالأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطًا مطردًا لا يختلف، مثاله: أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع، فلا تمد يدك إليه وتقول: أن متوكل، وشرط التوكل ترك السعي، ومد اليد إلى الطعام سعي، وكذلك مضغه وابتلاعه، فهذا جنون محض، وليس من التوكل في شيء، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعًا دون أكل الطعام، أو يخلق في الطعام حركة إليك، أو يسخر ملكًا ليمضغه ويوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله.

وكذلك لو لم تزرع، وطعمت أن يخلق الله تعالى نباتًا من غير بذر، أو تلد الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنون، وليس التوكل في هذا المقام ترك العمل، بل التوكل فيه بالعلم والحال.

أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة، وأنه الذي يطعمك ويسقيك.

وأما الحال، فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى، لا على اليد والطعام، لأنه ربما جفت يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام، فمد اليد إلى الطعام لا ينافي التوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها. مثاله من يفارق الأمصار، ويخرج مسافرًا إلى البوادي التي لا يطرقتها الناس إلا نادرًا، ولا يستصحب معه شيئًا من الزاد، فهذا كالجرب على الله تعالى، وفعله منهى عنه، وحمله للزاد مأمور به، فإن رسول الله ﷺ لما سافر تزود واستأجر دليلًا إلى المدينة.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتى كان قصده صحيحًا وفعله لا يخرج عن الشرع، لم يخرج عن التوكل، لكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش.

وترك التكسب ليس من التوكل في شيء، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة، وتعللوا بالتوكل.

قال عمر رضي الله عنه: «التوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله». الفن الثاني: في التعرض للأسباب بالادخار، ومن وجد قوتًا حلالًا يشغله كسب مثله عن جمع همه، فادخاره إياه لا يخرج عن التوكل، خصوصًا إذا كان له عائلة. وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم: «كان يبيع نخل بني النضير، ويجس لأهله قوت سنتهم» [أخرجه البخاري (٥٣٥٧)، ومسلم (١٧٥٧)]. فإن قيل: فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالًا يدخر، فالجواب: أن الفقراء كانوا عنده كالضيف، فما كان ينبغي أن يدخر فيجوعون، بل الجواب: أن حال بلال وأمثاله من أهل الصفة كن مقتضاها عدم الادخار، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب في دعوى الحال لا على الادخار الحلال.

الفن الثالث: مباشرة الأسباب الدافعة للضرر. ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر، فلا يجوز النوم في الأرض المسبعة، أو مجرى السيل، أو تحت الجدار الخراب، فكل ذلك منهي عنه.

وكذلك لا يتقضى التوكل لبس الدرع، وإغلاق الباب، وشد البعير بالعقال. قال الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل» [أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٠٦٨)].

ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب، ويكون راضياً بكل ما يقضي الله عليه. ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو حترز لم يسرق، أو أخذ يشكوما جرى عليه، فقد بان بعده عن التوكل.

وليعلم أن القدر له كالطيب، فإن قدم إليه الطعام فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء ينفعني ما قدمه، وإن منعه فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء يؤذي لما منعي.

واعلم: أن كل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقد المريض في الطيب الحاذق الشفيق، لم يصح توكله، فإن سرق متاعه رضي بالقضاء، وأحل الآخذ، شفقة على المسلمين. فقد شكوا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق، وأخذ ماله، فقال: إن لم يكن غمك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك، فما نصحت المسلمين.

الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر، كمداداة المريض ونحو ذلك.

اعلم: أن الأسباب المزيل للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

القسم الثاني: أن يكون مظنوناً، كالفصد، والحجامة، وشرب المسهل، ونحو ذلك. فهذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى وأمر بالتداوى [أخرجه أحمد (١٧٩٨٥)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٩٣٠)].

وقد تداوى خلق كثير من المسلمين، وامتنع عنه أقوام توكلوا، كما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قيل له: ألا ندعو لك طبيياً؟ فقال: «رأني الطيب». قيل: فما قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد.

والذي نصره أن التداوى أفضل، وتحمل حال أبي بكر رضي الله عنه أنه قد تداوى ثم

أمسك بعد انتفاعه بالدواء، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات.  
 واعلم: أن الأدوية أسباب مُسخرة بإذن الله تعالى.  
 القسم الثالث: أن يكون السبب موهومًا، كالكي، فيخرج عن التوكل، لأن  
 النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتونون.  
 وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله: «لا يكتونون» على ما كانوا يفعلونه  
 في الجاهلية، فإنهم كانوا يكتونون ويسترقون في زمن العافي لثلا يمرضوا، فإن النبي  
 ﷺ كان يرقى الرقية بعد نزول المرض، وقد كوى أسعد بن زرارة رضي الله عنه.  
 وأما شكوى المريض، فهي مخرجة عن التوكل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض،  
 لأنه يترجم عن الشكوى، فكان الفضيل يقول: أشتهي مرضًا بلا عواد. وقال رجل  
 للإمام أحمد: كيف أنت؟ قال: «بخير. قال حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا  
 بخير، فلا تخرجني إلى ما أكره».

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده، فإنه لا يضره. وقد كان بعض السلف  
 يفعل ذلك، ويقول: إنما أصف قدرة الله في، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه  
 على الضراء ويرى ذلك نعمة، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكرًا لها، ولا يكون  
 ذلك شكوى. وقد روينا أن النبي ﷺ قال: «إني أو عك كما يوعك رجلان منكم»  
 [أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١)].

### المحبة

س: اذكر منزلة المحبة لله ﷻ؟  
 ج: اعلم: أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك  
 المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس،  
 والرضى، ولا قبل المحبة مقام إلا هو من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد  
 وغيرها.

واعلم: أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا دليل على إثبات الحب لله، وإثبات التفاوت فيه.

وفي الحديث الصحيح: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «ما أعددت لها؟» قال: يا رسول الله: ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت» [أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩)]. فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها.

وروي أن ملك الموت جاء إلى الخليل عليه السلام ليقبض روحه، فقال له: «هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت اقبض».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «من عرف ربه أحبه، ومن أحب غير الله تعالى، لا من حيث نسبه إلى الله، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته، فأما حب الرسول ﷺ، فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه».

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب:

أحدها: أن الإنسان يحب نفسه، وبقائه، وكمال، ودوام وجوده، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان، وهذا جبلة كل حي لا يتصور أن ينفك عنها. وهذا يقتضي غاية المحبة لله ﷻ، فإن الإنسان إذا عرف ربه، قطعاً أن وجوده ودوامه وكمال من الله، وأنه المخترع له، الموجد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل، ولذلك قال

الحسن البصري: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا، زهد فيها.  
وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه.  
السبب الثاني: أن الإنسان بالطبع يجب من أحسن إليه ولاطفه وواساه، وانتدب  
لنصرته وقمع أعدائه، وأعانته على جميع أغراضه، فإنه محبوب عنده لا محالة.  
وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله ﷻ فقط. وأنواع  
إحسانه لا يحيط به حصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾  
[إبراهيم: ٣٤ والنحل: ١٨].

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك في كتاب الشكر، ولكننا نبين أن الإحسان من الناس  
غير متصور إلا بالمجاز، وأن المحسن في الحقيقة هو الله تعالى.  
بيان ذلك أنا نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك، وممكنك فيها  
لتتصرف كيف شئت، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه، وهو غلط، فإنه إنما تم  
إحسانه بماله، وبقدرته على المال، وبداعيته الباعثة له على صرف المال. فمن الذي  
أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته؟ ومن الذي حببك إليه، وصرف وجهه  
إليك، وألقى في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك، ولولا ذلك ما  
أعطاك، فكأنه صار مقهوراً في التسليم لا يستطيع مخالفته. فالمحسن هو الذي اضطره  
وسخره لك، فهو جار مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خلعة خلعا عليه  
الأمير، فإن الخازن لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير، لأنه مضطر إلى طاعته،  
ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك. وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه، لم يبذل  
حبةً من ماله حتى يسلم الله عليه الدواعي، ويلقي في نفسه أن حظه في بذل ذلك  
فيبذله. فينبغي للعارف أن لا يجب إلا الله، إذ الإحسان من غيره محال.

السبب الثالث: أن المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب في الطباع،  
فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس، متلطف بهم  
وهو في قطر بعيد، فإنك تحبه، وتجد في نفسك ميلاً كثيراً إليه. فهذا حب المحسن من

حيث إنه محسن، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك. وهذا ما يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي أن لا يحب غيره، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل كافة، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيهِهم، إلى غير ذلك من النعم التي لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤ والنحل: ١٧]. فكيف يكون غيره محسناً؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته، فمن عرف هذا لم يجب إلا الله تعالى.

وكذلك نقول: كل من كان متصفاً بالعلم، أو بالقدرة أو كان منتزهاً عن الصفات الرذيلة، فإن ذلك يوجب له المحبة. فصفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً، ترجع إلى علمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسوله وشرائع أنبيائه، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تنزيهِهم عن الرذائل والخبائث. ولمثل هذه الصفات تحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله تعالى، وجدتها مضمحلة بالنسبة إلى صفاته ﷻ.

أما العلم، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. وقد خاطب الخلق كلهم فقال: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولو اجتمع أهل السموات والأرض، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة، أو بعوضة، لم يطلعوا على عشر ذلك، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، والقدر اليسير الذي علمه الخلق كلهم، بتعليمه علموه. ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية، إذ معلوماته لا نهاية لها.

وأما صفة القدرة، فهي أيضاً صفة كمال، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، وجدت أعظم الأشخاص قوة، وأوسعهم ملكاً، وأقواهم بطشاً، وأجمعهم للقدرة على سياسته نفسه وسياسة غيره، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه، وعلى بعض امتحان الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك

لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى، ولا على حفظ لسانه من الخرس، ولا آذانه من الصمم، ولا بدنه من المرض، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره، فليست قدرته من نفسه، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته، فليس للبعد قدرة إلا بتمكين مولاه.

قال الله تعالى في حق أعظم ملوك الأرض ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالى، فنواصي الخلق جميعهم في قبضته وقدرته، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقه، فلا قادر إلا هو، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء. فإن تصور أن تحب قادرًا لكمال قدرته وعظمته وعلمه، فلا يستحق ذلك سواه، ولا يتصور كمال التقديس والتنزيه إلا له سبحانه، فهو الواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لفضائه، العالم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقًا لا يساهم فيه أصلًا.

س: ما هي أجل اللذات وأعلاها؟

ج: اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة غريزة لذة، ولم تخلق هذه الغرائز عبثًا، بل لأمر من الأمور، وهو مقتضاها بالطبع، فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، ولذة البصر والسمع في الإبصار والإسماع.

وكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي، وقد تسمى العقل، وتسمى البصيرة

الباطنة، وتسمى نور الإيمان واليقين، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبعها، فمقتضى طبعها العلم والمعرفة، وذلك لذتها. وليس يخفى أن العلم والمعرفة، ولو في شيء خسيس يفرح به، وأن من ينسب إلى الجهل ولو في شيء خسيس يغتم به. وكل ذلك لفرط لذة العلم، وما يستشعره من كمال ذاته. فإن العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثنى عليه بالذكاء، وغزارة العلم، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والحياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالشعر بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فبهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعري، هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها. ومزينها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟! وهل يتصور أن يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين فينبغي أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس، فإن المعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهر. فلو خير الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج، وبين لذة الرياسة، وقهر الأعداء، ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمية اختار اللحم والحلواء، وإن كان على الهمة، كامل العقل، فإنه يختار الرياسة، ويهون عليه الجوع والصبر ضرورة القوت أيامًا.

فاختباره للرياسة دليل على أنه ألد عنده من الطعومات الطيبة، وكما أن لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة، فلذة معرفة الله ﷻ والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألد من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على

الخلق، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعًا، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرياسة، ويحتقر الخلق، لعلمه بفتاء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكون ذلك مشوبًا بالكدر، مقطوعًا بالموت. وتعظم عنده معرفة الله ﷻ، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته، فإنها خالية عن المزاومات والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض، يرتع في رياضها، ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها، وهو آمن من انقطاعها، إذ هي أبدية سرمدية، لا يقطعها الموت، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى، إذ محلها الروح، وإنما الموت يغير أحوالها، أما أن يعدمها فلا.

والعارفون درجات عند الله تعالى متفاوتون، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق، والحكاية فيها قليلة الجدوى. فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله تعالى ألد الأشياء، وأنه لا لذة فوقها، ولهذا قال أبو سليمان الداراني رحمته الله: إن لله عبادًا ليس يشغلهم عن الله رحمته الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟!

وقال بعض أصحاب معروف الكرخي: قلت له: أي شيء أهاجك على العبادة؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأي شيء الموت؟ قلت: ذكر القبر. وقال: وأي شيء القبر؟ قلت: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكًا هذا كله بيده، إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه عرفة كفاك جميع ذلك.

وقال أحمد بن الفتح: «رأيت بشر بن الحارث في منامي، فقلت له: ما فعل معروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هيهات، حالت بيننا وبينه الحجب، إن معروفًا لم يعبد الله شوقًا إلى جنته ولا خوفًا من ناره، وإنما عبده شوقًا إليه، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى، ورفع الحجب بينه وبينه».

فمتى حصلت محبة الله تعالى لشخص، صار قلبه مستغرقاً بها، ولا يتلفت إلى جنة، ولا يخاف من نار، فإنه قد بلغ النعيم الذي ليس فوقه نعيم. قال بعضهم: وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته وإنما أراد لذة القلب في معرفة الله تعالى. وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، وأما القلب فلذته في لقاء الله تعالى فقط. واعلم: أن لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا، وقد اقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات، وما يغلب عليها من الصفات البشرية، لا تنهي إلى المشاهدة، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة، كحجاب الأجنان عن رؤية الإبصار. والقول في سبب كونه حجاباً يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار، تجلي لهم الحق ﷻ على قدر معرفتهم في الدنيا.

فكل من لا يعرف الله تعالى في الدنيا، لا يراه في الآخرة. وما يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، ولا يحصد إلا ما زرع، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه، إلا أنه يتقلب مشاهدة بكشف الغطاء، فتضاعف اللذة، والعيش عيش الآخرة. ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وعيش الآخرة بقدر المعرفة، ولهذا جاء في الحديث: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٤٥)، والدارمي (٢٧٤٢) الترمذي (٢٣٢٩)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٢٧٠)]. وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر، والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا، والتجرد للطلب، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية ولذتها، ومعنى كونها ألد من سائر اللذات عند أهل الكمال.

س: ما هي الأسباب المقوية لحب العبد لربه ﷻ؟

ج: أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقاءه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة.

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فأحد أسباب ضعف حبه، قوة حب الدنيا، ويقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنه بالله، والدنيا والآخرة ضربتان، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرخاء، وما ذكرناه من المقامات كال்தوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك.

السبب الثاني لقوة المحبة: معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعثها المحبة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي، والذكر الدائم، والتشمير في الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه: وأقل أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات.

والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيقاً وستين مرة، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكتها الذي هي مركوزة فيه وهي في السماء الرابعة والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السموات، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك.

ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض، وإلى سائر الحيوانات، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات

البعوض، فانظر فيه بعقل حاضر، كيف خلقه الله ﷻ على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، وزاده الجناحين، وانظر كيف شق سمعه وبصره، وخلق في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته، ودبره في سائر أحواله، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة، وانظر كيف خلق له الطيران، يطير إذا طلب، وجعل له خرطومًا محددًا يمص به الدم.

وانظر إلى النحل في تناولها الأزهار من الأنوار، واحترازها عن الأقدار، وطاعتها إلى كبيرها، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقرًا، وإلى اختيارها الشكل المسدس، فلا تبني بيتًا مربعًا، ولا مستديرًا، ولا خماسًا، بل مسدسًا لخاصيته في الشكل المسدس، فإن أوسع الأشكال وأحوالها المستدير وما يقرب منه، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة، فلا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلى المسدس، فانظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه، فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات، فالنظر في هذا وأشباهه تزداد المعرفة به، فتزداد المحبة.

وأما السبب في تفاوت الناس في الحب: فاعلم أن الناس مشتركون في أصل الحب، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله، فتزداد عظمة الله في قلبه، فزداد حبًا له، وتجرب هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحر لا ساحل له.

وأما السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى، فاعلم أن كل من صنع شيئًا دل المصنوع على وجود صانعه، وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة، وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشيء من الحواس الخمس. فوجود الله ﷻ

وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا، وتقلب أحوالنا، وتغير قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا. وجميع ما في العالم شواهد ناطقة، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحمته وعظمته وجلاله، إذ كل ذرة تنادي بلسان حالها: إنه ليس وجودها بنفسها، وإنما تحتاج إلى موجد لها، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلهية، كالحفاش بالنسبة إلى النهار، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، وليس عدم إبطاره بالنهار لحفائه، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الحفاش، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلهية، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى به عن البصائر والأبصار، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله ﷻ، وانضم إلى ذلك أيضًا، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله ﷻ، وانضم إلى ذلك أيضًا أن المدركات الشاهدة لله تعالى، إنما يدركها الإنسان في حال الصبا قبل حضور العقل عنده، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلًا قليلًا، وهو مستغرق بهم، مشغول به، وقد أنس بمدركاته وألفها، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس. وكذلك إذا رأى فجأة حيوانًا غريبًا، أو نباتًا، أو فعلًا من أفعال الله تعالى عجيبيًا خارقًا للعادة، انطلق لسانه بالتعجب، فقال: سبحان الله! سبحان الله! وهو يرى طول النهار نفسه، وجميع أعضائه، وجميعه الحيوانات المألوفة، كلها شواهد قاطعة، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها.

ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلاً، ثم انقشعت غشاوة عينه، فامتد بصره إلى السماء والأرض، والأشجار، والنبات، والحيوان دفعة واحدة، لحيف على عقله أن ينبر، لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب، وشهادتها لخالقها، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات، وهو الذي سد على الخلق في سبيل الاستضاءة

بنور المعرفة، والسباحة في بحارها الواسعة، والله أعلم وأحكم.

س: ما معنى الشوق لله تعالى؟

ج: قد تقدم في الكلام على المحبة أن الشوق ثمرة من ثمارها، فإن من أحب شيئاً اشتاق إليه.

واعلم: أن الشوق لا يتصور إلا لشيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه. فأما ما لا يدرك أصلاً، فلا يشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، وإنما يكون ذلك في الآخرة.

واعلم: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها، ويبقى أمور لا نهاية لها، والعارف يعلم وجودها، وكونها لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال العبد متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة، وينتهي الشوق الأول في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا.

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين، فقال يوماً: «يا رب! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني، فقد أضرب في القلق. قال: فرأيتك في النوم، فقال: يا إبراهيم! أما استحييت مني؟! تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه؟ فقلت: يا رب: تهت في حبك فلم أدر ما أقول»، فهذا الشوق يسكن في الآخرة. وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به، فهو مشغول بلذة ما ظهر له، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه.

ومن شواهد الأخبار، ما روي أن رسول الله ﷺ علم رجلاً دعاء، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم، فذكر فيه: «أسألك اللهم الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقاً إلى لقائك» [أخرجه أحمد (١٧٨٥٩)، والنسائي

(١٣٠٦، ١٣٠٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٣٠١).

وفي التوراة: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً.

وفي بعض ما أوحى الله ﷻ إلى بعض عباده: إن لي عباداً من عبادي، يحبوني وأحبهم، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلي، ويذكرونني وأذكروهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك. قال: يا رب! وما علامتهم؟ قال: يرعون الظلال بالنهار، كما يرعى الراعي الشفيق غنمه؟ ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أو كارها عند الغروب، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم، وافترشوا وجوههم، وناجون بكلامي، وتلقوني بانعامي، فينب صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راعع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حيي.

س: تحدث عن محبة الله تعالى للعبد ومعناها؟

ج: شواهد القرآن متظاهرة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا﴾، الآية [الصف: ٤]. ونبه على أنه لا يعذب من يحبه، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨] وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. وفي الحديث الصحيح، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: «ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» [أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]. إلى آخره. وهو حديث مشهور.

س: ما هي علامات محبة العبد لله تعالى؟

ج: من علامة حب الله تعالى للعبد، قول النبي ﷺ: «عظم الجزاء مع عظم

البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»  
[أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم  
(١٥٦٦)].

ومن أقوى العلامات، حسن التدبير له، يربيه من الطفولة على أحسن نظام،  
ويكتب الإيمان في قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد  
عنه، ثم يتولاه بتسيير أموره، من غير ذلك للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل  
همه همًا واحدًا، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء.

س: وما علامات محبة العبد لربه ﷻ؟

ج: المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر  
الإنسان بتلييس الشيطان، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها  
بالعلامات، ويطلبها بالبراهين، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى في الجنة، فإنه  
لا يتصور أن يحب القلب محبوبًا إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافي كراهة  
الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء الله بعد الموت.

ومن السلف من أحب الموت، ومنهم من كرهه، إما لضعف محبته، أو لكونها  
مشوبة بحب شيء في الدنيا، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب.

ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء  
الله تعالى، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه  
ساعة ليهيء له داره، ويعدل له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فارغ القلب عن  
الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال المحبة،  
وعلاوة هذا: الدؤوب في العمل، واستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها أن يكون مؤثرًا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب  
اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله تعالى متقربًا  
إليه بالنوافل. ومن أحب الله فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما

يضاد كمالها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤق به إلى رسول الله ﷺ فيحده إلى أن أتى به يوماً، فحده، فلغنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤق به! فقال رسول الله ﷺ: «لا تلغنه، فإنه يحب الله ورسوله» [أخرجه البخاري (٦٧٨٠)]. فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة، ومن ذكر ما يتعلق به. فعلامه حب الله تعالى حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

[آل عمران: ٣١].

وقال بعض السلف: «كنت قد وجدت حلاوة المناجاة، فكنت أدمن قراءة القرآن، ثم لحقتني فترة فانقطعت، فرأيت في المنام قائلاً يقول: إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي أما تدبرت ما في من لطيف عتابي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتتم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

روي أن عابداً عبد الله في غيضة دهرًا، فنظر إلى طائر قد عشش في شجرة يأوي إليها، ويصفر عندها. فقال: لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر، ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان العابد: استأنست

بمخلوق، لأحطتك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدًا.  
فإذن علامة المحبة، كمال الأُنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة، وكمال الاستيحاء من كل ما ينقض عليه الخلوة.

ومتى غلب الحب والأُنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأُنس قلبه، حتى لا يفهم أمور الدنيا، ما لم تتكرر على سمعه مرارًا، مثل العاشق الولهان.

ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى، ويتنعم بالطاعة، لا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها. قال ثابت البناني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة».

وقال الجنيد: «علامة المحبة دوام النشاط، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه»، وكل هذا موجود المثال في المشاهدات، فإن المحب لا يستثقل السعي في مراد محبوه، ويستلذ خدمته بقلبه، وإن كان شاقًا على بدنه، وكل حب قاهر لا محالة، فمن كان محبوه أحب إليه من الكسل، ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال، ترك المال في حبه.

ومنها أن يكون شفيقًا على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديدًا على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف، فهذه علامات المحبة، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته، وصفا في الآخرة شرابه. ومن امتزج بحبه حب غير الله، تنعم في الآخرة بقدر حبه، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين، كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرَجَهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨]. فقبول الخالص بالصراف، والمشوب بالمشوب. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. ومنها أن يكون في حبه خائفًا بين

الهيبة والتعظيم، فإن الخوف لا يضاد المحبة، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد.

س: ما معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله ﷻ؟

ج: من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة.

قال عبد الواحد بن زيد: «قلت لراهب: لقد أعجبتك الخلوة، فقال: لودقت حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك، قلت: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود، خلصت المعاملة، قلت: متى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم، فصار همًا واحدًا في الطاعة».

فإن قيل: ما علامة الأنس؟ قيل: علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشره الخلق، والتبرم بهم، وإن خالط، فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن، منفرد بالقلب. واعلم: أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، قد يثمر نوعًا من الانبساط والإدلال، وقد يكون ذلك منكرًا في الصورة، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، وإن كان محتملاً ممن أقيم مقام الأنس. وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام، أشرف به على صاحبه على الكفر، وذلك كما يروى عن أبي حفص أنه كان يمشي يومًا، فاستقبله رجل مدهوش، فقال: مالك؟ قال: ضل حماري، ولا أملك غيره، فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره، فظهر الحمار. وروى عن برخ العابد أنه خرج يستسقي فقال: «يارب: أنت بالبخل لا ترمي، أنفذ ما عندك، اسقنا الساعة».

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره، وأما الرضى بقضاء الله تعالى، فهو من أعلى مقامات المقربين، وهو من ثمار المحبة، وحقيقته غامضة، ولا

ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى.

## الرضا

س: اذكر بعض الآثار في فضل الرضا؟

ج: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود: «إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك، من الرضى بقضائي».

ونظر علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عدي بن حاتم كئيبيًا، فقال: «يا عدي: ما لي أراك كئيبيًا حزبيًا؟ فقال: وما يمنعني فقد قتل ابنائي، وفقت عيني فقال: يا عدي! من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى وحبط عمله».

ودخل أبوالدرداء عليه السلام على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى، فقال أبوالدرداء: «أصبت، إن الله تعالى إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به». وقال ابن مسعود عليه السلام: «إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». وقال علقمة في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال: «هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى».

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى: ﴿فَلَنَجْجِيَنَّهُمْ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

قال: «الرضى والقناعة».

وفي الأخبار السالفة: أن نبيًا من الأنبياء شكى إلى ربه تعالى الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدوك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد

أن أبدل ما قدرت لك؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالي، لأن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأحونك من ديوان النبوة. وفي «زبور داود» ﷺ: «هل تدري من أسرع الناس مرًا على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألستهم رطبة من ذكري». وقال داود ﷺ: «يا رب! أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد استخارني في أمر، فخرت له، فلم يرض». وقال عمر بن عبد العزيز: «ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر. وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله ﷻ». وقال الحسن: «من رضي بما قسم له، وسعه، وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه، ولم يبارك له فيه». وقال عبد الواحد بن زيد: «الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين». وقال بعضهم: لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال، فمن وهب له الرضى، فقد بلغ أفضل الدرجات. وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عبد في عبادته      لولا شماتة أعداء ذوي إحن  
ما سرتني أن إبلي في مباركتها      وأن شيئًا قضاه الله لم يكن

س: هل يتصور الرضا فيما يخالف الهوى؟

ج: يتصور الرضا فيما يخالف الهوى. وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم، فتارة يحس به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضيًا به، راغبًا في زيادته بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب. مثاله أن يلتمس من الحجامة والحجامة والفصد، فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راض به، وراغب فيه ومتقلد منه الحجامة.

وكذلك كل من يسافر في طلب الريح، فإنه يدرك مشقة السفر، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة، وجعله راضيًا بها، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين، فإنه يتوقع الأجر فوق ما فاتته، فيرضى بما أصابه، ويشكر الله تعالى عليه، ويجوز أن يغلبه الحب، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه، ويبطل

الإحساس بالألم لفرط الحب، وليس ذلك بعجيب، فإن الرجل المحارب في حال غضبه أو خوفه، تصيبه الجراحات ولا يحس بها، ولا يشعر بها في تلك الحال، وذلك لأن قلبه مستغرق، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، وذلك موجود في المشاهدات.

قال الجنيد رحمته الله: «سألت سرياً: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا». وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء، أنهم كانوا يقولون: لوقطعنا إرباً إرباً، ما ازددنا له إلا حباً.

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم، وهو متصور في حب الخلق، كما حكى بعضهم. قال: كان في جيراننا رجل له جارية يحبها، فاعتلت، فجلس يصلح لها حساء، فبينما هو يحرك القدر، قالت: أوه، فدهش وسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم. ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام، فإنهن قطعن الأيدي، وما أحسنن بألم، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، وإذا كان ذلك ممكناً في حق الخلق وحظوظهم، كان ممكناً في حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى. وإمكان ذلك في ثلاثة أوجه:

أحدهما: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره. وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «ما قضى الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له».

وعن مكحول قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسخط فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خير له».

وعن مسروق قال: «كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظ للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خبأهم، والكلب يحرسهم. فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار، فحزنوا، فقال، الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب، فحزنوا،

فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوب والجلبة، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب، قد ذهب كليهم وحمارهم وديكهم».

وعن سعيد بن المسيب قال: «قال لقمان لابنه: يا بني: لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك. قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت. قال: يا بني: فإن الله قد بعث نبيًا هلم حتى نأتيه، فعنده بيان ما قلت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج على حمار وابنه على حمار، وتزودوا ما يصلحهما، ثم سارا أيامًا وليالي، حتى تلتفتما مفازة، فأخذا أهبتهما ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، فاستبطأ حماريهما، فتزلا يمسيان، فبينما هما كذلك، إذ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسواد ودخان، فقال في نفسه: السواد شجر، والدخان عمران وناس، فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق، فدخل في باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها، فخر مغشيًا عليه، فحانت من لقمان التفاته، فإذا هو بابنه صريع، فوثب إليه فضمه إلى صدره، واستخرج العظم بأسنانه، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها، فنظر إلى أبيه يبكي، فقال: يا ابت: أنت تبكي وأنت تقول: هذا خير لي، فكيف ذلك وأنت تبكي؟!»

وقد نفذ الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت في هذا المكان. قال: أما بكائي يا بني، فوددت أني افتديتك بجمع حظي من الدنيا، ولكني والد ومني رقة الوالد. وأما قولك: كيف يكون هذا خيرًا لي؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك، فبينما هو يجاوره، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد، فقال في نفسه: لم أر شيئًا، ثم قال: قد رأيت، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربي بما رأيت شيئًا، فبينما هو يتفكر في ذلك، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق، عليه ثياب بيض، يمسح الأهواء مسحًا. فلم يزل

يرمقه بعينه حتى كان منه قريباً، فتواری عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السفیه؟ قال: يا عبد الله من أنت؟، ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك؟ قال: أنا جبریل، لا يراني إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، لولا ذلك لرأيتني، فما قال لك ابنك هذا السفیه؟ قال: أما علمت ذلك؟ فقال جبریل: ما لي بشيء من أمركما علم، إلا أن حفظتكما أتوني، وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها، فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة، فدعوت ربي أن يجبسكما عني بما شاء، فجبسكما عني بما ابتلى به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به، ثم مسح جبریل ﷺ بيده على قدم الغلام، فاستوى قائماً، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلاً طعاماً، ومسح على الذي كان فيه ماء فامتلاً ماء، ثم حملهما وحمايهما فرحل بهما كما يرحل الطير، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام الليالي».

الوجه الثاني: الرضا بالألم، لما يتوقع من الثواب المدخر، كما تقدم من الرضى بالقصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء.

الوجه الثالث: الرضا به لا لخط وراهه، بل لكونه مراد المحبوب، فيكون ألد الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه، ولو كان في ذلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

وقد سبق أن الحب يستولي بحيث يدهش عن إدراك الألم، ولا ينبغي أن ينكر ذلك من فقدته من نفسه، لأنه إنما فقدته لفقد سببه، وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه، ولعمري إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات، فمن فقد القلب، فلا بد أن ينكر هذه اللذات التي لا يمظنة لها سوى القلب.

س: هل الدعاء يناقض الرضا؟

ج: الدعاء لا يناقض الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها، والسعي في إزالتها.

أما الدعاء، فقد تعبدنا الله تعالى به، وقد أثنى تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُوكَ رَعْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] ودعاء رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم. وأما إنكار المعاصي وعدم الرضا بها، فقد تعبدنا الله تعالى به، وذم الراضي به، وكذلك بغض الكفار والفجار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جدًا.

فإن قيل: فقد وردت الأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى، فهو محال، وإن كانت بقضائه، فكراهتها كراهة لقضائه، فكيف الجمع بين هاتين الحالتين.

فاعلم أن هذا مما يلبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم، حتى التبس على قوم، فأروا السكوت عن الإنكار مقامًا من مقامات الرضى، وسموه حسن الخلق، وهو جهل محض، بل نقول: الرضى والكراهة يتضادان، إذا توارد على شيء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فأما إذا رضيت بشيء من وجه، وكرهته من وجه آخر، فليس ذلك بمتضاد، نحو أن يموت عدوك الذي هو أيضًا عدو لبعض أعدائك، وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه عدوك، وكذلك للمعصية وجهان: وجه إلى الله تعالى، من حيث إنها اختياره وإرادته، فترضى بها من هذا الوجه تسليمًا للملك إلى مالك الملك، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتًا عند الله تعالى وبغيضًا عنده، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت، فهومن هذا الوجه منكر ومذموم، ولا ينكشف هذا إلا بمثال، فلنفرض محبوبًا من الخلق قال بين يدي محبه: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب لذلك معيارًا صادقًا، وهو أني أقصد إلى فلان فأضربه ضربًا شديدًا يضطره ذلك إلى الشتم لي، حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوًا، فكل من أحبه علمت أنه أيضًا عدولي، وكل من أبغضه علمت أنه محبي وصدريقي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل

البغض الذي هو سبب العداوة، فحق على كل من هو صادق في محبته أن يقول: أما تدبيرك في ضرب هذا الشخص وأذاه، فأنا محب له، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص، فإنه عدوان منه وتهجم عليك، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، فكذلك تسليط الله ﷻ دواعي الشهوة والمعاصي على العبد، وبغضه على عصيانه.

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ﷻ، ويعادي من عاداه وأبعده عن حضرته، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته، فإنه بعيد مطرود، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغيضاً إلى جميع المحبين، موافقة لمحبيهم، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده. وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم، والمبالغة في مقتهم، مع الرضى بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاؤه، وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه، والخير مراد مرضي به.

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع، والوقوف مع ما تعبد به الخلق، من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي. ومما يتعلق بالمحبة.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: «لويلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لما توار شوقاً إلي، وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود: هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين علي؟ يا داود أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلي». وكانت امرأة متعبدة تقول: «والله لقد سئمت الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى، وحباً للقائه. فقيل لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟

قالت: لا، ولكني لحبي إياه وحسن ظني به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟».

### النية

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في النية وحقيقتها وفضلها؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله رسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» [أخرجه البخاري، ومسلم (١٩٠٧)].

وعن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». أخرجاهما في «الصحيحين».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد خلفتهم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتهم طريقاً، إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض» [أخرجه مسلم (١٩١١)].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة» [أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)].

وعن أبي كبشة الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه. ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، وهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل،

قال رسول الله ﷺ: فهما في الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يخبط فيه، ينفقه في غير حقه. ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً، فيقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله ﷺ: فهما في الوزر سواء» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥٧٠)، والترمذي (٢٣٢٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢٢٨) كتاب الزهد، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» برقم (٨٦٤)].

وعن أبي عمران الجوني قال: «تصعد الملائكة بالأعمال، فينادي الملك: ألق تلك الصحيفة، قال: فتقول الملائكة: ربنا قال خيرًا وحفظناه عليه. فيقول تبارك وتعالى: إنه لم يرد به وجهي. قال: وينادي الملك: اكتب لفلان كذا وكذا، مرتين. فيقول: يارب: إنه لم يعمله، فيقول ﷻ: إنه قد نواه».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى».

وكان بعضهم يقول: دلوني على عمل لا أزال به عاملاً لله تعالى، فقيل له: أنو الخير، فإنك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل، فالنية تعمل وإن عدم العمل، فإنه من نوى أن يصلي بالليل فنام، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله.

وقد جاء في الحديث: «ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه» [أخرجه أبو داود (١٣١٤)، والنسائي (١٧٨٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترهيب والترغيب» برقم (٦٠٠)].

س: ما الفرق بين النية والقصد والإرادة؟

ج: النية، والإرادة، والقصد، عبارات متواردة على معنى واحد.

س: إلى كم قسم تنقسم الأعمال، وهل يمكن أن تغير النية منها؟

ج: اعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: المعاصي، فلا تتغير

عن موضعها بالنية، مثل من يبني مسجدًا بمال حرام يقصد بذلك الخير، فإن النية لا تؤثر فيه، فإن قصد الخير بالشر شر آخر، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرًا، هيهات!

واعلم: أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، كان كتقرب علماء السوء بتعليم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، يتكالبون على الدنيا، ويتبعون الهوى، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم.

ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص، فإن مقاصد أكثرهم معروفة، وقصدهما اجتلاب الدنيا، وأخذ الأموال كيف اتفق، فتعليمهم إعانة على الفساد، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد.

وأما المعصية، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلًا بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، أما الأصل، فهو أن ينوي عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذلك القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي بها نيات كثيرة: منها أن ينوي بدخوله انتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح، فإن الاعتكاف كف، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله تعالى فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات، فقس على ذلك سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتل نيات كثيرة.

القسم الثالث: المباحات، فما من شيء من المباحات إلا ويحتل نية أو نيات،

تصير بها قربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة. ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة، لم فعله؟ وما الذي قصد به؟

مثال ما ينوي به القربة من المباحات أن يتطيب، وينوي بالطيب اتباع السنة، واحترام المسجد، ودفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه.

وقال الشافعي رحمته الله: من طاب ريحه زاد عقله. وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه. وقال بعض السلف: إني لاستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوي على العبادة، ومن النكاح تحصين دينه، وتطيب قلبه أهله، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده، أثيب على ذلك كله، ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نيتك فيما تتركه أيضاً.

واعلم: أن النية هي انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة لها، إما في الحال أو المآل، وربما سمع بعض الجهال ما أو صينا به من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن أكل لله، أو عند قراءته: نويت أن أقرأ لله، وظن أن ذلك نية، وليس كذلك، إنما النية انبعاث القلب، وتجري مجرى الفتوح من الله تعالى، وليست النية داخلة تحت الاختيار، فقد تيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تيسر له في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا.

والناس في النيات على أقسام:

منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف.

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء. وثمة مقام أرفع من هذين، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، وهذه لا تيسر

لراغب في الدنيا، وهي أعز النيات وأعلاها، وقليل من يفهمها، فضلاً عن أن يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حباً له. وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة في منامه، فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يزيد يطلبني.

وغرضنا من هذه النيات متفاوتة في الدرجات ومن غلب على قلبه منها، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها، ومن حضرت له نية في المباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذلك أن تحضره نية في الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته في الحال إلى الصلاة والصوم، فالأكل والنوم أفضل، بل لو مَلَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه، فذلك أفضل من التعب حينئذ. قال علي عليه السلام: روحوا القلوب، واطلبوا له طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان.

وقال بعضهم: روحوا القلوب تعي الذكر.

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء، فإن الحاذق في الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته، ويستبعد ذلك القاصر في الطب، وإنما يبتغي به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة، وكذلك الخبير بالقتال، قد يفر من بين يدي قرنه حيلة منه، ليستجره إلى مضيق. فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان، معالجة للقلب، والمبصر الموفق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خفي عليهم، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

## الإخلاص

س: اذكر طرفاً من أهمية الإخلاص وفضله؟

ج: اعلم: أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكي، إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكي إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

فالعامل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء. قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وليت شعري، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى، أن النية أولاً، لتحصل له المهرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة الإخلاص؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٤]، وقال: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وغير ذلك من الآيات.

ويروى عن الحسن قال: «كانت شجرة تعبد من دون الله، فجاء إليها رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة، فجاء إليها ليقطعها غضباً لله، فلقبه الشيطان في صورة إنسان فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله.

قال: إذا أنت لم تعبدها، فما يضرك من عبدها؟ قال: لأقطعنها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك من ذلك، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك. قال: فمن لي بذلك؟ قال: أنا لك. فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً، فقام غضبان ليقطعها، فتمثل له الشيطان في صورته، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله. قال: كذبت، مالك إلى قطعها سبيل. فذهب ليقطعها، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله، ثم قال له: أتدري من أنا؟ فأخبره أنه الشيطان، وقال: جئت أول مرة غضباً لله، فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين، فسلطت عليك».

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: «يا نفس أخلصي وتخلصي». وقال أبو سليمان: «طوبى لمن صححت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى». وحكي أن رجلاً كان يخرج في زي النساء، فيحضر حيث يحضرون من عرس، أو مأتم، فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء، فسرقت درة، فصاحوا: أغلقوا الباب حتى نفتش، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا: أطلقوا الحرّة، فقد وجدنا الدرّة.

س: وضح حقيقة الإخلاص؟

ج: كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه، سمي إخلاصاً.

والإخلاص يصاد الإشراف، فمن ليس مخلصاً، فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات. فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الإلهية.

والشرك منه جلي، ومنه خفي، وكذلك الإخلاص، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم بابه، وإنما نتكلم الآن انبعث لقصد التقرب، لكن امتزج بهذا الباعث

باعث آخر، إما من الرياء، أو غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبدًا ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بجمرة السفر، أو للتخلص من شر يعرض له، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام، ونحو ذلك، فمتى كان باعثة التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص.

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور، فلذلك قيل: من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى، نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى:

قيل لسهل: أي شيء على النفس؟ قال: «الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب». واعلم: أن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة، بعضها جلي، وبعضها خفي، وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه. ومن الرياء ما هو أخفى من ديب النمل، فليطلب هناك، وحاصلة أن ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حالة من العمل، فهو خارج عن صفو الإخلاص، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه. وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي.

س: ما حكم العمل المشوب وهل لصاحبه ثواب؟

ج: أما العمل الذي لا يريد به إلا الرياء، فهو على صاحبه لا له، وهو سبب للعقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب، ولا إشكال في هذين القسمين، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحفظ النفس. وقد اختلف الناس في ذلك، هل يقتضي ثواباً أو عقاباً، أو لا يقتضي شيئاً أصلاً؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك.

والذي يتضح لنا فيه - والعلم عند الله تعالى - أن ننظر إلى قدر قوة البواعث، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفساني تقاوماً وتساقطاً، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى، ضرر وأوجب العقاب، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء، وإن كان الباعث الديني أقوى من الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، قال الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة، صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حفظ النفس، إلا أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلي، لم ينفك السفر عن ثواب. وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع، حصل له الثواب، ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً، والله تعالى أعلم.

### الصدق

س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الصدق والصادقين؟

ج: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» [أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)].

وقال بشر الخافي: «من عامل الله بالصدق، استوحش من الناس».

س: ما هي المعاني التي يستخدم فيها لفظ الصدق؟

ج: لفظ الصدق قد يستعمل في معان: أحدها: الصدق في القول، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلا بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

وينبغي أن يحترز عن المعارض، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال، وقد كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورى غيرها لثلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله [أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)]. وقال ﷺ: «ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً، أو نعى خيراً» [أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥)]. وينبغي أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض. فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب.

الثاني: الصدق في النية والإرادة، وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة: العالم، والقارئ، والمجاهد، لما قال القارئ: قرأت القرآن إلى آخره، إنما كذبه في إرادته ونيته، لا في نفس القراءة، وكذلك صاحبه.

الثالث: الصدق في العزم والوفاء به.

أما الأول: فنحو أن يقول: إن آتاني الله مالا تصدقت بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقة، وقد يكون فيها تردد.

وأما الثاني: فنحو أن يصدق في العزم وتسخو النفس بالوعد، لأنه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت: الحقائق، وانجلت العزيمة، وغلبت الشهوة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

الرابع: الصدق في الأعمال، وهو أن تستوي سريره وعلايته، حتى لا تدل

أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه، ويكون الباطن بخلاف ذلك. قال مطرف: «إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله ﷻ: هذا عبدي حقًا».

الخامس: الصدق في مقامات الدين، وهو أعلى الدرجات، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15].

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول: ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد خوفاً من وقوع المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية. ولذلك قال عامر بن عبد قيس: «عجبت للجنة نام طالبها، وعجبت للنار نام هاربا».

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً. فلا غاية لهذا المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً، وإذا علم الله من عبد صدقاً صغاً له، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز، وقد يكون للعبد صدق في بعضها دون بعض. ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك.

### المحاسبة والمراقبة

س: اذكر بعض الأحاديث في المحاسبة والمراقبة؟

ج: قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْصَرًّا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ

سُورٌ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴿٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨]. فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة.

س: اذكر أهمية المحاسبة والمراقبة؟

ج: قد تحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة. فمن حاسب نفسه في الدنيا، خف في القيامة حسابه، وحسن متقلبه. ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته. فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمراقبة فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِيرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فربطوا أنفسهم أولاً بالمشاركة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاقبة. فكانت لهم في المراقبة ست مقامات، وأصلها المحاسبة، ولكن كل حساب يكون بعد مشاركة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاقبة والمعاقبة.

س: تحدث عن المشاركة وأثرها في المحاسبة؟

ج: اعلم: أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح، وبشارطه وبجاسبه، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس، ويوظف عليها الوظائف، وبشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ثم لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن حياتها وتضييعها رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما

شرط عليها، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى. فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا. فحتم على كل ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها. فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة نفسه فيقول للنفس، ما لي بضاعة إلا العمر، فإذا فني مني رأس المال وقع اليأس من التجارة، وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأخر أجلي، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي يا نفس أنك قد توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ربحها ويغشاها ظلامها، وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها، فيحصل له من الفزع والخزي ما لو قسم على أهل الجنة لنعص عليهم نعيمهم، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من المباح، ويتحسر على خلوها، ويناله، ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدني اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك.

قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ فهذه وصيته في نفسه في أوقاته. ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة، وهي: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إلى النفس، فإنها

رعايا خادمة لها فيه هذه التجارة المخلدة، بها يتم أعمالها، ويعلمها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء. فتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغني عنه، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومطالعة كتب الحكم للتعاطف والاستفادة. وهكذا ينبغي أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به، ولا سيما اللسان والبطن، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم، فيشغله بما خلق له، من الذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، إلى غير ذلك من الخير. وأما البطن، فيكلفه ترك الشره، واجتناب الشبهات والشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها. وهكذا في جميع الأعضاء، واستقصاه ذلك يطول، وكذلك ما تخفي طاعات الأعضاء ومعاصيها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم والليلة، وفي النوافل التي يقدر عليها، وعلى الاستكثار منها. وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تعود النفس ذلك، فيستغني عن المشاركة، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمالنا الدنيا، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك، إذ قل أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها. فعليه أن يشرط على نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحق. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمان».

وقال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهبؤوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَ يُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾» [الحاقة: ١٨].

س: وماذا عن مقام المراقبة وأثره في المحاسبة؟

ج: إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها. وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان، لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)]. أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة.

قيل: دخل الشبلي على ابن أبي الحسين النوري وهو قاعد ساكن، لا يتحرك من ظاهره شيء، فقال له: «ممن أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، إذا أردت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة».

وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل حركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان الله تعالى، أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص. قال الحسن: «رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضي، وإن كان لغيره تأخر». فهذه مراقبة العبد في الطاعة، وهو أن يكون مخلصاً فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها، ولا يخلو من بلية لا بد من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وقال وهب ابن منبه في حكمة آل داود: «حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى اخوانه الذين يجبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجمام للقوة. وهذه الساعة التي هو مشغولٌ فيها بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله، فيه من العجائب ما لو

تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح».

س: وماذا عن المحاسبة بعد العمل وأهميتها؟

ج: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾

[الحشر: ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضي العمل، ولذلك قال عمر رضي الله عنه:  
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

وقال الحسن: «المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه. وقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله».

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله تعالى، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

واعلم: أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في اول النهار يشارط فيه نفسه، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار، ويحاسبها على جميع ما كان منها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم. ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المالس، وفي الربح، وفي الخسران لتبين له الزيادة من الثقصان، فرأس المال في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وليحاسبها أولاً على الفرائض، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبها ليستوفي منها ما فرط. قيل: كان توبة بن الصمة بالرقعة، وكان محاسباً لنفسه، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتا! ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب؟! كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب!! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى! فهكذا ينبغي للعبد

أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لورمى بكل معصية يفعلها حجراً في داره لامتلات داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ وَسَوَّاهُ﴾.

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها:

اعلم: أن المسلم إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يهملها، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده.

وكما روي عن عمر رضي الله عنه: أنه خرج إلى حائط له، ثم رجع وقد صلى الناس العصر. فقال: «إنما خرجت إلى حائطي، ورجعت وقد صلى الناس العصر، حائطي صدقة على المساكين». قال الليث: إنما فاتته الجماعة، وروينا عنه: «أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان، فلما صلاها أعتق رقبتين».

وحكي أن: «تميم الداري رضي الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع».

ومر حسان بن سنان بغرفة فقال: «متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعينك! لأعاقبك بصوم سنة، فصامها».

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل، فيحرم عليه فعله، مثال ذلك: ما حكي أن رجلاً من بني إسرائيل، وضع يده على فخذ امرأة، فوضعها في النار حتى شلت، وأن آخر حول رجله لينزل إلى امرأة، ففكر وقال: ماذا أردت أن أصنع؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال: هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي.

فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي. فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينيه، فهذا كله محرم، وإنما كان جائزاً في شريعتهم. وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا، حملهم على ذلك الجهل بالعلم، كما حكي عن غزوان الزاهد: أنه نظر إلى امرأة،

فلطم عينه حتى نفرت. وروينا عن بعضهم: أنه أصابته جنابة وكان البرد شديدًا، وأنه وجد في نفسه توقفا عن الغسل، فألى ألا يغتسل إلا في مرقعته، ألا ينزعها ولا يعصرها، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلًا. وهذا من الجهل بالعلم، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف في نفسه بمثل هذا.

س: تحدث عن مقام المجاهدة وأهميته في المحاسبة؟

ج: إذا حاسب العبد نفسه، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل، أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤديها بثقل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه فاتته صلاة في جماعة، فأحيا الليل كله تلك الليلة، وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع. وقال ابن المبارك: «إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهاً».

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين، وما ورد في فضلهم، ويصحب من يقدر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله. قال بعضهم: «كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده؟ فعملت على ذلك أسبوعاً». «وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة». «وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفّر»، «وحج مسروق فما نام إلا ساجداً». «وكان داود الطائي يشرب الفتيت مكان الخبز، ويقرأ بينهما خمسين آية». «وكان كرز بن وبرة يجتم كل يوم ثلاث ختمات»، «وكان عمر بن عبد العزيز، وفتح الموصلي بيكيان الدم»، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة، وجاور أبو محمد الحريري سنة فلم ينم ولم يتكلم، ولم يستند إلى حائط، ولم يمد رجله، فقال له أبو بكر الكتاني: بم قدرت على هذا؟ قال: «علم صدق باطني فأعاني على ظاهري». ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت: «إنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غداً والله يا إخوانه! لأصلين لله ما أقلنتي جوارحي، ولأصومن له في أيام

حياتي، ولأبكين ما حملت الماء عيناى».

س: اذكر بعض الآثار في مقام معاتبة النفس وتوبيخها؟

ج: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته». وقال أنس رضي الله عنه: «سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودخل حائظًا فسمعته يقول وبني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بخ بخ، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك». وقال البخاري بن حارثة: «دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يعاتب نفسه، فلم يزل يعاتبها حتى مات». وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون: فأوف لي وتف.

واعلم: أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمانة بالسوء، ميالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتركيتها وفضامها عن مواردنا، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمته بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها.

وسيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفتنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أوفي غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت.

فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لا اعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد رقاعتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جري ذلك بالقعود ساعة في الحمام، أو قرب أصبعك من النار، يا نفس! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات، فاطلب الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة

منعت أكالات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح وينتهي لشربه طول العمر؟! فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام لتتعم طول العمر؟ أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا.

وليت شعري! ألم الصبر عن الشهوات أشد طول، أم النار في الدركات؟ فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطبق ألم العذاب في الآخرة؟ أشغلك حب الجاه؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه. هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صباية، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعلمي في أيام قصار لأيام طوال، وأعدي الجواب للسؤال. اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار. إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسير. تفكري في هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكي على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة.

## التفكير

س: اذكر أهمية التفكير وبعض الآيات والأحاديث الواردة في ذلك؟

ج: قد أمر الله سبحانه بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿رَبَّنَا كَرُونَا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله» [أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٠)، من حديث ابن عمر

والحديث حسنه الشيخ "في السلسلة الصحيحة" (١٧٨٨). وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة». وقال وهب بن منبه: «ما طالت فكرة امريء قط إلا فهم، وما فهم إلا علم، وما علم إلا عمل». وقال بشر الحافي: «لوتفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه». وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، قال: «أمنع قلوبهم من التفكير في أمري». وكان داود الطائي على سطح في ليلة قمرء، فتفكر في ملكوت السماوات والأرض، فوقع في دار جار له، فوثب عرياناً ويده السيف، فلما رآه قال: يا داود، ما الذي ألقاك؟ قال: «ما شعرت بذلك».

وقال يوسف بن أسباط: «إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها، بل لنظر بها إلى الآخرة». «وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم». وقال أبو بكر الكتاني: «روعة عند انتباهة من غفلة، وانقطاع عن حظ نفساني، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقلين».

س: في ماذا يكون الفكر؟

ج: الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين، وقد يجري في أمر يتعلق بغيره، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، وشرح ذلك يطول. فلينظر الإنسان في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات. فلا تغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المباحدة عن الله، والمقربة إليه. وينبغي لكل طالب أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء، واعتدال الخوف

والرجاء، والزهد في الدنيا والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع. فهذه عشرون خصلة: عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كفي من المذمومات واحدة خط عليها في جريدته، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع.

وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلاً، خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المسلم المشمر. فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والمراء، والثناء على النفس، والإفراط في موالاة الأولياء ومعاداة الأعداء، والمداهنة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم تطهر الجوارح من الآثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ.

ومن فعل ذلك، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون. وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغايرون النساء، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها. ومن أحسن من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه.

وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لاندراس العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عني، ولومت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي، فليكن فكر العالم في التفتن لخفايا هذه الصفات من قلبه،

نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا .

س: ما حكم التفكير في ذات الله ﷻ؟

ج: قد تقدم أن النبي ﷺ قال: «تفكروا في آلاء ولا تفكروا في ذات الله» [أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٠)، من حديث ابن عمر ﷺ]. والحديث حسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨) [فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحير في ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر، أوتوهمه القلوب بالتصوير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فأما التفكير في مخلوقات الله تعالى، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ . . . الآيات [آل عمران: ١٩٠]. وقوله ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ومن آيات الله تعالى الإنسان المخلوق من نطفة، فيتفكر الإنسان في نفسه، فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى، ما تنقضي الأعمار في الوقف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك.

وقد أمره الله تعالى بالتدبر في نفسه، فقال: ﴿وَقَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. ومن آياته الجواهر المودعة في الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفيروز ونحوها، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها.

ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض. ولو جمع المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وفي البحر عجائب أضعاف ما نشاهده في البر: وانظر كيف خلق اللؤلؤ، ودوره في صدفة تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء؟ وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على

الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها ومنع خروجها، لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة. ومن آياته وهو جسم لطيف لا يرى بالعين، ثم انظر إلى شدته وقوته، وانظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب.

وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء، ثم انظر إلى السماء وعظمتها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة في لونه وشكله، وانظر إلى إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وانظر مسير الشمس، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف. وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السماء التي فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها، والعجب منك أنك تدخل بيت غني مزخرف مموه بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه، ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت نحوه بقلبك، ولا تتفكر في بناء خالقك، فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك، فما مثلك في غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك، فتلقى أختها فتتحدث معها في حديث بيتها، وكيف بنته وما جمعت فيه، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه. فهكذا أنت في غفلتك، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك. فهذا بيان معاهد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين، والأعمار تقصر، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم. فتفكر فيما أشرنا إليه ها هنا مع ما قدمناه من الإشارة في كتاب الشكر. فمن نظر في

هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب، شقي. نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال، ومن الركون إلى أسباب الضلال.

## الموت

س: وضح أهمية ذكر العبد للموت وآثره على الحياة؟  
 ج: اعلم: أن المنهمك في الدنيا المكب في غرورها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه، ثم الناس إما منهمك، أو تائب مبتدئ، أو عارف متنبه. فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه، ويشغل بدمه، وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بعداً.  
 وأما التائب، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت. ولا يدخل بهذا تحت قوله ﷺ: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه» [أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (١٥٧)، من حديث عائشة ؓ]. فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره، فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهاً للقاءه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا. وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائماً، لأنه موعد لقاء الحبيب، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه. وهذا في غالب الأمر يستبطن مجيء الموت. ويحب ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما قال بعضهم: حبيب جاء على فاقه. فإذا التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله

تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل تكون الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضى، وهو الغاية والمنتهى. وعلى كل حال، ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك في الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره.

س: اذكر بعض ما ورد في فضل ذكر الموت؟

ج: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا ذكرَ هاذم اللذات: الموت». وعن ابن عمر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سئل: أي المؤمنين أكيس، قال: أكثرهم للموت ذكراً وأشدّهم استعداداً له أولئك هم الأكياس» [أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٨٦٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٩٩٣)، (١٠٥٥٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٨٤)]. وقال الحسن البصري: «فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فيها فرحاً، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها».

«وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة». وكان حامد القيصري يقول: «كلنا قد أيقن الموت، وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فعلام تفرحون؟! وما عسيتم تنتظرون؟! الموت، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير، أو بشر، فيا إخوتاه! سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً».

وقال سميط بن عجلان: «من جعل الموت نصب عينيه، لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها». واعلم: أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلّة فكرهم وذكرهم له، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت، والطريق في ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة، أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا في ذلك. وأنفع طريق في ذلك ذكر

أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «السعيد من وعظ بغيره» [أخرجه مسلم (٢٦٤٥)]. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إذا ذكر الموت، فعد نفسك كأحدهم». وينبغي أن يكثر دخول المقابر، ومتى سكنت نفسه إلى شيء في الدنيا، فليتكفر في الحال أنه لا بد من مفارقتها، ويقصر أمله. وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» [أخرجه البخاري (٦٤١٦)].

وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك». وعن أبي زكريا التيمي قال: «بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام، إذ أتى بحجر منقوش، فطلب من يقرأه، فإذا فيه: ابن آدم! لورأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنم يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبان منك الولد والنسب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة».

س: ما هي أسباب طول الأمل؟

ج: السبب في طول الأمل شيان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل. أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيمضي نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قرب، فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سوف بذلك

وواعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب. وإذا كبر قال: إلى أن يصير شيخًا، وإن صار شيخًا، قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة. فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدرج يؤخر يومًا بعد يوم، ويستغل بشغل بعد شغل، إلى أن تحتطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته. وأكثر صياح أهل النار من «سوف» يقولون: واحسراتاه! من «سوف». وأصل هذه الأمانى كلها، حب الدنيا والأنس بها، والغفلة. السبب الثاني: الجهل، وهو أن الإنسان يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب، وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، وإن استبعد ذلك، فإن المرض يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لعظم ذلك عنده واستعد للموت.

س: ما هي أحوال الناس مع طول الأمل؟

ج: الناس متفاوتون في طول الأمل متفاوتًا كثيرًا، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال، ومنهم من هو قصير الأمل، فروي عن أبي عثمان النهدي أنه قال: «بلغت ثلاثين ومائة سنة، وما من شيء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أمني فإنه كما هو».

وحكي في قصر الأمل أن امرأة حبيب أبي محمد قالت: «كان يقول لي - يعني أبا محمد - إن مت اليوم فأرسلني إلى فلان يغسلني ويفعل كذا وكذا، واصنعني كذا وكذا، فقيل لها: أري رؤيا؟ قالت: هكذا يقول كل يوم».

وعن إبراهيم بن أسباط قال: «قال لي أبو زرعة: لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك: ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة، فحدثني نفسي أن أرجع إليه». وقيل لبعضهم: ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وعن محمد بن أبي توبة قال: «أقام معروف الكرخي الصلاة ثم قال لي: تقدم، فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: أنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل».

فهذه أحوال الزهاد في قصر الأمل، وكلما قصر الأمل، جاد العمل، لأنه يقدر أن يموت اليوم، فيستعد استعداد ميت، فإذا أمسى شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أنه يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل.

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففي «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ» [أخرجه البخاري (٦٤١٢)].

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» [أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٧٨٤٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٠٧٧)].

وقال عمر رضي الله عنه: «التؤدة في كل شيء خير، إلا ما كان من أمر الآخر». وكان الحسن يقول: «عجبا لقوم أمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وحبس أولهم على آخرهم، وهم قعود يلعبون». وقال سحيم مولى بني تميم: «جلست إلى عبد الله بن عبد الله، فأوجز في صلاته، ثم أقبل علي وقال: أرحني بحاجتك، فإني أبادر، فقلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت. وكان يصلي كل يوم ألف ركعة».

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن، «فكان ابن عمر يقوم في الليل فيتوضأ

ويصلي، ثم يغني إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي، ثم يغني إغفاء الطير، ثم يقوم يصلي، يفعل ذلك مرارًا. «وكان عمير بن هانئ يسبح كل يوم مائة ألف تسيحة»، وقال أبو بكر بن عياش: «ختمت القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة».

س: اذكر بعض ما ورد في شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده؟

ج: لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول سوى الموت، لكان جديرًا أن يتنصص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتطول فيه فكرته. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات، لكدرت عليه عيشه ولذته، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وهو غافل عن ذكر ذلك، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

اعلم: أن الموت أشد من ضرب السيف، وإنما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوته، وأما الميت عند موته، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه، لأن الكرب قد بالغ فيه، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه، وضعفت كل جارحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة. وتُجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجيًا، فتبرد أولًا قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذه، حتى تبلغ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر» [أخرجه أحمد في مسنده (٦١٢٥)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٩٠٣)]. وفي «الصحيحين» من حديث عبادة بن الصامت: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، وأما صاحب النار الذي ختم له بسوء فهو يبشر بها وهو في تلك الأحوال» [أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (١٥٧)].

وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الخوف،

وهو لائق بهذا المكان، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء، وأن يلطف بنا، وأن يختتم لنا بخير إنه جواد كريم. وأما ما يستحب من الأحوال عند المتحضر، فإن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى، ولسانه ينطق بالشهادة، والسكون من علامات اللطف، وهو أمانة على أنه قد رأى الخير، وقد روي أن روح المؤمن تخرج رشحاً. ويستحب تلقيته: لا إله إلا الله، كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» [أخرجه مسلم (٩١٦)]. وينبغي للملقن أن يرفق به، ولا يلح عليه.

وفي الحديث الصحيح: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» [أخرجه مسلم (٢٨٧٧)]. وروي أن النبي ﷺ دخل على رجل وهو يموت فقال: «كيف تجددك؟» قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال: «ما اجتمعنا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمنه من الذي يخاف» [أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٣٨٢٨)]. والرجاء عند الموت أفضل، لأن الخوف سوط يساق به، وعند الموت يقف البصر، فينبغي أن يتلطف به، ولأن الشيطان يأتي حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجري عليه، ويخوفه فيما بين يديه، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو.

وقال سليمان التيمي لابنه عند الموت: «يا بني! حدثني بالرخص، لعلي ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به».

س: كيف كانت وفاة رسول الله ﷺ؟

ج: اعلم: أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في كل أحواله، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحد أحب إلى الله تعالى منه، ولم يؤخره الله تعالى حين انقضى أجله. وقد لقي ﷺ من الموت شدة، فروى البخاري في «صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان بين يدي رسول الله ﷺ ركوة فيه ماء، فجعل يدخل يده في الماء، فيمسح بها وجهه ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات» [أخرجه البخاري

(٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).]

وقال أبو بكر رضي الله عنه:

لما رأيت نبينا متجسداً ضاقت علي بعرضهن الدور  
وارتعت روعة مستهام واله والعظم مني واهن مكسور  
أعتيق ويحك إن جحك قد توى وبقيت منفرداً وأنت حسير  
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي عيت في جدث علي صخور

س: اذكر ما ورد في وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟

روي أبو المليلح أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر رضي الله عنه فقال: «إني أوصيك بوصية، إن أنت قبلت عني: إن لله عز وجل حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقلت ذلك عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم في الدنيا، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة، وآية الشدة عند آية الرجاء، ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقي بيديه إلى التهلكة، ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن أنت حفظت وصيتي هذه، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت، ولا بد لك منه، وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت، ولا بد لك منه ولست تعجزه».

«وقيل لما احتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشفت عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. انظروا ثوبي هذين، فاغسلوهما وكفوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت».

س: وماذا عن وفاة عمر الفاروق رضي الله عنه؟

ج: عن ابن عمر قال: «كان رأس عمر في حجري بعد ما طعن، وكان مرضه الذي توفي فيه، فقال: ضع خدي على الأرض، فقلت: وما عليك إن كان في حجري أم على الأرض؟ وظننت أن ذلك تبرم به، فلم أفعل، فقال: ضع خدي على الأرض لا أم لك، وبلي وويل أُمي إن لم يرحمني ربي».

وروي أنه لما طعن وحمل إلى بيته، وجاء الناس يثنون عليه، جاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله لك، صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، فقال: «ودت أن ذلك كان كفافاً، لا لي ولا علي»، ثم قال: يا عبد الله بن عمر، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإنني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن عند صاحبيه، فمضى وسلم واستأذن عليها، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكي، فقال: عمر يقرأ عليك السلام، ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسى، لأوثرنه اليوم على نفسى.

فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما وراءك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين؛ أذنت. قال: الحمد لله، ما كان شيء أحب إلي من ذلك، فإذا أنا مت فاحملوني، ثم سلم، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت، فأدخلوني، وإن ردتني، فردوني إلى مقابر المسلمين» [أخرجه البخاري (٣٧٠٠)].

وفي أفراد مسلم من حديث المسور بن مخرمة، أن عمر قال: «والله لو أن لي طلاع الأرض ذهباً، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه».

وفي خبر آخر: «والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت، لافتديت به من هول المطلاع».

س: اذكر بعض ما ورد في وفاة عثمان رضي الله عنه؟

ج: عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضي الله عنه، قالت: «لما كان اليوم الذي قتل فيه عثمان، ظل في اليوم الذي قبله صائماً، فلما كان عند إفطاره، سألهم الماء العذب فلم يعطوه، فنام ولم يفطر، فلما كان وقت السحر أتيتُ جارات لي على أجاجير متصلة، فسألتهن الماء العذب، فأعطوني كوزاً من ماء، فأتيته فحركته فاستيقظ، فقلت: هذا ماء عذب، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر، فقال: إني قد أصبحت صائماً، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع علي من هذا السقف ومعه ماء عذب، فقال: اشرب يا عثمان! فشربت حتى رويت، ثم قال: ازدد، فشربت حتى نهلت، ثم قال: إن القوم سينكرون عليك، فإن قاتلتهم ظفرت، وإن تركتهم أفطرت عندنا. قالت: فدخلوا عليه من يومه فقتلوه».

وعن العلاء بن الفضيل، عن أبيه، قال: «لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فتشوا خزائنه، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه، فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها: هذه وصية عثمان، بسم الله الرحمن، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، عليها نحيا، وعليها نموت، وعليها نبعث إن شاء الله تعالى».

س: وكيف كانت وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟

ج: عن الشعبي، قال: «لما ضرب علي رضي الله عنه تلك الضربة، قال: ما فعل بضاربي؟ قالوا: أخذناه، قال: أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، فإن أنا عشت رأيت فيه رأيي، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها، ثم أوصى الحسن أن

يغسله وقال: لا تغالي في الكفن، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سلبًا سريعًا، امشوا بي بين المشيتين لا تسرعوا بي، ولا تبطئوا، فإن كان خيرًا عجلتموني إليه، وإن كان شرًا ألقتموني عن أكتافكم».

وروي أنه لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي ﷺ أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول:

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لا يقيك  
ولا تجزع من الموت وإن حل بسناديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه.

س: اذكر بعض ما نقل عند موت بعض من الصحابة ﷺ وغيرهم؟  
ج: لما نزل الموت بالحسن بن علي ﷺ قال: «أخرجوا فراشي إلى صحن الدار، فأخرج فقال: اللهم إني أحسب نفسي عندك، فإني لم أصب بمثلها».

وروي أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال: «انظروا هل أصبحنا؟ فأق فليل: لم تصبح، حتى أتى في بعض ذلك، فليل له: لقد أصبحنا، فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، ثم قال: مرحبًا بالموت زائر مغيب، وحيب جاء على فاقة، والله إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أي لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكربي الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام الليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر».

وقال أبو مسلم: «جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول: ألا رجل يعمل مثل مصرعي هذا؟ ألا رجل يعمل مثل يومي هذا؟ ألا رجل يعمل مثل ساعتني هذه؟ ثم قبض ﷺ».

وبكى سلمان الفارسي عند موته، فليل له: ما يبكيك؟ فقال: «عهد إلينا رسول

الله ﷺ أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب، وحوالي هذه الأزواد، وقيل: إنما كان حوله إجانة وجفنة ومطهرة».

وروى المزي قال: «دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملي ملائياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله وارداً، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهتها، أم إلى النار فأعزبها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي      جعلت الرجا مني بعفوك سلما  
تعاطمني ذنبي فلما قرنته      بعفوك ربي كان عفوك أعظما  
وما زلت ذا عفوع عن الذنب لم تزل      تجود وتعفو منة وتكرما»

قيل: كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك، فقال: «أجلس إلى قوم يذكروني معادي، وإن غبت لم يغتابوني».

وقال ميمون بن مهران: «خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل علي فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلث، واستحكمت فيهم البلاء، وأصاب الهوام مقيلاً في أبدانهم؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله تعالى».

س: ما حكم زيارة القبور؟

ج: تستحب زيارة القبور، فإن النبي ﷺ قال: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» [أخرجه مسلم (٩٧٦)].

س: ما هي حقيقة الموت؟

ج: الذي تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت، هو مفارقة الروح للجسد، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية، إما معذبة أو منعمة، فإن الروح قد تتألم

بنفسها بأنواع الحزن والغم، وتتنعم بأنواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها، يبقى معها بعد مفارقة الجسد، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد. ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث، والله سبحانه أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده.

فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له بالدنيا شيء يفرح به، ويستريح إليه، عظمت حسرته عليه بعد الموت، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله تعالى والأنس به، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه، وقطعت عنه العوائق والشواغل، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى.

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً في حال الحياة، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سر قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فلما انقطعت انكشف له جميع أعماله، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وكل ذلك ينكشف له عند الموت، وهذه آلام تهجم على العاصي قبل الدفن، نسأل الله العافية. ومما يدل على أن الروح لا تنعدم بالموت، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. قال مسروق: «سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل» [أخرجه مسلم (١٨٨٧)]. وذكر تمام الحديث. وجاء في قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ

أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿﴾ [غافر: ٤٦]. أخبر أنهم يعذبون بعد الموت. وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» [أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦)]. وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشفت له سيئاته تحسر لها وتألّم تألماً عظيماً، فأما المؤمن، فقال عبد الله بن عمر: «مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه، فهو يتفصح في الأرض، ويتقلب فيها». وهو كلامٌ صحيح، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن، فيكون كمحبوس في بيت مظلم فتح له بابٌ إلى بستان واسع الأكناف، فيه أنواع الأشجار، فلا يسره الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره العود إلى بطن أمه. وقال مجاهد: «إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعد لتقرر بذلك عينه».

### القبر

س: اذكر بعض ما ورد في ذكر القبر وضمته؟

ج: وعن أنس بن مالك أن نبي الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقولان: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله ﷻ به مقعداً في الجنة. قال رسول الله ﷺ: فيراها جميعاً. وأما الفاجر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصبح صيحة يسمعا من يليه غير الثقلين» أخرجاه في «الصحيحين» [أخرجه البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)].

وفيهما من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال: «أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل - أوقال قريباً من - فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسول . . . » [أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥)]. وذكر باقي الحديث.

وعن ابن عباس قال: لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها، التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة في قبره، ولو كان منفلتاً منها أحد لانفلت سعد بن معاذ» [أخرجه أحمد (٢٣٧٦٢)، (٢٤١٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢١٨٠)]. وذكر باقي الحديث. قال كعب: «إذا وضع الرجل الصالح في قبره، احتوشته أعماله الصالحة: الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والصدقة. قال: وتحيي ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليك عن فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال بي القيام لله ﷻ، قال: فيأتونه من قبل رأسه، فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال بي الصيام. قال: فيأتونه من قبل جسده، فيقول الحج والجهاد: إليك عن، فقد أنصب نفسه، وأتعب بدنه، وحج وجاهد لله ﷻ، لا سبيل لكم عليه.

فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة: كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت في يد الله ابتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئاً طبت حياً، وطبت ميتاً. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة، فتفرشه فراشاً من الجنة ودثاراً من الجنة، فيفسح له في قبره مد بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة يستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره».

وقال المروزي: «رأيت أحمد بن حنبل في النوم في روضة، وعليه حلتان خضراوان، وعلى رأسه تاج من النور، وإذا هو يمشي مشية لم أكن أعرفها له، فقلت: يا أحمد! ما هذه المشية التي لم أكن أعهد لها لك؟ فقال: هذه مشية الخدام في دار السلام. فقلت: وما هذا التاج الذي أراه على رأسك؟ فقال: إن ربي ﷻ أوقفني

وحاسبني حسابًا سبيرًا، وكساني وحباني وقربني، وأنا أنظر إليه، وتوجني بهذا التاج وقال لي: يا أحمد! هذا تاج الوقار توجتك به، كما قلت: القرآن كلامي غير مخلوق».

س: ما هي أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار؟

ج: قد أشرنا إلى أهوال القبر، وأشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط، وهذه أهوال يجب الإيمان بها، وينبغي تطويل الفكر فيها، وكثير من الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات، ثم قيل له: إن صانعًا يصنع من هذه النطفة القدرة مثل هذا الآدمي المتصور العاقل المتكلم، لا شدت نفور طبعه عن التصديق بذلك، فخلقه عليما فيه من الأعاجيب، يزيد على بعثه وإعادته. وكيف ينكر ذلك - من قدرة الله تعالى وحكمته - من يشاهد البداية؟ فإن كان في إيمانك ضعف، فقو الإيمان بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوي الإيمان بها، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكير والاعتبار، وليحثك ذلك على الجد والتشمير. وأول ما يقرع أسماع الموت صوت إسرافيل حين ينفخ ذلك في الصور. فصور نفسك وقد قمت ذاهلاً مبهوتاً شاخصاً نحو النداء. قال الله تعالى: ﴿وَيُفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب الصور قد حنى جبهته، وأصغى بسمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ في الصور فينفخ؟!» قال المسلمون: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، وتوكلنا على الله» [أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠١)، والترمذي (٢٤٣١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٧٨)].

ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيامة، فيساقون بعد البعث حفاة عراة إلى أرض

المحشر، وهي قاع ليس فيها ربوة يختفي الإنسان بفنائها. وفي «الصحيحين» قال النبي ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي» [أخرجه البخاري (٦٥٢١)]. ثم تفكر في ازدحام الناس، وقرب الشمس من رؤوسهم، وشدة العرق، مع ما في القلوب من القلق.

وفي الحديث: «إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم» [أخرجه مسلم (٢٨٦٤)]. وتفكر يا مسكين في سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان، فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله». وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل: عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» [أخرجه الدارمي في سننه (٥٣٧) والترمذي (٢٤١٧)]، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٣٠٠).

وعن صفوان بن محرز قال: كنت أخذًا بيد ابن عمر رضي الله عنهما، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدين المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم: قال: ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَّا نَعْتَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾» [هود: ١٨] [أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨)]. وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز؟» [أخرجه البخاري (٧٤٣٨)، ومسلم (١٨٢)]. وفيهما أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم، قالوا: يا رسول الله! ما الجسر؟ قال:

مدحضة مزلة، عليها خطاطيف وكلايب وحسك، يمر المؤمنون عليه كالطرف،  
وكالبرق الخاطف، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فجاج مسلم، وناج  
مخدوش، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً» [أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)].

### جهنم

س: اذكر بعض ما ورد في جهنم وأهوالها أعاذنا الله وإياكم منها؟  
ج: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، فسمعنا وجبة، فقال  
النبي صلى الله عليه وسلم: «أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر أرسل في  
جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن انتهى إلى قعرها» [أخرجه مسلم (٢٨٤٤)]. رواه مسلم.  
وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ناركم هذه التي  
يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية  
يا رسول الله، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرها»  
[أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (١٨٣)].

وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يوقى بجهنم  
يؤمئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» [أخرجه مسلم  
(٢٨٤٢)]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل عندهم ما  
فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع،  
فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب،  
فيستغيثون بالشراب فيغاثون بالحميم، ينالونه بكلايب من حديد، فإذا دنا منهم  
شوى وجوههم، وإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم، فيطلبون إلى خزنة جهنم: أن:  
﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ فيجيبونهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعْتُمُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩] فيقولون:

سلوا مالكم، فيقولون: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيقول ﷺ: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧-١٠٨]. فعند ذلك يأسون من كل خير، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور».

«وتفكر في حياتها وعقاربها كالبغال الموكفة». وعن الحسن: «أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا».

واعلم: أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن يكفي في التخويف، فإن كنت مؤمناً بهذا فانتبه لنفسك، وخف ما بين يديك، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين، ولسنا نعني بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصي، ويحث على الطاعة. فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال، وأن يقولوا: استعنا بالله، نعوذ بالله، يا رب سلم، وهم مع ذلك مصرون على القبائح، والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضار وهو إلى جانب حصن، فيقول: أعوذ بالله من هذا، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه.

### الجنة

س: اذكر بعض ما ورد في نعيم الجنة وعظمه نسأل الله العظيم من فضله؟  
ج: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» [أخرجه أحمد (١٣٤٠)، والترمذي (٢٥٢٦)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥٦٣٠)].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «إن الله ﷻ قال:

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» [أخرجه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤)].

وفيهما أيضًا من حديثه عن النبي ﷺ أنه قال: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخضون، أمشاطهم الذهب، ويرجمهم المسك، ومجامرهم الألوة الألنجوم، أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعًا في السماء» [أخرجه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤)]. وفي رواية أخرى: «لكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم، على قلب واحد، يسبحون الله بكرةً وعشيًا».

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جتان من فضة أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» [أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠)]. وفي «الصحیحين» من حديث أبي موسى أيضًا عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لحيمة من درة مجوفة، عرضها ستون ميلًا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخريين، يطوف عليهم المؤمن» [أخرجه البخاري (٣٢٤٣)، ومسلم (٢٨٣٨)].

واعلم: أن الله تعالى ذكر نعيم الجنة مبسوطًا في مواضع من القرآن، ثم جمعه في آيات منها قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] ثم زاد على ذلك بقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وصفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على ما ذكرنا نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أهلها والدينا ومن نحب.

وأفضل ما ينال في الجنة رؤية الله تعالى. وفي «الصحیحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيل: يا رسول الله! هل نرى ربنا؟ فقال: «فهل تضامون في القمر ليلة البدر

ليس دونه سبحانه؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك» [أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)].

### سعة رحمة الله تعالى

س: تحدث عن سعة رحمة الله ﷻ نسأل الله من فضله؟

ج: ليس لنا أعمال نرجو بها العفو، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله ﷻ الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» [أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن لله ﷻ مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام والبهائم، فيها يتعاطفون، وبها يتراحون، وبها تعطف الوحش على أولادها. وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عبادة يوم القيامة» [أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢)].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم تبارك وتعالى رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة أو محوها الله، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك» [أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)]، والدارمي (٢٧٨٦)، واللفظ له]. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن عمل سيئة، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر، ومن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» [أخرجه مسلم (٢٦٨٧)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: «أي رب! أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب! عملت ذنباً فاغفره لي، فقال ﷺ: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب! عملت ذنباً فاغفره لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، أشهدكم أي قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء» [أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)]. هذه الأحاديث كلها صحاح.

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبين وإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبيّاً في السبي فأخذته، فألصقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله. قال: «لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها» [أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤)].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق! وإن زنى وإن سرق» ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر» [أخرجه البخاري (٦٤٤٤)، ومسلم (٩٤)].

وفيهما من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حرم النار على من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» [أخرجه البخاري (٥٤٠١)، ومسلم (٣٣)]. وفيهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير وزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة» [أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أتى يهودي أونصراني حتى يدفع إليه فيقال له: هذا فكاكك من النار» [أخرجه مسلم (٢٧٦٧)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﻻ يستخلص رجلاً من أممي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مد البصر ثم يقول: أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول أحضروه، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء مع اسم الله ﷻ» [أخرجه أحمد (٦٩٥٥)، والترمذي (٢٦٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٧٧٦)].

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسييح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دانتاً، أكان يردهم؟ فقيل: لا، فقال: والله المغفرة عند الله ﷻ أهون من إجابة رجل لهم بدانتق!.

وعن إبراهيم بن أدهم قال: خلا لي الطواف في ليلة مظلمة شديدة المطر، فلم أزل أطوف إلى السحر، ثم رفعت يدي إلى السماء. فقلت: اللهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره. فإذا قائل يقول في الهواء: أنت تسألني العصمة، وكل خلقي يسألني العصمة، فإذا عصمتك فعلى من أتفضل؟

فهذه الأحاديث وغيرها كثير، تبشرنا بكرم الله تعالى وسعة رحمته وجوده. ونحن نرجو من الله سبحانه أن لا يعاملنا بما نستحقه، وأن يتفضل علينا بما هو أهله. ونحن نستغفر الله ﷻ من أقوالنا التي تخالف أعمالنا، ومن كل تصنع تزينا به للناس،

وكل علم وعمل قصدناه، ثم خالطه ما يكدره، فبكرمه نستشفع إلى كرمه، وبجوده نسأل من جوده، إنه قريب مجيب.

### الشفاعة

س: اذكر بعض ما ورد في شفاعة نبينا ﷺ وشفاعة الصالحين من أمته؟  
 ج: كن في الدنيا محباً لرسول الله ﷺ، حريصاً على تعظيم سنته، لعله يشفع فيك في الآخرة، فإن له شفاعة يتقدم فيها على الأنبياء كلهم، ويسأل الله في أهل الكبائر من أمته فينجيهم. واستكثر من الإخوان الصالحين، فلكل مؤمن شفاعة، ولا تحملنك الغرة على التواني وتسمى ذلك رجاء، فإن من رجا شيئاً طلبه، واحترز من المظالم، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها، فإن غرماء يحيطون به في القيامة، فهذا يقول: ظلمني، وهذا يقول: استهزأ بي، وهذا يقول: أساء جواربي، وهذا يقول: غشني، فلا خلاص لك من أيديهم، فإذا توهمت الخلاص قيل: لا ظلم اليوم.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة» [أخرجه البخاري (٦٥٣٥)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «أندرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن نيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» [أخرجه البخاري]. وعن

أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» [أخرجه مسلم (٢٥٨٢)]. وهذه الأحاديث كلها في الصحاح. فانظر وفقك الله إلى بعد سلامة حسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة، فإن سلمت أخذها الخصوم، فتيقظ لنفسك، ولا تفرط في أوقاتك، فإن المسكين من أثر لذة متقطعة، واشترى بها عذاباً شديداً دائماً. نسأل الله السلامة والتوفيق.

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه



obeykandi.com

# الفهرس التفصلي

obeykandi.com

## الفهرس التفصيلي

- س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل العلم والعلماء؟ ..... ٣٧
- س: وما هو العلم الواجب تعلمه على كل مسلم ومسلمة؟ ..... ٣٩
- س: ما هي أقسام العلوم المحمودة؟ ..... ٤٢
- س: وضح بعض آداب المتعلم؟ ..... ٤٤
- س: وما المقصود بعلماء السوء؟ ..... ٤٥
- س: وما هي صفات علماء الآخرة؟ ..... ٤٦
- س: ما هي مراتب الطهارة؟ ..... ٤٨
- س: وما هي أنواع إزالة الفضلات؟ ..... ٤٩
- س: تحدث عن فضل الصلاة؟ ..... ٤٩
- س: اذكر طرفاً من خشوع السلف في الصلاة؟ ..... ٥٠
- س: وما هو روح الصلاة؟ ..... ٥٠
- س: ما هي المعاني التي يتم بها الخشوع في الصلاة؟ ..... ٥١
- س: اذكر بعض الآداب المتعلقة بيوم الجمعة وصلاة الجمعة؟ ..... ٥٣
- س: ما هي الأوقات المنهي عن التطوع بالصلاة فيها؟ ..... ٥٥
- س: ما هي أسرار النهي عن صلاة التطوع في أوقات الكراهة؟ ..... ٥٥
- س: تحدث عن أهمية الزكاة ومنزلتها في الإسلام؟ ..... ٥٦

- س: ما هي شروط الزكاة؟ ..... ٥٦
- س: اذكر بعض الآداب الخاصة بالمزكي؟ ..... ٥٧
- س: وضح بعض الآداب المتعلقة بقابض الزكاة؟ ..... ٥٩
- س: ما هو قدر الغنى المانع من أخذ الزكاة؟ ..... ٦٠
- س: ما هي فضائل الصدقة؟ ..... ٦٠
- س: أيهما أفضل للفقير الأخذ من الزكاة أم من الصدقة؟ ..... ٦١
- س: وما هي أفضل الصدقة؟ ..... ٦١
- س: وضح طرفاً من فضل الصوم ومزله؟ ..... ٦٢
- س: اذكر بعضاً من سنن الصوم ومستحباته؟ ..... ٦٢
- س: ما هي مراتب الصوم؟ ..... ٦٣
- س: وماذا عن صوم التطوع؟ ..... ٦٤
- س: وضح بعض الآداب الخاصة لمن أراد الحج؟ ..... ٦٥
- س: اذكر بعض أسرار الحج؟ ..... ٦٦
- س: اذكر بعض فضائل القرآن؟ ..... ٦٨
- س: اذكر بعض آداب تلاوة القرآن؟ ..... ٦٩
- س: وماذا عن استحباب تحسين الصوت بالقراءة؟ ..... ٦٩
- س: ما هي أفضل العبادات التي تؤدي باللسان بعد تلاوة القرآن؟ ..... ٧١
- س: اذكر بعض الآيات والأحاديث التي تدل على فضل ذكر الله ﷻ؟ ..... ٧١
- س: لو ألقيت الضوء على تنويع العبادات وتوزيعها على الأوقات؟ ..... ٧٢
- س: ما هي الأوراد الماثورة بالنهار وكم عددها؟ ..... ٧٣

- ٧٦ ..... س: وما هي الأوراد المأثورة بالليل؟
- ٨٠ ..... س: كيف تختلف الأوراد باختلاف الأحوال؟
- ٨٢ ..... س: اذكر لنا طرفاً من فضل قيام الليل؟
- ٨٢ ..... س: ما هي الأسباب الميسرة لقيام الليل؟
- ٨٤ ..... س: من لم تيسر له الصلاة بالليل فماذا يفعل؟
- ٨٥ ..... س: إلى كم قسم تنقسم آداب الأكل؟
- ٨٥ ..... س: تحدث عن الآداب المستحبة قبل الأكل؟
- ٨٦ ..... س: اذكر آداب الشرب؟
- ٨٦ ..... س: اذكر آداب الأكل التي تلزم من يأكل مع جماعة من الناس؟
- ٨٧ ..... س: اذكر بعض الآثار في استحباب تقديم الطعام للإخوان والأصحاب؟
- ٨٨ ..... س: وهل يستحب الدخول على قوم يأكلون؟
- ٨٨ ..... س: اذكر بعض آداب الضيافة؟
- ٨٨ ..... س: وما هي آداب الإجابة للدعوة؟
- ٨٩ ..... س: وما هي آداب إحضار الطعام؟
- ٩٠ ..... س: ما هي فوائد النكاح؟
- ٩١ ..... س: وما هي آفات النكاح؟
- ٩١ ..... س: وما هي الأمور المستحبة توافرها في المرأة لطيب العشرة؟
- ٩٣ ..... س: ما هي الحقوق التي تلزم الزوج لزوجته؟
- ٩٥ ..... س: وما هي الحقوق التي تلزم الزوجة تجاه زوجها؟
- ٩٦ ..... س: ما هي آداب الولادة واستقبال المولود؟

- س: ما هي آداب الطلاق؟ ..... ٩٦
- س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل الكسب والحث عليه؟ ..... ٩٧
- س: اذكر بعض الآثار في فضل الكسب والحث على الاكتساب؟ ..... ٩٨
- س: ما هي الأمور التي ينبغي توافرها في عقد الاكتساب؟ ..... ٩٨
- س: ما حكم طلب الحلال؟ وكيف نجيب على من يقول أن الحلال منعدم وغير موجود؟ ..... ١٠٢
- س: وما هي درجات الحلال، وما هي درجات الحرام؟ ..... ١٠٣
- س: وما هي درجات الورع؟ ..... ١٠٣
- س: وما هي مراتب الشبهات وكيف نميزها عن الحرام؟ ..... ١٠٤
- س: وكيف يميز الإنسان بين ما يقدم له من طعام أو هدية؟ ..... ١٠٧
- س: من كان في يده مال مختلط منه الحلال والحرام ثم تاب، فكيف يميز بينهما؟ ..... ١٠٨
- س: وما الحكم في أموال الأعطيات التي يعطيها السلاطين؟ ..... ١٠٩
- س: وما أحوال من يخالط الأمراء والعمال الظلمة؟ ..... ١٠٩
- س: وما الأعذار والأحوال التي تسوغ الدخول على الأمراء الظلمة؟ ..... ١١١
- س: لو ذكرت بعض فضائل - الخلق واستحباب الإحسان للخلق؟ ..... ١١٣
- س: اذكر بعض الأحاديث في فضل احبة في الله؟ ..... ١١٣
- س: ما هي الحقوق التي تلزم الإنسان تجاه إخوانه؟ ..... ١١٧
- س: وضح بعض آداب المعاشرة للخلق؟ ..... ١٢١
- س: اذكر حقوق المسلم على المسلم؟ ..... ١٢٢
- س: اذكر بعض آداب عيادة المريض؟ ..... ١٢٥

- س: وما الآداب التي يلزم المريض الأخذ بها؟ ..... ١٢٥
- س: ما المقصود من تشييع الجنازات والتعزية؟ ..... ١٢٥
- س: وما المقصود من زيارة القبور؟ ..... ١٢٥
- س: ما آداب تشييع الجنازات؟ ..... ١٢٦
- س: ما هي حقوق الجار؟ ..... ١٢٦
- س: وما هي حقوق الأقارب وذوي الرحم؟ ..... ١٢٦
- س: وما هي حقوق الولد على والديه؟ ..... ١٢٧
- س: ما هي حقوق المملوك؟ ..... ١٢٧
- س: أيهما أفضل العزلة أم الخلطة؟ ..... ١٢٨
- س: وما هي حجج القائلين بتفضيل العزلة على الخلطة والعكس؟ ..... ١٢٨
- س: ما هي فوائد العزلة؟ ..... ١٢٩
- س: وما هي آفات العزلة ومضارها؟ ..... ١٣٣
- س: وما هي آداب العزلة؟ ..... ١٣٦
- س: ما تعريف السفر وما أنواعه؟ ..... ١٣٧
- س: ما هي أقسام سفر البدن، وما آفاته وفوائده؟ ..... ١٣٧
- س: وماذا عن السفر المباح؟ ..... ١٣٨
- س: وما آداب السفر؟ ..... ١٣٩
- س: ما هي الأمور التي لا بد للمسافر منها في سفره؟ ..... ١٣٩
- س: اذكر طرفاً من أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ..... ١٤٠

- س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث عليه؟ ..... ١٤٠
- س: ما هي مراتب إنكار المنكر؟ ..... ١٤١
- س: ما هي أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ..... ١٤١
- س: ما هي مراتب الحسبة؟ ..... ١٤٣
- س: هل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج، والرعية على الوالي؟ ..... ١٤٣
- س: ماذا لو علم المنكر أن إنكاره لا ينفع؟ ..... ١٤٤
- س: ما هي درجات الاحتساب وما آدابه؟ ..... ١٤٥
- س: ما هي صفات المحتسب؟ ..... ١٤٧
- س: اذكر بعض المنكرات التي ألفها الناس ليحذر منها؟ ..... ١٤٩
- س: وماذا عن أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيبهم عن المنكر؟ ..... ١٥١
- س: اذكر بعض مواعظ السلف للخلفاء والأمراء؟ ..... ١٥٢
- س: ما المقصود بالسماح وما حكمه؟ ..... ١٥٨
- س: اذكر طرفاً من آداب النبي ﷺ وأخلاقه؟ ..... ١٦٠
- س: اذكر طرفاً من معجزات النبي ﷺ؟ ..... ١٦٢
- س: وضح أهمية صلاح القلب وأثره على الجوارح؟ ..... ١٦٣
- س: ما هي مداخل إبليس إلى القلب؟ ..... ١٦٣
- س: وضح أحوال القلوب من حيث الثقل والثبات؟ ..... ١٦٥
- س: تحدث عن أهمية حسن الخلق؟ ..... ١٦٧

- س: وما السبيل إلى تهذيب الأخلاق؟ ..... ١٦٩
- س: ما هي علامات مرض القلب؟ ..... ١٧٠
- س: كيف يعرف الإنسان عيوب نفسه؟ ..... ١٧٢
- س: ما الحكمة من وجود شهوات النفوس؟ ..... ١٧٣
- س: ما هي علامات حسن الخلق؟ ..... ١٧٤
- س: وما السبيل لتنشئة الأبناء على محاسن الأخلاق؟ ..... ١٧٦
- س: وماذا عن شهوة البطن وخطرها؟ ..... ١٧٨
- س: وماذا عن شهوة الفرج، ما أهميتها وما خطارها؟ ..... ١٧٩
- س: تحدث عن آفات اللسان وخطرها، وما السبيل إلى التوقي منها؟ ..... ١٨٠
- س: وما فضيلة الصمت وأهميته؟ ..... ١٨١
- س: اذكر ما ورد في ذم الكلام فيما لا يعني؟ ..... ١٨١
- س: فصل القول في آفة الخوض في الباطل؟ ..... ١٨٢
- س: اذكر بعض ما ورد في ذم التعر في الكلام؟ ..... ١٨٣
- س: اذكر بعض ما ورد في التفسير عن الفحش والسب؟ ..... ١٨٣
- س: فصل القول في أحكام المزاح ما يجوز منه وما يجرم؟ ..... ١٨٤
- س: ما المقصود بالسخرية والاستهزاء، وما حكمها؟ ..... ١٨٥
- س: فصل القول في أحكام الكذب وما حكم المعارض؟ ..... ١٨٥
- س: اذكر بعض ما ورد في التفسير عن الغيبة؟ ..... ١٨٦
- س: ما معنى الغيبة؟ ..... ١٨٧
- س: وما هي أقبح أنواع الغيبة؟ ..... ١٨٧

- ١٨٧ ..... سر : وما حكم سماع الغيبة؟
- ١٨٨ ..... سر : وضح الأسباب الباعثة على الغيبة؟
- ١٨٨ ..... سر : لو فصلت القول في علاج الغيبة؟
- ١٨٩ ..... سر : وهل تكون الغيبة بالقلب؟
- ١٩٠ ..... سر : ما هي الأعذار المرخصة في الغيبة؟
- ١٩٠ ..... سر : وما كفارة الغيبة؟
- ١٩١ ..... سر : وما خطر النسيمة؟
- ١٩٢ ..... سر : اذكر بعض ما ورد في ذم ذي اللسانين؟
- ١٩٣ ..... سر : ما آفات المدح؟
- ١٩٥ ..... سر : وماذا عن الغضب وخطره؟
- ١٩٧ ..... سر : وما الأسباب المهيجة للغضب؟
- ١٩٧ ..... سر : وما علاج الغضب؟
- ١٩٩ ..... سر : اذكر فضيلة كظم الغيظ؟
- ١٩٩ ..... سر : اذكر بعض الأحاديث والآثار في فضل الحلم؟
- ٢٠٠ ..... سر : ما هو تعريف العفو؟
- ٢٠١ ..... سر : اذكر بعض الأحاديث والآثار في فضل العفو؟
- ٢٠١ ..... سر : اذكر بعض الآثار في فضل الرفق؟
- ٢٠١ ..... سر : وما هو الحقد؟
- ٢٠١ ..... سر : لو ذكرت بعض الأحاديث والآثار في ذم الحسد؟
- ٢٠٢ ..... سر : وما الفرق بين الحسد والغبطة؟

- س: ما هي أسباب الحسد؟ ..... ٢٠٢
- س: وما أسباب كثرة الحسد؟ ..... ٢٠٤
- س: وما علاج الحسد؟ ..... ٢٠٥
- س: اذكر طرفاً من الآيات والأحاديث الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها؟ ..... ٢٠٧
- س: لو ذكرت بعض آثار السلف وأقوالهم في التزهيد في الدنيا وذمها وحاضهم معها؟ ..... ٢٠٨
- س: اذكر بعض الأمثلة التي ضربها السلف للدنيا؟ ..... ٢٠٩
- س: وهل كل الدنيا مذمومة؟ ..... ٢١١
- س: هل المال مذموم؟ ..... ٢١٢
- س: ما الفوائد الدينية والدنيوية للمال الحلال؟ ..... ٢١٢
- س: تحدث عن ذم الحرص والطمع ومدح القناعة؟ ..... ٢١٥
- س: وما علاج الحرص والطمع؟ ..... ٢١٦
- س: ومتى يستعمل العبد القناعة ومتى يستعمل الإيثار؟ ..... ٢١٧
- س: لو ذكرت بعض حكايات الأسخياء وأخبارهم؟ ..... ٢١٧
- س: اذكر بعض الأحاديث في ذم البخل؟ ..... ٢١٩
- س: لو ذكرت بعض الأقوال في ذم البخل؟ ..... ٢٢٠
- س: اذكر بعض حكايات البخلاء؟ ..... ٢٢٠
- س: وما هي أرفع درجات السخاء؟ ..... ٢٢٠
- س: وما هو الحد الفاصل بين البخل والسخاء؟ ..... ٢٢٢
- س: وضح خطر الرياء؟ ..... ٢٢٣

- س : وما الأسباب الباعثة على الرياء؟ ..... ٢٢٤
- س : لو وضحت العلاقة بين حب الجاه والمال؟ ..... ٢٢٥
- س : وما علاج حب الجاه؟ ..... ٢٢٦
- س : وضح خطورة الاهتمام بمدح الناس وذمهم؟ ..... ٢٢٧
- س : اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الرياء؟ ..... ٢٢٨
- س : اذكر أقسام الرياء، مع تفصيل القول في كل نوع، وبيان خطره؟ ..... ٢٢٨
- س : وما هي أبواب الرياء، وما هي درجاته؟ ..... ٢٣١
- س : ما هو الرياء الخفي وما خطورته؟ ..... ٢٣٢
- س : لو أمكن بيان ما يحبطه الرياء من العمل؟ ..... ٢٣٥
- س : وما هو دواء الرياء، وكيف السبيل إلى علاجه والتخلص منه؟ ..... ٢٣٥
- س : ما هو تقسيم الأعمال من حيث الجهر بها والإسرار؟ ..... ٢٣٨
- س : ما حكم ترك الطاعات خوفاً من الرياء؟ ..... ٢٣٩
- س : وماذا لو نشط الإنسان في العمل والعبادة إذا كان بصحبة الناس هل هذا من الرياء؟ ..... ٢٣٩
- س : اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الكبر؟ ..... ٢٤١
- س : ما هي درجات وأقسام الناس في الكبر؟ ..... ٢٤٣
- س : وما أمارات الكبر وعلاماته؟ ..... ٢٤٤
- س : لو ذكرت بعض خصال المتكبرين؟ ..... ٢٤٤
- س : وما السبيل إلى علاج الكبر ومداواته؟ ..... ٢٤٥
- س : اذكر بعض الأحاديث والآثار في ذم العجب؟ ..... ٢٤٨

- س: وما أسباب العجب وما علاجه؟ ..... ٢٤٩
- س: وماذا عن الغرور وخطره؟ ..... ٢٥١
- س: لو ذكرت أكثر أصناف الناس التي يقع فيها الغرور؟ ..... ٢٥٢
- س: تحدث عن التوبة ومنزلتها وأهميتها؟ ..... ٢٦٣
- س: ما هي أقسام الذنوب باعتبار ما يثيرها؟ ..... ٢٦٥
- س: ما هي أقسام الذنوب باعتبار الصغائر والكبائر؟ ..... ٢٦٦
- س: كيف توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا؟ ..... ٢٦٧
- س: ما هي الأمور التي تعظم بها الصغائر؟ ..... ٢٧٠
- س: ما هي شروط التوبة؟ ..... ٢٧٢
- س: ما هي أقسام العباد من حيث الدوام على التوبة؟ ..... ٢٧٥
- س: ما هي الأمور التي ينبغي على التائب فعلها؟ ..... ٢٧٦
- س: ما هو دواء الإصرار على المعصية؟ ..... ٢٧٧
- س: ما الذي ينبغي للوعاظ أن يسلكوه مع الخلق؟ ..... ٢٧٧
- س: ما فضل الصبر وما حقيقته؟ ..... ٢٨٠
- س: ما هي أقسام الصبر؟ ..... ٢٨١
- س: ما هي آداب الصبر؟ ..... ٢٨٤
- س: ما هي الأمور المعينة على الصبر؟ ..... ٢٨٦
- س: وضع فضل الشكر ومنزلته في الشرع؟ ..... ٢٨٨
- س: هل الشكر يكون باللسان فقط، فصل القول في ذلك؟ ..... ٢٨٩
- س: بماذا يتم الشكر؟ ..... ٢٨٩

- س: وضح تعريف النعمة وأقسامها؟ ..... ٢٩٣
- س: ما هي أقسام النعم من حيث كونها مطلوبة لذاتها أو لغيرها؟ ..... ٢٩٤
- س: اذكر بعض الأسباب التي تتم بها نعمة الأكل؟ ..... ٢٩٥
- س: اذكر بعض نعم الله في الأطعمة والأغذية وعجائب ذلك؟ ..... ٢٩٩
- س: ما السبب في تقصير الخلق في شكر النعمة؟ ..... ٣٠٠
- س: ما هي أسباب الغفلة عن نعم الله ﷻ؟ ..... ٣٠١
- س: ما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى؟ ..... ٣٠٤
- س: قد ذكرت أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر، وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البلاء؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر؟! فإن الصبر يستدعي المأ، والشكر يستدعي فرحاً، وهما متضادان؟ ..... ٣٠٤
- س: ما هي الأمور الموجودة في البلاء التي ينبغي للعاقل أن يفرح بها ويشكر عليها؟ ..... ٣٠٦
- س: الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم، فهل لنا أن نسأل الله ﷻ البلاء؟ ..... ٣٠٨
- س: أيهما أفضل الصبر أم الشكر؟ ..... ٣٠٨
- س: تحدث عن فضل الرجاء وأهميته؟ ..... ٣١٠
- س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الرجاء؟ ..... ٣١٢
- س: من من الناس تشد حاجته لدواء الرجاء؟ ..... ٣١٢
- س: تحدث عن أسباب الرجاء وطرقها؟ ..... ٣١٣
- س: ما تعريف الخوف وما حقيقته؟ ..... ٣١٥

- س: اذكر بعض ثمرات الخوف؟ ..... ٣١٥
- س: ما هي أحوال الناس مع الخوف؟ ..... ٣١٦
- س: ما هي أقسام الخوف؟ ..... ٣١٧
- س: ما العلاقة بين الرجاء والخوف؟ ..... ٣١٨
- س: أيهما ينبغي للإنسان أن يغلبه الخوف أم الرجاء؟ ..... ٣١٨
- س: كيف يحصل اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى؟ فينبغي أن يكون رجاءه أقوى؟ ..... ٣١٩
- س: كيف يستجلب الخوف؟ ..... ٣٢٠
- س: ما هي أسباب سوء الخاتمة أعاذنا الله منها؟ ..... ٣٢٢
- س: ما هي مراتب سوء الخاتمة؟ ..... ٣٢٢
- س: اذكر بعض الأخبار حول خوف ملائكة الرحمن؟ ..... ٣٢٤
- س: اذكر بعض الأخبار حول خوف الأنبياء؟ ..... ٣٢٥
- س: اذكر بعض أخبار خوف نبينا محمد ﷺ؟ ..... ٣٢٥
- س: اذكر بعض صور خوف أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم؟ ..... ٣٢٦
- س: اذكر بعض أخبار خوف التابعين؟ ..... ٣٢٧
- س: اذكر فضل بعض الدنيا؟ ..... ٣٢٨
- س: من هو الفقير؟ ..... ٣٢٩
- س: ما هي أحوال العبد عند فقره؟ ..... ٣٢٩
- س: اذكر بعض الآيات والأخبار في فضيلة الفقر على الغنى؟ ..... ٣٣٠
- س: أيهما أفضل الغني أم الفقير؟ ..... ٣٣١

- س: اذكر بعض آداب الفقير في فقره؟ ..... ٣٣٢
- س: ما هي آداب الفقير في قبول العطاء؟ ..... ٣٣٣
- س: ما حكم السؤال لغير ضرورة؟ ..... ٣٣٤
- س: اذكر أحوال السائلين للعطاء؟ ..... ٣٣٥
- س: وضع مقام الزهد وفضله؟ ..... ٣٣٦
- س: اذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار في فضل الزهد؟ ..... ٣٣٦
- س: ما هي درجات الزهد؟ ..... ٣٣٧
- س: ما هي أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه؟ ..... ٣٣٨
- س: ما حكم الزهد في ضروريات الحياة وكيف يكون ذلك؟ ..... ٣٣٨
- س: ما هي علامات الزهد؟ ..... ٣٤٢
- س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة التوكل؟ ..... ٣٤٣
- س: ما هي طبقات التوحيد التي ينبنى عليها التوكل؟ ..... ٣٤٣
- س: ما هو حد التوكل وتعريفه؟ ..... ٣٤٤
- س: كيف تكون أعمال المتوكلين؟ ..... ٣٤٥
- س: اذكر منزلة المحبة لله ﷻ؟ ..... ٣٤٩
- س: ما هي أجل اللذات وأعلامها؟ ..... ٣٥٣
- س: ما هي الأسباب المقوية لحب العبد لربه ﷻ؟ ..... ٣٥٧
- س: ما معنى الشوق لله تعالى؟ ..... ٣٦٠
- س: تحدث عن محبة الله تعالى للعبد ومعناها؟ ..... ٣٦١
- س: ما هي علامات محبة العبد لله تعالى؟ ..... ٣٦١

- س : وما علامات محبة العبد لربه ﷺ؟ ..... ٣٦٢
- س : ما معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله ﷻ؟ ..... ٣٦٥
- س : اذكر بعض الآثار في فضل الرضا؟ ..... ٣٦٦
- س : هل يتصور الرضا فيما يخالف الهوى؟ ..... ٣٦٧
- س : هل الدعاء يناقض الرضا؟ ..... ٣٧٠
- س : اذكر بعض الآيات والأحاديث في النية وحقيقتها وفضلها؟ ..... ٣٧٣
- س : ما الفرق بين النية والقصد والإرادة؟ ..... ٣٧٤
- س : إلى كم قسم تنقسم الأعمال، وهل يمكن أن تغير النية منها؟ ..... ٣٧٤
- س : اذكر طرفاً من أهمية الإخلاص وفضله؟ ..... ٣٧٨
- س : اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة الإخلاص؟ ..... ٣٧٨
- س : وضح حقيقة الإخلاص؟ ..... ٣٧٩
- س : ما حكم العمل المشوب وهل لصاحبه ثواب؟ ..... ٣٨١
- س : اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الصدق والصادقين؟ ..... ٣٨١
- س : ما هي المعاني التي يستخدم فيها لفظ الصدق؟ ..... ٣٨٢
- س : اذكر بعض الأحاديث في المحاسبة والمراقبة؟ ..... ٣٨٣
- س : اذكر أهمية المحاسبة والمراقبة؟ ..... ٣٨٤
- س : تحدث عن المشاركة وأثرها في المحاسبة؟ ..... ٣٨٤
- س : وماذا عن مقام المراقبة وأثره في المحاسبة؟ ..... ٣٨٧
- س : وماذا عن المحاسبة بعد العمل وأهميتها؟ ..... ٣٨٨
- س : تحدث عن مقام المجاهدة وأهميته في المحاسبة؟ ..... ٣٩٠

- س: اذكر بعض الآثار في مقام معاتبة النفس وتوبيخها؟ ..... ٣٩١
- س: اذكر أهمية التفكير وبعض الآيات والأحاديث الواردة في ذلك؟ ..... ٣٩٢
- س: في ماذا يكون الفكر؟ ..... ٣٩٣
- س: ما حكم التفكير في ذات الله ﷻ؟ ..... ٣٩٥
- س: وضح أهمية ذكر العبد للموت وأثره على الحياة؟ ..... ٣٩٧
- س: اذكر بعض ما ورد في فضل ذكر الموت؟ ..... ٣٩٨
- س: ما هي أسباب طول الأمل؟ ..... ٣٩٩
- س: ما هي أحوال الناس مع طول الأمل؟ ..... ٤٠٠
- س: اذكر بعض ما ورد في شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده؟ ..... ٤٠٢
- س: كيف كانت وفاة رسول الله ﷺ؟ ..... ٤٠٣
- س: اذكر ما ورد في وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟ ..... ٤٠٤
- س: وماذا عن وفاة عمر الفاروق رضي الله عنه؟ ..... ٤٠٥
- س: اذكر بعض ما ورد في وفاة عثمان رضي الله عنه؟ ..... ٤٠٦
- س: وكيف كانت وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ ..... ٤٠٦
- س: اذكر بعض ما نقل عند موت بعض من الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم؟ ..... ٤٠٧
- س: ما حكم زيارة القبور؟ ..... ٤٠٨
- س: ما هي حقيقة الموت؟ ..... ٤٠٨
- س: اذكر بعض ما ورد في ذكر القبر وضمته؟ ..... ٤١٠
- س: ما هي أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار؟ ..... ٤١٢

- س: اذكر بعض ما ورد في جهنم وأهوالها أعاذنا الله وإياكم منها؟ ..... ٤١٤
- س: اذكر بعض ما ورد في نعيم الجنة وعظمه نسأل الله العظيم من فضله؟ .... ٤١٥
- س: تحدث عن سعة رحمة الله ﷻ نسأل الله من فضله؟ ..... ٤١٧
- س: اذكر بعض ما ورد في شفاعة نبينا ﷺ وشفاعة الصالحين من أمتهم؟ ..... ٤٢٠



obeykandi.com

# الفهرس الإجمالي

obeykandi.com

## الفهرس الإجمالي

٥	.....	مقدمة المؤلف
٣٧	.....	العلم وفضله
٤١	.....	علم المعاملة
٤٢	.....	العلوم المحمودة
٤٤	.....	آداب المعلم والمتعلم
٤٥	.....	آفات العلم
٤٨	.....	الطهارة وأسرارها
٤٩	.....	فضائل الصلاة
٥٣	.....	صلاة الجمعة
٥٦	.....	الزكاة وأسرارها
٥٧	.....	دقائق الآداب الباطنة في الزكاة
٥٩	.....	آداب القابض للزكاة
٦٠	.....	صدقة التطوع فضلها وآدابها
٦٢	.....	الصوم وأسراره
٦٢	.....	سنن الصوم
٦٣	.....	بيان أسرار الصوم وآدابه
٦٥	.....	الحج وأسراره
٦٨	.....	آداب القرآن وفضائله
٦٩	.....	آداب التلاوة
٧١	.....	الأذكار والدعوات
٧٣	.....	أوراد الليل والنهار وترتيبها
٧٦	.....	أوراد الليل
٨٠	.....	اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

٨٢.....	قيام الليل وفضله
٨٢.....	الأسباب الميسرة لقيام الليل
٨٥.....	آداب الأكل
٨٨.....	آداب الضيافة
٩٠.....	آداب النكاح
٩٣.....	آداب المعاشرة
٩٦.....	آداب الولادة
٩٦.....	آداب الطلاق
٩٧.....	آداب الكسب والمعاش
١٠٢.....	الحلال والحرام
١١٣.....	آداب الصحة ومعاشرة الخلق
١١٥.....	صفات الصاحب
١١٧.....	حقوق الإخوان
١٢٢.....	حقوق المسلم
١٢٥.....	آداب عيادة المريض
١٢٥.....	آداب تشييع الجنائز
١٢٦.....	حقوق الجار
١٢٦.....	حقوق الأقارب والأرحام
١٢٧.....	حقوق الأولاد
١٢٧.....	حقوق المملوك
١٢٨.....	العزلة والخلطة
١٣٧.....	آداب السفر
١٤٠.....	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١٥٨.....	حكم السماع
١٦٠.....	من أخلاق النبوة
١٦٣.....	أحوال القلوب
١٦٣.....	مداخل إبليس

١٦٥	ثبات القلوب على الخير
١٦٧	حسن الخلق
١٦٩	الطريق إلى تهذيب الأخلاق
١٧٠	علامات مرض القلب وصحته
١٧٣	شهوات النفوس
١٧٤	علامات حسن الخلق
١٧٦	تنشئة الأبناء
١٧٨	شهوة البطن
١٧٩	شهوة الفرج
١٨٠	آفات اللسان
١٨١	الكلام فيما لا يعني
١٨٢	الخوض في الباطل
١٨٣	التعمر في الكلام
١٨٣	الفحش والسب
١٨٤	المزاح
١٨٥	السخرية والاستهزاء
١٨٥	إفشاء السر والكذب
١٨٦	الغيبة
١٩١	النميمة
١٩٢	ذي اللسانين
١٩٥	الغضب
١٩٩	كظم الغيظ
١٩٩	الحلم
٢٠٠	العفو
٢٠١	الرفق
٢٠١	الحقد والحسد
٢٠٧	الدنيا

٢١٢.....	المال
٢١٥.....	الحرص والطمع
٢١٩.....	البخل
٢٢٣.....	الرياء
٢٤١.....	الكبر
٢٤٨.....	العجب
٢٥١.....	الغرور
٢٦٣.....	التوبة
٢٨٠.....	الصبر
٢٨٨.....	الشكر
٣١٠.....	الرجاء
٣١٥.....	الخوف
٣٢٨.....	الفقر
٣٣٦.....	الزهد
٣٤٣.....	التوكل
٣٤٩.....	المحبة
٣٦٦.....	الرضا
٣٧٣.....	النية
٣٧٨.....	الإخلاص
٣٨١.....	الصدق
٣٨٣.....	المحاسبة والمراقبة
٣٩٢.....	التفكير
٣٩٧.....	الموت
٤١٠.....	القبر
٤١٤.....	جهنم
٤١٥.....	الجنة
٤١٧.....	سعة رحمة الله تعالى
٤٢٠.....	الشفاعة